كتابي ٣٩

# اعترافات جان جاك روسو

## الجزء الأول

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقي بالفجالة - القاهرة - ت ٩٠٨٤٥٥

ماسي مراد

# إعترافات جان جاك روسو

# CONFESSIONS
# de
# J. J . Rousseau

(١)

# حلم .. طالما تمنيت تحقيقه!

**عزيزى القارىء ..**

● بصدور هذه الترجمة الكاملة « لاعترافات » جان جاك روسو ، يتحقق حلم من اضخم الأحلام الأدبية التى راودتنى منذ عشقت الأدب ، وادركتنى حرفته ! .. ويتجسم هدف من اعز الأهداف التى أغرتنى بإصدار سلسلة (مطبوعات كتابى) منذ زمن قريب . ولئن كانت هذه المطبوعات قد تمكنت من ان تبلغ هذا الهدف فى مثل هذا الزمن القصير ، بعد ان ظلت « اعترافات » روسو منيعة «مستعصية» على النشر بالعربية طيلة نحو قرنين كاملين ، ترجمت خلالهما إلى جميع اللغات الحية ، ما عدا لغتنا العربية ! .. فإن هذه السلسلة ما كانت لتحقق هذا الهدف من أهدافها لو لم تتلقها انت وتتعهدها منذ ولدت برعايتك وإعزازك اللذين مكناها من تذليل جميع الصعاب التى تعترض طريقها ، والسير قدما نحو غايتها .

وإذا اردت ان تعرف قيمة هذا الكنز الأدبى الخالد الذى توافيك به ( مطبوعات كتابى ) اليوم ، فإليك ما كتبه عنه المفكر المطلع الأستاذ سلامه موسى فى عدد ١٩ نوفمبر عام ١٩٥٥ من جريدة ( اخبار اليوم ) .. إذ قال : « .. واعترافات جان جاك روسو من الكتب التى كان يجب ان تترجم إلى لغتنا قبل ١٠٠ أو ١٥٠ سنة .. فلقد تغيرت اوربا بتأثير افكار هذا الأديب . ونستطيع أن نعزو اهم التطورات التى حدثت فى هذه القارة إلى آرائه، التى يتلخص مغزاها فى كلمات معدودة، هى: ان الطبيعة حسنة، والإنسان طيب، ولكنهما يفسدان بالمجتمع السيىء .. فما احوجنا فى البلاد العربية إلى هذه الخمائر!».

(ب)

.. كما كتب الأديب والشاعر الكبير الأستاذ عبد الرحمن صدقى فى مقال بمجلة ( الثقافة ) بتاريخ ١٤ فبراير عام ١٩٣٩ يقول : « انقضى نيف ومائة وستون سنة على وفاة «روسو» ، وانصرف الأدباء وجمهرة القراء عن مطالعة ( العقد الاجتماعى) و ( اميل ) و ( هيلويز الجديدة ) ، ولكنهم لم ينصرفوا ولن ينصرفوا عن مطالعة ( اعترافاته ) ، ذلك أن الآراء فى السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل ، اما نجوى النفس البشرية فهى لا تتغير ولا تتبدل ، فنحن نتعرف فيما نحسه فى أعماقنا على غرائز رجل الكهوف .. فكم بالحرى إذا كان صاحب هذه النجوى مثل صاحب ( الاعترافات ) ، اقرب إلى عصرنا بثقافته ، وإن كان اشبه بأهل الفطرة فى صراحته ، وجرأته ؟ ! » .

والواقع ان هذه ( الاعترافات ) التى تقدم « مطبوعات كتابى » إليك اليوم أول ترجمة امينة كاملة لها باللغة العربية، والتى تعتبر من أعظم الشوامخ الخالدة فى الأدب «الكلاسيكى»، هى ادق واصدق مصدر لسيرة المفكر العبقرى « جان جاك روسو » ، فى الثلاثة والخمسين عاما الأولى من حياته على الأقل .. ولقد كان من اهم الميزات التى كتبت الخلود لهذه ( الاعترافات ) ، انها كانت أول عمل ادبى يكشف صاحبه فيه عن نفسه ، فيظهرها على حقيقتها الكاملة دون اى زيف او تستر .. فقد سجل « روسو » فى هذا الكتاب ادق أحداث حياته — خيرها وشرها ، طيبها وخبيثها — دون ان يجفل من مواجهة الحقيقة ، وكأنه مؤمن صادق التوبة ، يصارح إلهه باخطائه برهانا على صدق توبته ، والتماسا لصفحه .

( ج )

ولكن .. هل كان هذا هو الهدف الذى ابتغاه « جان جاك روسو » من وراء تسجيل اعترافاته ؟

قد نجد الجواب عن هـذا السؤال فى مؤلفاته التى سبقت « الاعترافات » ، وفى كتاب « اميل » بالذات .. فلقـد أورد « روسو » فى هذا الكتاب ، وفى بعض مؤلفاته السابقة ، صورا من حياته، ومن الشخصيات التى صادفته وأثرت فيه.. ولكنه كان يسـدل عليها سترا من الزيف و « الرتوش » ، شأن كل كاتب واديب ، حين توحى إليه بعض مراحل حياته وذكرياته بمادة تنساب على طرف قلمه أثناء الكتابة، فيحاول أن يحيطها ببعض المظاهر المفتعلة التى تباعد بين هذه المادة وبين شخصيته الحقيقية فى نظر القارىء !

ولكن « روسو » كان يهدف من إيراد هذه الذكريات إلى أكثر من مجرد رسم شخصيات ، أو افتعال أحـداث . كان يسعى إلى أن يقدم تجاربه للناس ، سيما فى ميدان التربيـة ورعاية النشىء . فلمـا واتتـه الجـرأة ، نزع سـتر الزيف والتضليل ، وساق الحـديث صريحـا واضـحا ، واعترف بالسـرقة والانحراف ـ مثلا ـ لينبه الآباء إلى العوامل التى قد تدفع بالأبناء بعيدا عن جادة الصواب .. ولينبه المجتمع إلى الأشياء التى تنكبه بالمنحرفين من الأعضاء .

وهذا ما نلمسه واضحا فى بعض مواضع من «الاعترافات» : فهو يقول تعليقا على معاملة ابيه لأخيه الأكبر : « كان من جراء الحنان الضافى الذى أسبغه ابى على ، ان أهمل هـذا الأخ .. وتأثرت تربية اخى بهذا الإهمال ، فسلك مسالك السوء قبل أن يبلغ سنا تتناسب مع ادمان الفجور ! » .... الخ .

.. ويبين – فى سياق حديثه عن المدة التى قضاها فى تعلم حرفة الحفر على المعادن – كيف أن مخالطة الصغار لزملاء يكبرونهم سنا ، ويختلفون عنهم بيئة ونشأة ، يدفعهم إلى الخضوع لما يوحى به إليهم هؤلاء الكبار .. إذ تعود «جان» الصغير السرقة بإيعاز من زميل له !

كل هذه الصور توحى بأن « الاعترافات » لم تكن – فى غايتها – سوى دروس اجتماعية وتربوية .

## الاضطهادات تلاحقه فى كل مكان !

● ولقد تناولت « الاعترافات » حياة «روسو» حتى سنة ١٧٦٥ .. ومن الطريف أنه بدأ فى وضعها عندما هاجر إلى انجلترا . فإن بعض كتبه السابقة – « أميل » و « العقد الاجتماعى » و « هيلويز الجديدة » – تضمنت من الآراء والهاجمات ما أثار غضب حكومة فرنسا ، ورجال الكنيسة ، وانصار المدارس الفلسفية فى فرنسا وهولندا وجنيف ، حتى لقد احرقت كتبه علنا فى بعض البلدان ، واضطر إلى أن يهرب من فرنسا إلى جمهورية ( بيرن ) ، ولكن مجلس شيوخها أمره بمبارحتها ، فرحل إلى (مورتيير) بمقاطعة نيوشاتل – وكانت تحت حكم فردريك الثانى البروسى ..

على أن « روسو » ما لبث أن اصدر كتاب « خطابات الجبل » ، فاذا الضجة التى احدثها هذا الكتاب ، تضطره إلى الرحيل إلى جزيرة ( سان بيير ) فى بحيرة ( بيين ) .. ولكن مجلس شيوخ جمهورية ( بيرن ) عاد فأمره بمبارحة هذه الجزيرة التى كانت تابعة للجمهورية !

وكان « روسو » قد تلقى دعوة من صديق إنجليزى ، فسافر إلى إنجلترا .. ووصل إلى هناك فى يناير سنة ١٧٦٦ ، فمكث شهرين فى لندن ، ثم انتقل إلى الريف فى ( ووتون ) بسترادفوردشاير ، حيث وضع الكراسات الست الأولى من « الاعترافات » . وتصادف أن نشرت الصحف فى تلك الأثناء خطابا بتوقيع ملك بروسيا ، يطعن فى أخلاق « روسو » ، فظن هذا بمضيفية واصدقائه فى انجلترا الظنون، ونزح فى مايو سنة ١٧٦٧ إلى ( اميين ) ، حيث نزل بقلعة (ترای) التى كانت ملكا للأمير دى كونتى ، فأقام بها ردحا تحت اسم « رينو » !.. وهناك استأنف كتابة «الاعترافات» . ثم رحل إلى (جرينوبل)، فما لبث ان ملها وسئم اهلها ، ومن ثم رحل إلى (بورجوان) ، يبدأن جوها لم يلائم صحته ، فانتقل فى سنة ١٧٦٩ إلى ( مونكان ) ، حيث اتم الكراسة العاشرة من اعترافاته ..

وما لبث « روسو » أن عاد إلى باريس ، حيث سمح له بالإقامة ، على شريطة ان لا يكتب شيئا ضد الحكومة أو الدين. فانصرف إلى نقل « النوتات » الموسيقية ، وإلى الاختلاط بعلية القوم . حتى إذا كان شهر مايو سنة ١٧٧٨ ، نقل الكاتب الفيلسوف — الذى كان قد بلغ السادسة والستين من عمره — إلى كوخ فى ( ارمونفيل ) يمتلكه الكونت جيراردان .. وهناك، توفى فجأة فى ٣ يوليو من ذلك العام . وقد ذهب فريق من الناس — ومنهم مدام دى ستايل — إلى أنه انتحر .. كما ذهب فريق آخر إلى أنه مات فى نوبة صرع .

## الطبعة التى ترجمنا عنها الاعترافات

● ولقد كان من عادة « روسو » أن يشرف بنفسه على

إصدار طبعة واحدة من كل كتاب يضعه . على أنه كان يتدخل في الطبعات التي تصدر بعد ذلك ، فيضيف إليها بعض الملاحظات ، دون ان يحذف او يغير شيئا من موادها .

ولقد تولى ثلاثة من اقرب خلصائه — هم « دوبيرو » و « مولتون » الجنيفى ، ومركيز « جيراردان » — فحص مخطوطاته بعد موته ، ومطابقتها على ما سبق أن أفضى به إليهم .. وقد انتهت تحقيقاتهم بصدد « الاعترافات » إلى اصدار طبعة منها فى ( جنيف ) فى سنة ١٧٨٢ .. على أن « دوبيرو » لم يرض عن التعديلات التى ادخلت على الكراسات الست ، فأصدر بنفسه طبعة أخرى ، استند فيها إلى ما كان بين يديه من وثائق ، لا سيما رسائل « روسو » .

وفى سنة ١٨٠١ صدرت طبعة ثالثة من « الاعترافات » ، أخذت عن أصول قدمتها مدام « روسو » ، ولا تزال محفوظة فى البرلمان الفرنسى .. وكان الفارق بين كل من هذه الطبعات الثلاث وبين الآخرين ، لا يعدو مجرد تعديلات بسيطة فى بعض العبارات ، وليس فى الوقائع .

والترجمة التى تقدمها لك «مطبوعات كتابى» اليوم ، أخذت عن طبعة أصدرتها دار « لوفيفر » فى سنة ١٨٥٩ ، بعد دراسة الطبعات الثلاث وتحقيقها ، ومن تمهى تعتبر أدق طبعة صدرت من «اعترافات جان جاك روسو» .. وقد بذل الزميل القدير المرحوم محمد بدر الدين خليل فى نقلها إلى العربية كل جهد ممكن ، للمحافظة على النص والروح بأمانة تامة ، لم يشبها أى اختصار ، أو حذف ، أو تحوير .. بل لقد بذل عناية فائقة

لجعل التعبير والاسلوب اقرب ما يكونان إلى النص الذى كتبه الأديب العبقرى ، بقدر ما سمحت بذلك لغتنا العربية ..

وأخيرا ، نأملى ان تكون « مطبوعات كتابى » ، بنقلها هذا التراث الإنسانى الخالد إلى لغتنا ، قد ساهمت فى تزويد المكتبة العربية بأثر شامخ من شوامخ الأعمال الأدبية الباقية على الزمن ..

ولهذه المناسبة ، احسبك تقرنى على انه لم يكن من الممكن نشر كتاب يبلغ الالف صفحة تقريبا ، فى جزء واحد من (مطبوعات كتابى ) ، ومن ثم لم يكن بد من نشر هـذه « الاعترافات » فى خمسة أجزاء متتابعة ، أولها هذا الجزء الذى بين يديك ..

وإلى اللقاء على صفحات الجزء الثانى من هذه الاعترافات.

والله ولى التوفيق

**حلمى مراد**

كتابي

٣٩

يصدره : هاشم مراد

مطبوعات كتابي

# اعترافات
# جان جاك روسو

## الجزء الأول

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

# كتابى

إصدار جديد

يصدره حلمى مراد

●●●

كتب دورية للقصة والثقافة الرفيعة .

● مختارات كتابى : باقة منتقاة

متجانسة لأروع الكتب العالمية

● مطبوعات كتابى : الترجمة

الأمينة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

● روايات كتابى : ترجمة

أحدث الروايات العالمية المعاصرة

●●●

شعار كتابى

مصباح الفكر عند الإغريق

●●●

رئيسة

الأستاذ / إسماعيل دياب

●●●

إشراف

الأستاذ / حدى مصطفى

●●●

المكاتبات

هيئة التحرير : حلمى مراد : ١٨ شارع العباسين ـ مصر الجديدة ت : ٦٧٥١٢٦ ـ ٢٩١٤٤٤٩

الناشر : المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة : ٨٢٦٢٨٠ - ٨٢٦٧٤٧

---

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة ـ ٤ شارع الإسحاق بمنشية البكرى بروكسى مصر الجديدة ـ القاهرة : ت : ٨٢٦٢٨٠ ـ ٩٠٨٤٥٥ ـ ٢٥٨٦١٩٧ ج.م.ع .

# اعترافات
# جان جاك روسو

## الجزء الأول

# الكراسة الأولى

## ١ ـ من سنة ١٧١٢ إلى سنة ١٧١٩

إننى مقـدم على مشروع لم يسبقه مثيل ، ولن يكون له نظير . إذ اننى أبغى أن أعرض على اقرانى إنسانا فى أصدق صور طبيعته .. وهذا الإنسان هو : انا !.. انا وحدى !.. فانى أعرف مشاعر قلبى ، كذلك أعرف البشر ! ولست أرانى قد خلقت على شاكلة غيرى ممن رأيت ، بل إننى لأجرؤ على أن اعتقد بأننى لم أخلق على غرار أحد ممن فى الوجود !.. وإذا لم أكن أفضل منهم ، فاننى ـ على الأقل ـ أختلف عنهم !.. ولن يتسنى البت فيما إذا كانت الطبيعة قد أصابت أو أخطأت إذ أتلفت القالب الذى صاغتنى فيـه ، إلا بعد قراءة هـذه الاعترافات !

فاذا ما انطلقت آخر صيحات بوق البعث ، عندما يقدر له أن يدوى ، فلسوف أمثل أمام الحاكم العادل وهـذا الكتاب بين يدى . ولسوف أقول فى رباطة جاش : « هذا ما فعلت ، وما فكرت ، وما كنت .. لقد رويت فى كتابى الطيب والخبيث على السواء ، بصراحة ، فلم أمح أى ردىء ، ولا انتحلت زورا أى طيب .. وإذا كنت قد استخدمت بعض التزويق الفارغ ـ بين وقت وآخر ـ فما ذلك إلا لأملأ فراغـا نشـأ عن نقص فى الذاكرة . ولربما قطعت بصدق أمر أعـرف أنه « قد » يكون صحيحا ، ولكننى قط لم أزعم صدق ما عرفته زيفا .. لقـد صورت نفسى على حقيقتها : فى ضعتهـا وزرايتها .. وفى

صلاحها ، وحصافة عقلها ، وسموها .. تبعا للحال التى كنت فيها !.. لقد كشفت عن أعمق أغوار نفسى ، كمـــا كنت انت تراها ، أيها الخالد السرمدى .. فأجمع حولى الحشد الذى لا حصر له من أبناء جنسى ، ودعهم يصغون إلى اعترافاتى ، فيرثون لخستى ، ويخجلون لمثالبى . ثم ادع كلا منهم إلى أن يكشف بدوره ـ وبعين الصراحة ـ أسرار فؤاده ، عند قوائم عرشك ، وليقل إن جرؤ: « لقد كنت خيرا من ذاك الرجل » !

* * *

ولدت فى ( جنيف ) ، فى عام ١٧٢١ ، للمواطنين « ايزاك روسو » و « سوزان برنار » ، وكان تقسيم ميراث أسرة أبى ـ على قلته ـ بين خمسة عشر ابنا وابنة ، قد هبط بنصيب أبى إلى نذر لا يكاد يذكر ، فلم تكن له وســيلة عيش سوى مهنته كـ « ساعاتى » ـ وكان فى الحق جد بارع فيها ـ أما أمى فكانت أحسن منه حالا . كانت ابنة القس البروتستانتى « برنار » ، وكانت ماهرة ، جميلة ، وقد وجد والدى عناء فى الظفر بيدها ، إذ بدا حبهما منذ طفولتهما الباكرة ، وما إن بلغا الثامنة حتى اعتادا أن يتمشيا كل مساء فى طريق ( تربى ) ، أبدع طرق جنيف.. فلما صارا فى العاشرة ، لم يعودا يفترقان. وعزز التعاطف والائتلاف الروحى ذلك الاحساس الذى خلقته الألفة بينهما .. ولم يكن كل منهما ـ وقد خلق مرهف الحس رقيق الشعور ـ ليرجو سوى تلك اللحظة التى يتاح له فيها أن يكتشف عند الآخر نفس ما كان يخالجه من إحســاس .. أو ـ على الأصح ـ كانت تلك اللحظة ترتقبهما ، فأسلم كل منهما قلبه للآخر فى أول فرصة .. وكانى بالقدر ـ حين لاح

انه يعارضهما ـ قد زادهما وجدا .. وإذا بالعاشق الشاب الذى عجز عن الظفر بحبيبته ـ إذ أبى أهلها أن يزوجوه إياها ـ يذوب أسى وحزنا ، فنصحته فتـاته بالترحال ، وبأن يسعى لنسيانها . فسافر ، ولكن .. دون جدوى ، إذ عاد مدلها أكثر من ذى قبل ! ووجد تلك التى أحبها لا تزال وفيـة ، صادقة الحب . فلم يبق لهما ـ بعد تلك التجربـة التى اختبرا بهـا عاطفتهما ـ إلا أن يظلا متحابين طيلة عمريهما .. فأقسما أن يفعلا ذلك ، وباركت السماء تعاهدهما !

وحدث أن وقع « جابرييل برنار »ـ شقيق أمى ـ فى حب احدى شقيقات أبى ، فلم توافق على خطبتـه إلا على شريطة أن يتزوج أخوها من أختـه . وهكذا دبر الحب كل شىء ، وعقدت الزيجتان فى يوم واحد ، فأصبح خالى زوج عمتى، وقدر لأولادهما أن يكونـوا أولاد عمومة وخؤولة لى .. وفى نهاية العام الأول للزواج ، رزق كل من الفريقين بطفل ، ثم تشتت شملهما .. فقـد كان خـالى مهندسـا ، فعين فى خدمـة الإمبراطورية ـ فى المجر ـ تحت إمرة الأمير « يوجين » ، واستطاع أن يبلى بلاء حسنا فى معركة ( بلجراد ) . أما أبى ، فقد رحل ـ بعد مولد أخى الأوحد ـ إلى القسطنطينية ، حيث استدعى ليتولى منصب « ساعاتى السلطان » ! واستطاعت أمى ـ فى غيـابه ـ أن تكسب ولاء عـدد كبير من المعجبين ، بفضل جمالها وذكائها ومواهبها (١) . وكان من أشد هؤلاء

---

(١) كانت مواهبها تفوق مكانتها الاجتماعية بكثير .. فان اباها القس كان يحبها الى درجة العبادة ، وقد بذل فى تعليمها وتربيتهـا عناية فائقة ، ومن

المعجبين تهافتا ، مسيو « ديلا كلوزير » ، المندوب الفرنسى المقيم . ولابد أن شغفه بها كان عارما ، فقد رايته شديد التأثر وهو يحدثنى عنها ، بعد ذلك بثلاثين عاما ! على أن أمى كانت تتذرع لمقاومة كل محاولات بما هو أكثر من الفضيلة .. كانت تحب زوجها حبا مبرحا . وقد راحت تلحف عليه فى العودة ، فترك كل شىء ورجع . وكانت الثمرة التعسة لهذه العودة ، إذ ولدت بعد عشرة أشهر ، ضعيفا سقيما . وقد كبدت أمى حياتها ، وكان مولدى أول ما حاق بى من نحس وتعاسة !

ولم يقص على أحد قط كيف احتمل أبى هذا المصاب ، ولكنى اعرف أنه لم يتعز أبدا ، وكان يخال أنه يرى زوجته فى شخصى ، دون أن يقوى على أن ينسى اننى الذى حرمته إياها !.. أبدا لم يحتضنى دون ان الاحظ — من تنهداته والاختلاجات التى كانت تعتريه وهو يضمنى إلى صدره — أن حسرة مريرة كانت تخالط قبلاته ، فلا تزيدها إلا حنانا . وكان إذا قال لى : « لنتحدث عن أمك يا جان جاك » ، أجبت : « حسنا ، لسوف تبكى إذن يا أبت ! » .. وكانت هذه العبارة

---

=

ثم انها كانت تجيد الرسم ، والغناء ، والعزف على آلة تشبه العود . كما كانت كثيرة الاطلاع ، وكانت تنظم اشعارا لا بأس بها . وقد حدث — اثناء غياب زوجها واخيها — ان خرجت للنزهة مع زوجة أخيها ، فصادفتا شخصا ذكرهما بالغائبين ، واذا هى تقول على الفور شعرا هذا معناه :

وهذان السيدان الغائبان .. عزيزان علينا من كل جانب ، فهما صديقانا وحبيباتنا ، وهما زوجانا وشقيقانا .. وهما والدا طفلينا !

وحدها كفيلة بأن تبعث الدمع إلى عينيه ، فكان يهتف متأوها : « آه !.. الا ردها إلى !.. كن عزائى عن فقدهـا ، وأملأ الفراغ الذى خلفته فى نفسى !.. افترانى كنت أحبك هذا الحب كله ، لو انك كنت مجـرد ابن لى ؟ » .. وبعد اربعين عاما من مصابه فيها ، مات بين ذراعى زوجة ثانية .. ولكن اسم الأولى كان على شفتيه ، وصورتها فى قرارة فؤاده !

وهكذا كان الاثنان اللذان أوجدانى ، ولم يورثانى ـ من كل النعم التى اسبغتها عليهما السماء ـ سوى قلب رقيق مرهف الحس .. ولقد كان قلباهما منبعى سعادتهما ، أما قلبى فقد كان منبع كل شقوة فى حياتى !

* * *

ولقد هبطت إلى الدنيا فى حال تقرب من الموت ، فلم يكن ثمـة أمل يذكر فى إنقاذ حيـاتى . وكنت أحمل فى كيانى بذور علة أخـذت تقـوى على مر الزمن ، ولا تبارحنى فى بعض الأوقات ، إلا لتقسو فى تعذيبى بشكل آخر . وقد أولتنى إحدى عماتى ـ وكانت شابة لطيفة فاضلة ـ من الرعاية ما أنقـذ حياتى . وهى لا تزال حتى كتابة هذه السـطور على قيـد الحياة ، وقد بلغت الثمانين من عمرها ، وتوفرت على تمريض زوج يصغرها سـنا ، ولكن الافراط فى الشراب أنهك قواه .. اننى لأغفر لك ، يا عمتى العزيزة ، أن أبقيت على حياتى . وما أعمق أسفى إذ أرانى عاجزا عن أن أرد اليك ـ فى أواخر ايامك ـ تلك الرعـاية السـابغة التى أوليتنيهـا فى أوائل

ايامى ! (١) .. كذلك لا تزال مرضعتى العزيزة العجوز « جاكلين » على قيد الحياة ، موفورة الصحة والقوة . وكأنى باليدين اللتين فتحتا عينى عند مولدى ، ستغمضانهما عند وفاتى !

ولقد تنبه إحساسى قبل أن يتنبه فكرى .. وهو شىء يحدث لجميع البشر ، ولكننى كنت أكثر من سواى خبرة به وتجربة له .. ولست ادرى ماذا كنت أفعل قبل أن أبلغ الخامسة أو السادسة . ولا أعرف كيف تعلمت القراءة .. وكل ما اذكره ، اول مرة قرأت فيها ، وما كان لها من تأثير ، فقد اتخذتها تاريخا لما درجت عليه من شعور مستمر بالذات .. وكانت امى قد خلفت بعض قصص غرامية ، شرعت فى قراءتها مع أبى ، عقب العشاء ، فى كل ليلة . وكان القصد من ذلك ـ فى البداية ـ مجرد تدريبى على القراءة ، بالاستعانة بالكتب المشوقة . وكان الشغف لم يليث أن دب فينا ، فكنا نتناوب القراءة دون توقف ، وننفق ليالى بأكملها فى هذا العمل . وكنا نعجز عن التحول عن الكتاب حتى نفرغ منه . وكان أبى يقول احيانا فى استحياء ، وهو يسمع العصافير تشرع فى الشقشقة مع مطلع النهار : « هيا بنا إلى الفراش .. كأنى انا الطفل ولست أنت ! » .

---

(١) كانت هذه العمة تدعى مدام جونسيرو . وقد رتب لها روسو ـ منذ مارس سنة ١٧٦٧ ـ معاشا قدره مائة جنيه ، كان يدفعه اليها دائما ، وفى مواظبة حقيقة ، حتى فى اشد أوقات ضيقه !

وبفضل هذا الأسلوب الخطر ، استطعت فى أمد قصير أن اكتسب حذقا بالغا للقراءة والفهم .. ليس هذا فحسب ، بل اننى أحرزت أيضا دارية بالعواطف المشبوبة ، كانت نادرة بالنسبة لطفل فى سنى . فبانت جميع مشاعر الحياة العادية مألوفة لدى، وإن لم أكن أدرك كنهها .. كنت أحس بكل شىء ، دون أن أفقه كنه أحاسيسى . فمن المؤكد أن هـذه المشاعر المهوشة المبهمة ـ التى كنت أشعر بها واحدا بعد آخر ـ لم تؤلف نسيجا قوى الادراك لدى ، لأننى لم أكن أحظى إذ ذاك بهذه القوى ، ولكنهـا ساعدت على تشكيلها فى أعماقى على نسق خاص ، وأوحت إلى بأفـكار خيالية غريبة عن الحياة الإنسانية ، لم تقو التجربة وقوة التفكير على أن تبرئنى تماما منها طيلة حياتى !

## ٢ ـ من سنة ١٧١٩ إلى سنة ١٧٢٣

وفرغنا من الروايات فى صيف سنة ١٧١٩ ، فاذا الشتاء التالى يوافينا بمادة تختلف عنها . إذ اننا لم نكد نستنفد مكتبة أمى ، حتى تحولنا إلى نصيبها ـ الذى آل إلينا ـ من مكتبة أبيها . وكان بها بعض كتب دسمه ، لحسن الحظ . وما كان من المنتظر أن تكون غير ذلك ، إذ كانت جزءا من مكتبة جمعها قس ، كان ـ فى الوقت ذاته ـ عالما ، على غرار ما كان مألوفا فى أيامه . كما كان رجلا ذا ذوق وذكاء ! وكان من هذه الكتب التى آلت الينا : « تاريخ الإمبراطورية والكنيسة » للوسيور ، و « رسالة فى تاريخ العالم » لبوسويه ، و « حيـاة مشاهير الرجال » لبلوتارك ، و «تاريخ البندقية» لنانى ، و «التطورات»

و « الأصول » لأوفيـــد ، و « العوالم » و « حـــوار الموتى » لفونتنيل ، وبعض مؤلفات موليير .. فنقلت كل هذه إلى غرفة أبى ، وأخذت أقرؤها عليه وهو عاكف على عمـــله . وكنت استوعبها فى استساغة نادرة ، بل لعلها كانت فذة بالنسبة لعمرى . وأصبح « بلوتارك » ـ بوجـــه خاص ـ هو أحب المؤلفين إلى نفسى ، فأبرأنى الاســـتمتاع بقراءة كتابه مرارا وتكرارا من بعض الشغف الذى كان قد تملكنى نحو الروايات ، وسرعان ما شغلت بأبطاله : وبدأت أفضل « اجيسلاوس » و « بروتس » و « ارســـــتيدس » على « اوروندتيس » و « ارتامينس » و «جوبا» . وقد أدى هذا الاطلاع المشوق ، والمحادثات التى كان يثيرها بينى وبين أبى ، إلى تولد روح الحرية فى نفسى .. تلك الروح الأبية ، المنيعة ، التى لا تطيق العبودية أو الاسترقاق ، والتى عذبتنى طـــوال حياتى ، فى مواقف كانت بعيدة عن أن تتيح لها مجالا .. وهكذا أصبحت أفكارى فى شغل لا ينقطع بروما وأثينا ، وقد دبت فيهما الحياة خلال سير عظمائهما . وقد أذكى حماسى أننى ولدت مواطنا فى جمهورية ، وابنا لأب كانت وطنيته هى أشد عواطفه اتقادا ، فكنت أخال نفسى إغريقيا أو رومانيا ـ حسب شخصية المعظيم الذى أقـــرأ سيرته ـ وكنت أذيب شخصيتى فى شخصيته ، كمـــا كان الاسهاب فى ذكر صفات الجلد والبسالة ـ التى كانت تستهوينى ـ يجعل عينى تومضـــان ، وصوتى يقوى . وقد حدث ذات يوم ، أن انطلقت أروى سيرة « سيكفولا » للأفراد الذين ضمتهم مائدتنا ، فاذا بالجزع يتولاهم إذ رأونى

فى غمـــرة التحمس أتقـــدم فأضـــم قبضتى على المشـــواة ـ « الشواية » ـ الساخنة ، لأصور عملا من أعمال البطل !

وكان لى شقيق يكبرنى بســـبع سنوات ، يتلقى عن ابى حرفته ، وقد كان من جراء الحنان الضافى الذى أسبغه أبى على ، أن أهمل هذا الأخ ، وهى معاملة لا أقرها ولا أحبذها !.. وتأثرت تربية أخى بهذا الاهمال ، فسلك مسالك السوء قبل أن يبلغ سنا تتناسب مع إدمان الفجور . وقد عهد به أبى إلى معلم آخر ، فكان لا ينفك يهرب منه ، ومن البيت ، حتى اننى نادرا ما رأيته ، واكاد أقول اننى لم أكن أعرفه ! على اننى لم أكف عن أن أحبه فى شـــغف . أما هو فقد أحبنى كما يحب الشريد أى شىء !.. وأنكـــر أن أبى عاقبـــه ـ فى إحـــدى المناسبات ـ بغلظة وغضب ، فاندفعت ملقيا بنفسى بينهما ، واحتضنته .

وبذلك حجبت جسمه بجسمى ، فتلقيت عنه الضربات التى كانت موجهة إليه !.. وظللت متشبثا بهذا الوضع فى عناد ، حتى اضطر أبى فى النهاية إلى أن يتخلى عن العقاب ، إما لأن صرخاتى ودموعى الانت قلبه ، أو لأنه خشى أن يؤذينى أكثر مما كان يؤذى أخى . على أن حـــال هـــذا الأخ ما لبثت أن ازدادت سوءا ، ففر واختفى كل أثر له . وسمعنا بعد ذلك بزمن أنه كان فى المانيا . بيد أنه لم يكتب إلينا قط ، ولا تلقينا عنه نبأ على الاطلاق ، ومن ثم صرت الابن الأوحد لأبى !

وإذا كان هذا البائس قد نشأ محوطا بالاهمال ، إلا أن هذه لم تكن حال أخيه .. أنا ! فما كان أبناء الملوك ليحظوا بأكثر

من الرعاية التى حظيت بها فى سنى حيـاتى الأولى .. كنت معبود كل المحيطين بى .. على أن هذه العبادة لم تجعل منى طفلا مدللا مفسودا ، كما هو المألوف فى الأطفال الذين يحظون بحب أهلهم . ولم يتح لى قط ـ إلى أن غادرت دار ابى ـ أن أجرى فى الطرقات مع سواى من الأطفال ، ولا احتـاج أحد إلى أن يشجع أو يكبح فى نفسى تلك النزوات الخيـالية التى تعترض حياة الأطفال ، والتى تعزى ـ خطأ ـ إلى الطبيعة ، وهى فى الواقع من ثمار التربية .. ولقد كنت ارتكب المآخذ المألوفة لدى أقرانى فى السن : فكنت ثرثارا ، نهما ، كذوبا فى بعض الأحيان .. وربمـا كنت أسرق بعض الفـاكهة ، أو الحلوى ، أو المأكولات .. ولكنى لم أنشد قط متعـة فى إيذاء الغير ، أو الإضرار بهم ، أو اتهامهم ، أو فى تعذيب الحيوانات البكماء المسكينة . وإن كنت أذكر اننى تبولت مرة فى قدر أو وعاء لجارة لنا ـ تدعى مدام «كلو» ـ بينما كانت فى الكنيسة . وانى لأجهر ، حتى بعد أن بلغت هذه السن ، بأن ذكرى هذا الحادث تثير ضحكى .. فقد كانت مدام كلو أكثر الذين عرفتهم إمعانا فى الشكوى ولجاجة فى التذمر ، برغم أنها كانت طيبـة فيما عدا ذلك .. وهذه ـ بايجاز وصدق ـ كبرى إساءاتى فى الطفولة !

* * *

وكيف كان من الممكن أن أغدو شريرا ، وقد كانت عيناى لا تقعان إلا على أمثلة للطف الدماثة ، ولم يكن يحيط بى سوى خـير نـاس فى الدنيـا ؟.. والحق أن أبى وعمتى ومربيتى وأقاربى وأصدقائى وجيرانى ، لم يكونوا يخضعون لرغباتى ،

ولكنهم كانوا يحبوننى ، وكنت أنا الآخر أحبهم . وقليلا ماكانت رغباتى تثير ـ أو تستحق ـ معارضة ، حتى ليخطر لى أننى لم تكن لى أية رغبات على الاطلاق !.. وبوسعى أن اقسم على أننى ما عرفت كنه النزوات أو الشطط فى الهوى ، إلى أن قدر لى أن اعمل فى خدمة معلم . وفيما عدا الأوقات التى كنت أقضيها فى القراءة أو الكتابة ـ بصحبة أبى ـ أو التى كانت مربيتى تصحبنى فيها للنزهة .. فيما عدا هذه الأوقات ، كنت دائما مع عمتى ، أجلس أو أقف إلى جوارها ، أرقبها وهى تطرز ، أو أصغى إليها وهى تغنى .. وكنت أغتبط بهذا . ولقد طبعت بشاشتها ولطفها ووجهها السمح أثرا عميقا ، بهيجا ، فى ذهنى ، حتى أننى لا أزال اتمثلها بخلقها ومظهرها وتصرفاتها ، ولا أزال أذكر لهجتها الحنون .. وبوسعى أن أصف ما كانت ترتديه من ثياب ، وكيف كانت تصفف شعرها ، دون أن أنسى الخصلتين اللتين كانتا تتدليان على صدغيها ، من شعرها الأسود ، على غرار ما كان شائعا فى ذلك العهد .

وانى لأعتقد بأننى مدين لها بميلى ـ بل ولعى ـ بالموسيقى، وهو الولع الذى لم يستكمل نموه فى نفسى إلا بعد ذلك بزمن طويل . وكانت تعرف عددا من الألحان والأغانى الممتازة ، التى اعتادت أن ترددها بصوت جد رفيع رخيم !.. وقد كان الطرب الذى فطرت عليه نفس هذه المرأة الرائعة ، يطرد عنها وعن كل المحيطين بها الوساوس والاكتئاب . وكان السحر الذى يفرضه غناؤها على نفسى عظيما ، حتى أن بعض

اغانيها بقيت على الدوام فى ذاكرتى .. بل إن كثيرا من اغانيها التى كنت قد نسيتها تماما منذ أيام طفولتى ، ترتد اليوم إلى ذهنى ـ بعد أن فقدت هذه العمة ، وبعد أن تقدم بى العمر ـ مصحوبة بسحر لا قبل لى بوصفه ! أفيصدق أحد أننى وقد غدوت شيخا مخرفا ، تنتهبه الهموم والمتاعب ، أجد نفسى ـ فى بعض الأوقات ـ منخرطا فى البكاء كالطفل ، عندما أترنم باحدى هذه الأغانى بصوت متحشرج مهدم ؟.. بل إن إحدى هذه الأغانى عاودتنى بكل جزئية من لحنها ، وإن استعصت على بعض كلماتها ، برغم كل جهد أبذله لاستعادتها .. وها هو ذا مطلعها ، وكل ما أستطيع ان أنكره من بقيتها :

« لست أجرؤ يا « تيرسيس » على سماع مزمارك تحت شجرة الدردار .

« فقد بدأ القوم يتحدثون عنا فى قريتنا !

« ... راع ، ... من خطر ، فالشوك دائما تحت الورد »(١)

وانى لأتساءل : أين السحر المؤثر الذى يجده فؤادى فى هذه الأغنية ؟.. انها نزوة وأهمة لا أستطيع أن أفهمها . ومع ذلك فمن المستحيل تماما أن أردد هذه الأغنية دون أن تقطع

---

(١) لا تزال هذه الأغنية معروفة فى باريس ، وشائعة بين طبقات العمال فيها ، وهذه هى تتمة الكلام الناقص :

« القلب اذا ما اشتبك بحب راع ، لا ينجو من خطر

« فالشوك دائما تحت الورد » .

على دموعى الاسترسال فيها ! ولقد اعتزمت مرارا لا حصر لها أن اكتب إلى باريس متحريا عن بقية الكلمات ، إذا كان ثمة من يعرفها . على اننى اكاد اكون موقنا من أن قسطا من الطرب الذى اشعر به إذ أتذكر اللحن ، لن يلبث أن يتلاشى ، إذا تبينت أن هناك من ترنم بهذه الأغنية غير عمتى « سوسن » المسكينة !

* * *

وهكذا كانت مشاعرى الأولى فى بداية عهدى بالحياة .. وهكذا بدأ يتكون ويتكشف فى صدرى ذلك القلب الأبى الشفوق وتلك الشخصية التى لا تلين ولا تنثنى برغم رقتها القريبة من الأنوثة ، والتى استطاعت خلال حياتى — بتذبذبها بين الخجل والجراة ، وبين الضعف والسيطرة على النفس — أن تجعلنى متقلبا ، والتى تسببت فى أن أصبحت التقوى والمتعة ، واللهو والتعقل ، تفلت من قبضتى على السواء !

ثم قطع على المضى فى انحظوة بهذه التربية حادث ، كان لتبعاته تأثير على كل ما تبع ذلك فى حياتى ؛ فقد اشتجر أبى مع «يوزباشى» فى الجيش الفرنسى يدعى « جوتييه » ، كان على علاقة ببعض أعضاء المجلس الشعبى . ولقد نزف أنف ذلك « الجوتييه » — الذى كان جبانا ، وقحا — أثناء الشجار ، فأراد أن يثأر لنفسه ، واتهم أبى بأنه شهر سيفه داخل أسوار المدينة . وقد تشبث أبى — الذى ارادوا أن يلقوا به فى السجن — بأن لابد لصاحب الاتهام أن يرسل هو الآخر إلى السجن ، وفقا للقانون . فلما عجز عن أن يحقق هذا ، آثر أن

يهجر ( جنيف ) ، وأن ينفى نفسه من وطنه بقية حياته ، على أن يتخلى عن أمر يتعلق بالشرف والحرية ، كما تراءى له !

وبقيت انا فى كنف خالى « برنار » ، الذى كان فى تلك الحقبة يعمل فى إنشاء استحكامات ( جنيف ) . وكانت ابنته الكبرى قد ماتت ، وبقى له ابن فى مثل سنى . فأوفدنا معا إلى (بوسى) لنقيم فى رعاية القس البروتستانتى « لامبرسييه » ، كى نتلقى ـ إلى جانب اللغة اللاتينية ـ كل تلك السفاسف الداعية للأسف ، والتى يزج بها تحت اسم التربية والتعليم . وقد ألانت السنتان اللتان قضيتهما فى القرية من خشونتى الرومانية بعض الشىء ، وردتانى طفلا من جديد . ففى جنيف كنت أهوى المطالعة والاطلاع ، إذ لم تكن ثمة مهام مفروضة على .. اما فى ( بوسى ) فان واجباتى جعلتنى أحب الألعاب التى كانت تتيح لى الفرار من تلك الواجبات . وكان الإقليم جديدا بالنسبة إلى ، فلم يهن استمتاعى به ، وقد تملكتنى عاطفة قوية نحوه ، لم تخب منذ ذلك الحين . فكانت ذكرى الأيام الهنيئة التى قضيتها هناك تملأ نفسى حنينا محسورا إلى بهجتها ، فى كل فترات حياتى ، حتى اليوم الذى قدر لى فيه أن أعود إلى ذلك الإقليم !

ولقد كان مسيو « لامبرسييه » لبيبا ، ذكيا ، لم يسرف قط فيما كان يفرضه علينا من واجبات ، ولم يهمل فى تعليمنا . ويكفى دليلا على أن أسلوبه فى التعليم كان جيدا ، أننى برغم كراهيتى للقيود ، لم أذكر مرة سويعات دراستى بامتعاض .. وأننى ، حتى إذا كنت لم اتعلم كثيرا على يديه ، استوعبت فى

غير عناء ما تلقيته عنه ، فلم أنسه أبدا . وكانت بساطة الحياة الريفية لا تقدر بقيمة فى اعتبارى ، فقد فتحت قلبى للصداقة. إذ أننى لم أكن قد عرفت حتى ذاك الحين سوى بعض المشاعر ، التى كانت ـ على سموها ـ خيالية متعلقة بأوهام !. على أن تعود العيش فى وئام مع ابن خالى ـ وابن عمتى فى الوقت ذاته ـ شد كلا منا إلى الآخر بروابط من التعاطف ، وسرعان ما أصبحت عواطفى نحوه أكثر مودة من تلك التى كنت أوثر بها أخى ، ولم يقدر لها قط أن تهن أو تضعف . وكان ابن خالى طويلا ، نحيفا ، ضعيفا .. رقيقا فى مسلكه بقدر ما كان رقيقا فى بنيانه ، لم يحاول مطلقا أن يسىء استغلال الايثار الذى كان يلقاه فى البيت بوصفه ابن الرجل الذى كان يكفلنى !.. وكانت واجباتنا ، وميولنا ، واذواقنا واحدة . وكنا وحيدين ، وفى سن واحدة ، وكل منا بحاجة إلى زميل .. فكان الفراق ـ فى نظرنا ـ نوعا من الهلاك !.. ومع أنه لم تتح لنا سوى فرص قليلة لإبداء هذا التعلق المتبادل ، إلا أنه كان تعلقا قويا شديدا ، فلم يكن من العسير علينا ـ فحسب ـ أن نعيش لحظة متباعدين ، بل إننا لم نكن نتصور أن من المحتمل أن نفترق !

.. ولما كان كل منا على استعداد لأن يجنح إلى اللطف والدعة مع الآخر ـ فى الأحوال التى لم يكن فيها أى قسر ـ فاننا كنا داوما على اتفاق فى كل شىء . وإذا كان ابن خالى قد اعتاد أن يحظى بشىء من الامتياز دونى ، عندما كنا نجتمع باللذين كانا يرعياننا ـ نظرا لمكانته فى اعتبارهما ـ فاننى

كنت احظى ، إذا ما خلا كل منا إلى الآخر ، بامتياز عليه ، مما كان يحقق التعادل بيننا .. فكنت ـ ونحن نستذكر دروسنا ـ اؤنبه إذا ما أبطأ ، كما كنت أساعده إذا ما فرغت من واجباتى الدراسية .. أما فى تسليتنا والعابنا ، فقد كان عقلى أكثر نشاطا من عقله دائما ، مما كان يكفل لى الزعامة . وقصارى القول أن شخصيتينا انسجمتا تمام الانسجام ، كما أن الصداقة التى توثقت بيننا كانت من الاخلاص الصادق بحيث اننا لم نكن نفترق تقريبا ، طوال السنوات الخمس التى قضيناها معا ، سواء فى ( بوسى ) أو فى (جنيف) .. ومع أننا كنا نشتجر احيانا ، الا أن الشجار لم يكن ليفرق بيننا ، ولا كانت منازعاتنا تدوم لاكثر من ربع ساعة ، ولا كان أى منا يشكو الآخر او يتجنى عليه !.. وقد تكون هذه الملاحظات صبيانية ـ إن شئت أن تراها كذلك ـ ولكنها تضرب مثلا قد يكون فريدا فى نوعه ، مذ وجد أطفال على الأرض !

* * *

ولقد راقت لى الحياة التى مارستها فى ( بوسى ) ، حتى انها لو دامت أطول مما قدر لها لكانت خليقة بأن تشكل شخصيتى .. فقد كان اساسها الحنان ، والعطف ، والرقة .. وكنت اومن بأن أحدا من أبناء نوعنا لم يكن يبزنى فيما فطرت عليه من تحرر من الغرور . وكنت أسمو بنفسى فاحلق عاليا ، ثم لا البث سراعا أن أهوى إلى ضعفى الطبيعى واستخذائى .. كانت أكثر رغباتى إلحاحا ، هى أن أكون محبوبا لدى كل من يتصل بى عن كثب . وقد كنت ذا فطرة رقيقة ، وكذلك كان ابن خالى ، والشخصان اللذان وكلت إليهما رعايتنا . ومن ثم

فانني لم أشهد ، ولا خبرت ـ خلال عامين كاملين ـ اى شعور أهوج عنيفا ، بل كان كل شيء يغذى فى قلبى تلك الميول التى أودعته الطبيعة إياها . ولم أكن أعرف سعادة تسمو على أن أرى كل الدنيا راضية عنى، وعن كل شيء ! ولن أنسى ما حييت أن شيئا لم يكن يقض راحة بالى ، قدر مشاهدتى أمارات القلق والاستياء على محيا الآنسة « لامبرسييه » ـ أخت القس ـ عندما كان يقدر لى أن أتردد أو أتلعثم ، وأنا أتلو الدرس الدينى من الذاكرة فى الكنيسة . كان هذا ـ فى حد ذاته ـ أكثر إزعاجا لى من أن أكشف عن عجز فى أمام الملأ ، على ما كان فى هذا من إيلام لنفسى . ذلك لأنه وإن لم يستخفنى الاطراء ، إلا أننى كنت شديد التأثر بما يخجل . وانى لأذهب هنا إلى القول بأن التفكير فى تأنيبات الآنسة « لامبرسييه » كان أقل ازعاجا لى من الخوف من أن أجرح شعورها !

على أن الشدة لم تكن تعوز الآنسة وشقيقها ، إذا دعا إليها الأمر .. ولكن هذه الشدة كانت عادلة فى الغالب ، ولم تكن قط صادرة عن انفعال أو موجدة ، ومن ثم فانها كانت تؤلمنى دون أن تثير تمردى .. كان الاخفاق فى الارضاء أقسى وقعا على نفسى من العقاب ، وكانت أمارات الاستياء أكثر إيذاء لى من العقاب البدنى .. وقد يكون من المحرج أن أمضى فى الحديث عن نفسى بأكثر من هذا ، ولكننى لا أجد بدا .. فما أشد ما تتغير إليه معاملة المرء للصغار ، إذا قدر له أن يرى بجلاء مدى آثار أسلوب المعاملة المألوف ، الذى ينتهج دائما دون ما تبصر ولا حكمة !.. وأن الدرس الهام الذى قد يستمد من مثال

واحد ـ شائع بقدر ما هو خطير العواقب ـ ليحملنى على أن اروى هذا المثال :

كانت الآنسة « لامبرسييه » تكن لنا حنان الأمومة ، ولكنها كانت كذلك تفرض علينـا سلطان الأم ، وكانت أحيانا تذهب فى ذلك إلى حد معاقبتنا ـ كما يعاقب الأطفال ـ عندما نستحق ذلك . ولقـد اكتفت ـ بعض الوقت ـ بالتهديدات ، فكان الانذار بالعقاب يبدو لى رهيبا ، إذ كان جديدا على .. على أننى تبينت ـ بعد تنفيذه ـ أن الواقع كان أقل رهبـة من الترقب .. والأغرب من ذلك ، أن العقاب جعلنى أكثر تعلقا بتلك التى أنفذته فى ! ووجدتنى بحاجة إلى أن أتذرع بقوة هذا التعلق ، وبكل ما أوتيت من وداعة فطرية ، لأكبح نفسى عن اتيان ما قد يجعلنى أهلا لتكرار العقاب ، إذ أننى كنت أشعر فى الألم ـ على ما فيه من خزى ـ بلـذة تجعلنى اقل خوفا ، واكثر رغبة فى أن أحظى به مرة أخـرى ، من نفس اليد !.. ولا ريب فى أن غريزة جنسية ما ، ذات نضوج مبـكر سبق اوانها ، كانت تخالط هذا الشعور ، لأن عين النوع من العقاب لم يكن يبدو مستحبا إذا ما أوقعه بى شقيق الآنسة !.. على انه لم يكن ثمة خوف من أن يحل القس محل اخته فى معاقبتى ، نظرا لرقة مشاعره . وإذا كنت قد نأيت بنفسى عن أن استحق العقاب ، فما كان ذلك إلا عن خوف من أن اتسبب فى استياء الآنسة لامبرسييه . ذلك لأن كرم الخلق كان أقوى تأثيرا على نفسى من كل لذة حسية ، ومن ثم فقد كان دائما يسيطر على هذه الأخيرة فى اعماقى !

كانت كذلك تفرض علينا سلطان الأم ،
أحيانا تذهب فى ذلك الى حد معاق

ولقد نجم تكرر العقاب ـ الذى تفاديته دون أن أخشاه ـ عن غير ذنب منى .. ولى أن أقول اننى أفدت منه ، دون أى تبكيت من ضميرى .. ولكن هذه المرة الثانية كانت هى الأخيرة كذلك ، لأن الآنسة لامبرسييه ـ التى لاحظت ولا شك شيئا اقنعها بأن العقاب لم يؤت الأثر المنشود ـ أعلنت ان هـذا العقاب يضنيها ، وأنها لذلك اعتزمت أن تتحول عنه ! وكنا حتى ذلك الحين ننام فى غرفتها ، بل وفى سريرها أحيانا ، أثناء الشتاء . ولكنا ـ بعد يومين ـ نقلنا للنوم فى غرفة أخرى . ومنذ ذلك الوقت ، حظيت بشرف المعـاملة كفتى كبير ، وهو شرف كنت على استعداد لأن اتخلى عنه مغتبطا !

* * *

ومنذا الذى كان يصدق أن هذا العقاب الصـبيانى الذى كانت تنزله بى ـ وانا لم أتجاوز الثامنة من عمرى ـ شابة فى الثلاثين ، قد أثر على ميولى ، ورغباتى ، ونزواتى ، وعلى نفسى ذاتها ، طوال بقية حياتى ، وبشكل يناقض تماما النتيجة الطبيعية التى كان ينبغى أن يؤدى إليهـا ؟.. فما أن اتقدت مشاعرى مرة ، حتى انطلقت شهـواتى ، وإن لم تحفل بأن تتطلع إلى أكثر من الارضاء المحدود الذى شعرت به بالفعل فى ذلك العقاب !.. على أننى برغم دمى الحار ـ الذى كان يتقد بالشهوة منذ مولدى تقريبا ـ صنت نفسى عن كل شـائبة ، حتى السن التى تستيقظ فيها أبرد الطباع وأكثرها فتـورا وبطءا !.. فقضيت زمنا طويلا التهم كل الحسان اللائى كنت أقابلهن بنظرات متقـدة ، وانـا اتعذب دون ان ادرى لذلك سببا !.. وكان خيالى لا يفتأ يذكرنى بهن ، لا لشىء إلا لأستغل

أطيافهن على طريقتى الخاصة ، فأجعل منهن نسخا عديدة من الآنسة لامبرسييه !.. بل إن هذا الذوق الغريب ـ الذى ظل كامنا فى نفسى على الدوام ، والذى ذهب سلطانه على إلى حد أن فرض على الحرمان واستبد بى إلى درجة تثير الغيظ ـ أن أخلاقى ، حتى بعد أن بلغت سنى النضـــوج ، برغم أنه كان خليقا ـ بطبيعته ـ بأن يقوض من هذه الأخلاق !

وإذا كانت ثمة تربية عفة طاهرة ، فهذه هى تربيتى يقينا. فان عماتى الثلاث لم يكن أمثلة للتقوى فحسب ، بل إنهن كن متحفظات إلى درجة لم تعد مألوفة بين النساء منذ أمد طويل. وكان أبى محبا للهو ، ولكنه كان فى لهوه من أتباع المدرســة القديمة فى الكياسة ، فما نطق يوما بكلمة يمكن أن تبعث حمرة الخجل إلى وجنات العذارى ، ولو فى حضرة نساء يؤثرهن بما لم يكن يؤثر به سواهن من حب .. ولم يكن الوقار ـ الخليق بأن يلتزم فى حضور الصغار ـ موضـوع مراعاة فى أسرة ما ، قدر ما كان مرعيا فى أسرتى ، وفى حضورى ..

وقد وجدت من السيد لامبرسييه نفس الحرص فى هــذه الناحية ، حتى لقد فصل من خدمته خادما جد بارعة ، لمجرد انها استعملت فى حضــورنا تعبيرا كان يعتبر مستهجنا غير لائق !.. وقد ظللت حتى بلغت مبلغ الرجال ، دون ما فــكرة واضحة عن الجماع بين الجنسين .. ليس هذا فحسب ، بل إن الصورة المبهمة ، غير الواضحة المعالم عن الجماع ، لم تكن لتخطر ببالى إلا فى أقبح الأشكال وأزراها . وكنت أشعر نحو البغايا بازدراء عارم لم تخف حدته يوما ، وظل أى مشهــد

للفجور يملأ نفسي بالسخط ، بل وبالاشمئزاز دائما .. وهكذا ولد استبشاعي للفسق منذ اليوم الذي سرت فيه إلى تسلال ( بيتي ساكونيكس ) ـ على غير قصد واضح مني ـ فشهدت على الجانبين حفرا في الأرض ، قيل لي إن تلك المخلوقات ـ البغايا ـ كن يمارسن فيها بغاءهن . وقد ظل مجرد التفكير في أي بغي ، يبعث في ذهني صورة جماع الكلاب ، فكانت الذكرى وحدها كافية لأن تثير اشمئزازي !

هذا الاتجاه الذي اتجهت إليه تربيتي ، والذي أدى ـ في حد ذاته ـ إلى تأخير الاندلاعات الأولى لطباع قابلة للالتهاب .. أقول إن هذا الاتجاه وجد ـ كما ذكرت ـ ما يعززه في الاتجاه الذي اتخذته أولى بوادر الحس الشهواني في حالتي . فإن اقتصاري في شغل خيالي على ما أحسست به بالفعل ـ برغم ما كان نوران دمي يسببه لي من متاعب ـ علمني كيف أحول شهواتي نحو هذا النوع من اللهو الذي كنت آلفه ، دون أن اتمادى إلى ذلك النوع الذي وجدت نفسي تبغضه ، والذي كان جد وثيق الارتباط بالنوع الآخر !.. فكنت في تصوراتي الطائشة ، وفي نوراتي الجنسية المكبوتة ، وفي التصرفات الهوجاء التي كانت تدفعني هذه وتلك إليها أحيانا .. كنت في كل هذه ، ألجأ في « خيالي » إلى الاستعانة بالجنس الآخر ، دون أن يخطر قط ببالي أن هذا الجنس يصلح لخدمة أي غرض سوى ذاك الغرض الذي كنت أتحرق شوقا إلى أن استخدمه فيه . وعلى هذا النحو استطعت ـ برغم ما جبلت عليه من طبيعة شهوانية هوجاء تسبق أوانها في النضوج ـ

أن أجتاز فترة البلوغ دون شهوات ، بل دون ما إدراك لأية ملذات شهوانية اللهم إلا تلك التى نبهت الآنسة لامبرسييه حسى إليها فى براءة تامة ، ودون أن تفطن !

فلما بلغت ـ مع الزمن ـ مبلغ الرجال ، إذا بالأحاسيس التى كانت خليقة بأن تقضى على ، هى ذاتها التى صانتنى من الدمار .. وبدلا من أن يختفى شعورى الصبيانى القديم ، إذا به يقترن بالشعور الآخر ـ المتسامى ـ بدرجة تعذر على معها أن اقصيه عن الرغبات التى أخذت شهواتى تذكيها فى نفسى.. وكان هذا الجنون ، إلى جانب ما جبلت عليه من خجل فطرى، يجعلنى دائما أبعد ما أكون عن أن أروق فى نظر النساء ، إذ كانت تعوزنى الجراة على أن اقول كل ما ينبغى أن يقال ، كما كانت تعوزنى القدرة على أن أفعل كل ما ينبغى أن يفعل .. ذلك لأن النوع الذى كان يروق لى من المتعة ـ والذى كانت اللذة الأخرى هى الحلقة النهائية المكملة له ـ لم يكن مما يلجأ إليه المشوق إلى اللذة ، ولا مما يخطر ببال المراة التى تجد من نفسها استعدادا لأن تمنح اللذة !.

* * *

وهكذا قضيت عمرى فى شوق متقاعس ، دون أن انبس ببنت شفة فى حضرة أولئك النساء اللواتى احببتهن كل الحب .. على أننى أرضيت ذوقى أخيرا ـ وأنا أشد ما أكون استحياء من المجاهرة به ـ فى مواقف كانت تتمشى معه ، وإن احتفظت فى نفسى بالفكرة !.. فكان مجرد الاستلقاء عند قدمى سيدة جليلة ، وإطاعة أوامرها ، واستغفارى إياها ، أحلى

متعة فى رأيى !.. وكلما أذكى خيالى النشـــيط وقدة دمائى . ازداد ظهورى بمظهر العاشق الخجـــول . ومن الســـهل أن يتصور أى امرىء أن هذا النهج فى الهوى لا يقـــود إلى نتائج عاجلة ، ولا هو جد خطير على فضيلة أولئك الذين يخضعون لسلطانه .. ومن أجل هذا ، ندر أن ضاجعت امرأة ، ولكننى ـ مع ذلك ـ متعت نفسى بطريقتى الخاصـــة .. أعنى ، فى خيالى فقط !.. وهكذا تسنى لأحاسيسى المنسجمة مع طبعى الخجول وروحى الخيالية الشاعرية ، أن تصـــون مشاعرى نقية ، وأخلاقى خالصة مما يعاب ، وذلك بفضل نفس النزوات التى كانت خليقة ـ إذا ما اقترنت بقليل من النزق ـ بأن تزج بى إلى أبشع مسلك شهوى حيوانى !

بهذا أكون اجتزت أصعب الخطوات فى أظلم وأقذر الدروب فى اعترافاتى . وإنه لأيسر على المرء أن يعترف بالذنب ، منه بأن يقر بالنزق الذى يدعو إلى الخزى . ومن ثم فانى واثق من أننى ـ بعد أن جرؤت على أن أقول ما قلت ـ لن أجفل من شىء . وفى وسع أى إنسان أن يقدر مدى ما كبدتنى هذه الاعترافات ، إذا علم أننى خلال حياتى كلها لم أجسر قط على أن أفضى بشىء من ضـــلالاتى لأولئك الذين احببتهم بعاطفة هوجاء حرمتنى البصر والسمع ، وسلبتنى مداركى ، وجعلتنى ارتجف فى اختلاجات عنيفة .. فما استطعت يوما أن احمل نفسى على أن أسأل امرأة أن تمنحنى النعمة المشتهاة دون كل النعم ، مهما كنت وثيق الصلة بها !.. أجل لم يحدث لى هذا سوى مرة واحدة ، وكان ذلك فى حداثتى ، ومع فتاة من سنى .. وحتى فى تلك المرة ، كانت الأنثى هى السباقة إلى العرض !

وإذ أرجع بالذاكرة إلى المعالم الأولى فى حياتى الداخلية ، أعثر على عوامل قد تبدو ـ فى بعض الأحيان ـ غير ذات بال ، ولكنها مع ذلك اتحدت لتنتج فى قوة أثرا بسيطا مهذبا .. كما أعثر على عوامل أخرى ، قد تبدو ـ فى ظاهرها ـ كسابقتها، ولكنها كونت اتحادات مختلفة عن تلك ، بفضل تعاون ظروف معينة ، دون أن يتصور المرء مطلقا أنهـا كانت مترابطة !.. فمثلا ، منذا الذى يعتقد أن نزعة من أقوى نزعات نفسى قد هذبت وذللت فى أعماقى النبع الذى فاض منه فى دمى سيل من الشهوة ومن التخنث ؟.. ولسوف أرسم على ضوء هذا الموضوع ـ ودون أن أخرج عن نطاقه ـ صورة أخرى مختلفة: فقد حدث ذات يوم أن كنت استذكر درسى فى عزلة فى الحجرة المجاورة للمطبخ ، وكانت الخادم قد وضعت أمشاط الآنسة لامبرسييه أمام المدفأة لتجف . فلما جاءت لتستعيدها ، وجدت مشطا قد تحطمت جميع أسنانه .. فعلى من كان يقع اللوم ؟ لم يكن ثمة من دخل الحجرة سواى ! فلما سئلت ، أنكرت أننى مسست الأمشاط ، فشرع السيد والآنسة لامبرسييه فى أخذى بالرفق ، ثم بالضغط ، ثم بالوعيد ، ولكننى أصررت على إنكارى فى عناد . على أن القرائن كانت جد قوية ، بحيث فاقت كل احتجاجاتى ـ برغم أنها كانت المرة الأولى التى ظن فيها أننى أكذب بمثل هذه الجراة ! ـ فاعتبرت المسألة خطيرة، وكانت فى الواقع جديرة بذلك . وبدا الذنب ، والكذب ، والعناد ، خليقة كلها بأن تتطلب العقاب ؛ ولكن العقوبة لم تنفذ بيد الآنسة لامبرسييه فى هذه المرة ؛ وإنما أرسل خطاب إلى خالى برنار ، فحضر واتهم ابن خالى المسكين بذنب آخر

خطير ، لا يقل عن ذنبى ، فحق عليه نفس العقاب ، وما كان أفظعه !.. فلو أنهم شاءوا أن يستخلصوا العلاج من الداء ، وان يقتلوا إلى الأبد أحاسيسى المكبوتة ، لما فعلوا أكثر مما فعلوا فى هذه المناسبة ، فقد كفت مشاعرى الشهوية عن إزعاجى أمدا طويلا بعدها !

ذلك أنهم لم يستطيعوا أن ينتزعوا منى الاعتراف المنشود. ومع أننى مثلت بين أيديهم عدة مرات ، وتعرضت لمحاولات أرهقتنى إلى درجة خليقة بالرثاء ، إلا أننى لم أتزعزع عن موقفى . وكنت على استعداد لأن أصمد حتى الموت ، وقد عقدت عزمى بالفعل على ذلك ! واضطرت القوة إلى أن تتراجع امام « العناد الشيطانى » الذى كان صادرا عن غلام صغير ـ كما وصفوا ثباتى ـ وأخيرا نجوت بجلدى من هذه المحاكمة القاسية وأنا محطم .. ولكننى كنت منتصرا ! ولقد انقضى حتى الآن خمسون عاما منذ وقع هذا الحادث ـ فلست اخشى أن اعاقب ثانية من أجله ـ ومن ثم فاننى أعلن على مشهد من السماء أننى كنت بريئا من الذنب ، وأننى لم أكسر المشط أو أمسه ، ولا اقتربت من المدفأة ، بل ولا فكرت فى ذلك .. ولا جدوى من وراء سؤالى عن كيفية حدوث ما حدث ، فاننى لا أدرى ولا أستطيع أن أدرى .. كل الذى أعلمه عن يقين ، هو أننى لا شأن لى به !

* * *

ولكم أن تتصورا شعور غلام خجول ، ومطيع فى حياته العادية ، ولكنه شديد الاعتزاز ، مفرط الكبرياء ، جامح

العواطف .. غلام لم ينقد قط إلا إلى صوت العقل ، ولم يعامل إلا بالرفق ، والانصاف ، والتقدير ، فليست لديه أية فكرة عن الظلم .. تصوروا غلاما كهذا يتعرف للمرة الأولى على مثل هذه الصورة الفظيعة للظلم ، وعلى أيدى أولئك الذين كان يحبهم بالذات ويحترمهم أكثر من غيرهم !.. فيالها من صدمة خيبت آراءه ! ويا له من حادث أخل باتزان مشاعره ! ويا له من انقلاب ألم بقلبه وعقله وكل كيانه الذهنى والمعنوى على صغره ! تصوروا هذا إن استطعتم !.. أما أنا ، فإننى أعجز عن تبين أو تتبع أى أثر من الآثار التى خالجتنى من جرائه !.. ذلك أنه لم يكن لى من الإدراك يومئذ ما يمكننى من أن أرى إلى أى مدى كانت الظواهر تقف ضدى ، ومن أن أضع نفسى فى موقف الآخرين . لقد صمدت فى موقفى ، فكان كل ما شعرت به يتمثل فى قسوة العقاب الرهيب عن ذنب لم ارتكبه .. ولم أحس بالألم الجسدى ـ برغم شدته ـ إلا قليلا ، وإنما كان كل شعورى ينحصر فى السخط ، والغضب ، والقنوط .. وكذلك كان ابن خالى ـ الذى كانت حاله مشابهة لحالى ، والذى عوقب لخطأ صدر عن غير إرادته وكأنه كان عملا مدبرا متعمدا ـ فقد لاذ بسخط مثل سخطى ، وانساق إلى عين الانفعال الذى انسقت إليه . وإذ كنا ننام فى سرير واحد ، فقد احتضن كل منا الآخر فى ضمات تشنجية ، حتى شعرنا بأننا نوشك أن نختنق . وعندما سرى عن قلبينا الصغيرين بعض الشىء ـ فى النهاية ـ بدا القلبان ينفثان غلهما ، فاستوينا جالسين فى سريرنا ، ورحنا نصرخ بأعلى صوتنا ، مرات لا عداد لها : « أيها الجلاد !.. الجلاد !.. الجلاد ! ».

إننى لأشعر ـــ إذ أكتب هذه الكلمات ـــ بأن خفقات قلبى تتسارع ، فلسوف تظل ذكرى تلك اللحظات ماثلة أمامى أبدا ، ولو عشت مائة الف سنة !.. لقد ظل أول شعور لى بالعنف والظلم محفورا فى نفسى إلى درجة أن كل الأفكار المتصلة به تردنى دائمـــا إلى الانفعالات الأولى التى خالجتنى .. وقـــد اشتد هذا الشعور ، الذى لا قيمة له فى جوهره إلا لدى أنـــا وحدى ، اشتد فى حد ذاته ، واستقل عن كل تاثر أو ميـــل شخصى ، حتى أن قلبى ليكتوى حنقـــا كلما سمعت أو رأيت أى عمل من أعمال الظلم ـــ مهما تكن فريسته أو أينما يرتكب ـــ وكأنما ينصب تأثيره على أنا .. وعندما أقرأ عن فظائع أى جبار طاغية ، أو منكرات أى قس لئيم ، فاننى لا أتردد فى أن اغمد خنجرا فى قلب شـــقيين كهذين ، وأنـــا مسرور .. ولو قضى على بأن أعدم مائة مرة من أجل ذلك !.. وكثيرا ما انهكت نفسى ـــ حتى يتفصد العـــرق منى ـــ وأنا اطارد ، أو ارمى بالأحجار ديكا أو بقرة أو كلبا ، أو أى حيوان أكون قد رأيته يعذب حيوانا آخر لمجرد شعوره بأنه الأقوى !.. وقد تكون هذه النزعة طبيعية بالنسبة لى ـــ وإنى لأعتقد انها كذلك ! ـــ ولكن الأثر الذى خلفه الظلم الأول فى نفسى ظل طويلا مرتبطا بها بقوة بالغة ، إلى درجة لم يكن من الممكن معها الا يقـــوى ويشتد !

وبوقوع الحادث الذى رويتـــه ، ولت طمأنينـــة طفولتى ووداعتها ، فكففت منذ تلك اللحظة عن الاستمتاع بأية سعادة صافية ، ولا ازال أشعر ـــ إلى اليوم ـــ بأن ذكـــرى مفاتن

طفولتى ، وقفت عند ذلك الحد ! ولقد مكثنا بعد الحادث بضعة شهور فى ( بوسى ) ، غير أننا كنا هناك كما كان الإنسان الأول فيما يصورونه لنا : كنا فى جنة أرضية ، ولكنا لم نعد نستمتع بها ! صحيح أن حالنا ظلت فى ظاهرها على ما كانت عليه ؛ ولكنها كانت قد تغيرت فى جوهرها تغيرا تاما . فان التعلق ، والاحترام ، والمودة ، والثقة ، لم تعد تربط التلميذين برائديهما . ومن ثم فإنا لم نعد نعتبرهما من « الآلهة » ! لم نعد نعتبرهما إلهين قادرين على استطلاع قلبينا . ولهذا اصبحنا أقل من ذى قبل استحياء من ارتكاب الأخطاء ، واكثر خوفا من أن نتعرض للاتهام .. وبدأنا نفقد سذاجتنا ، وطاعتنا ، وشرعنا نلجأ إلى الكذب .. وقوضت كل رذائل السن التى كنا نجتازها ، براءتنا ، وألقت على موارد تسليتنا قناعا قبيحا ! بل إن الريف ذاته فقد فى نظرنا ما كان له من روعة وبساطة فاتنتين تتغلغلان فى القلب ، وأصبح يلوح لنا موحشا كئيبا . أصبح يبدو وكأنه استتر وراء قناع حجب جماله عن أعيننا . فكففنا عن فلاحة حوضينا فى الحديقة ، وعن غرس نباتاتنا وزهورنا .. ولم نعد نفلح الأرض فى رفق ونصيح فرحا حين نرى البذرة التى غرسناها قد بدأت تشق وجه الأرض . أصبحنا نكره الحياة ، وأصبح الغير يكرهوننا ، ومن ثم اصطحبنا خالى معه ، فافترقنا عن السيد والآنسة لامبرسييه وقد سئم كل فريق منا الفريق الآخر ، فلم نأسف على الفراق إلا قليلا !.. بل لقد مكثت حوالى ثلاثين عاما بعد مغادرة ( بوسى ) دون أن استعيد فترة إقامتى بها مصحوبة بأى سرور أو ذكريات !

اما الآن ـ وقد تجاوزت شرخ العمر ، وأخذت أدنو من الشيخوخة ـ فاننى أشعر بهذه الذكريات بالذات تقفز إلى بالى ، بينما يتوارى سواها.. إنها لتتطبع على صفحة ذاكرتى بخطوط يتضاعف سحرها ووضوحها يوما بعد يوم ، وكأننى ـ إذ أشعر بالحياة وقد بدأت تتسلل منى ـ أحاول أن أمسك بناصيتها ، فاغتبط بأتفه أحداث ذلك العهد ، لا لشىء إلا لأنها تنتمى إلى تلك الفترة من حياتى !.. وأكاد أبصر الخادمة أو الخادم منهمكا فى تنسيق الغرفة ، أو عصفورا يمرق خلال النافذة ، أو ذبابة تحط على يدى وأنا أتلو ما استذكرت من دروسى .. بل إننى لأتمثل الغرفة التى اعتدنا أن نقيم فيها ، بكل تفصيلاتها .. وإلى يمينها غرفة مكتب السيد لامبرسييه ، ولوحة نحاسية نقشت عليها رسوم كل البابوات، و «بارومتر»، وتقويم ( نتيجة حائط ) كبير معلق على الجدار ، وأشجار الخداش(١) الكثيفة ـ التى كانت تنمو على بقعة جد مرتفعة من الحديقة ـ تواجه مؤخرة الدار ، ومن ثم فانها كانت تنشر ظلالها على النافذة ، وقد تقتحمها أحيانا !.. وانى لأدرك ان القارىء غير راغب فى الإلمام بكل هذا ، ولكنى مسوق إلى أن أقصه عليه ، فلماذا لا تواتينى الجرأة على أن أروى له كذلك كل الحكايات التافهة التى وقعت فى ذلك العهد السعيد ، والتى تهزنى نشوة حين أتذكرها ؟

---

(١) « الخداش » نبات مستطيل ذو ثمار حمراء ، يشبه العليق.

إننى لأتوق إلى أن أروى خمسا أو ستا منها ، بوجه خاص .. ولكن ، لنجعلها صفقة بيننا ! سأنزل عن خمس منها ، بيد أننى راغب فى أن أروى لك السادسة ، على شريطة أن تسمح لى بأن أرويها بكل تفصيل ممكن ، لكى أطيل فى اغتباطى !.. ولو أننى اقتصرت على ما فيه فكاهة لك ، لاخترت لك قصة سقوط الآنسة لامبرسييه فى المرج ، وانكشاف ظهرها ـــ أو عجزها على الأصح ـــ لسوء حظها ، حتى لقد بان بأكمله للملك ( سردينيا ) الذى تصادف مروره فى تلك الفتـــرة !.. ولكن قصة شجرة الجوز المطلة على الشرفة ، أكثر إمتاعا لى ، إذ قمت فيها بدور ـــ فى حين كنت مجرد متفرج فى قصة السقوط فى المرج ! ـــ كما أعترف بأننى لا أجد ما يدعو قط إلى الضحك فى حادث أثار ـ برغم طرافته ـ خوفى على سلامة شخص كنت أحبه . فقد كنت أحب الآنسة لامبرسييه كأم ، بل أكثر من أم !

والآن ، انصتوا أيها المتشوقون إلى حكاية شجرة الجوز المطلة على الشرفة .. انصتوا إلى المأساة الرهيبة ، وحاولوا أن تتفادوا الارتجاف إن استطعتم !.. فنى خارج باب فناء البيت ، كانت تقوم إلى يسار المدخل شرفة اعتدنا أن نجلس فيها فيما بين الظهيرة والأصيل . ولمـــا كانت فى غير وقاء من الشمس مطلقا ، فقـــد أمر السيد لامبرسييه بإقامة شـــجرة جوز هناك ، وتمت عملية غرسها فى أكثر مظاهر الاحتفـــال جلالا ، إذ اختير نزيلا الدار ـــ أنا وابن خـــالى ـــ اثنين للشجرة ! وبينما كان التراب ينهال فى الثغرة التى أقيمت فيها الشجرة ، أسند كل منا الشجرة بإحدى يديه ، ورحنا نردد

أناشيد الانتصار والفوز !.. ولرى الشجرة ، أنشىء حسول أسفل جذعها ما يشبه الحوض . وإذ رحت وابن خالى نرقب ريها كل يوم بشغف ، اشتد بنا الاقتناع ـ بطبيعة الحال ـ بأن من المستحسن غرس شجرة أخرى فى الشرفة ذاتها ، فان هذا أفضل من أن ننشر غطاء على ما بين فروع شجرة الجوز من ثلمات .

وعقدنا العزم على أن نستأثر بما فى هذا العمل من فضل ، فلا نشرك معنا أحدا .. ولهذا بادرنـا فقطعنـا غصنا من صفصافة ، وغرسناه فى الشرفة ، على مسافة تتراوح بين ثمانية وعشرة أقدام من شـجرة الجوز الضخمة . ولم ننس أن نحفر حول شجرتنا قناة لريها شبيهة بتلك التى حفـرت حول الشجرة الأخرى ، ولكن الصعوبة تمثلت فى ابتكار طريقة لملء القناة بالماء ، إذ كان الماء ينساب على مسافة من الشجرة ، ولم يكن مباحا لنـا أن نهرع لاجتلابه .. ومع ذلك فلم يكن ثمة غنى عن اجتلاب قدر منه لصفصافتنا . وقضـينا بضعة أيام نجرب كل طريقة ممكنة للحصول على ماء ، حتى نجحنا إلى درجة دبت عندها الحياة فى الشجرة ، فنبتت عليها أوراق صغيرة . واقتنعنا نموها ـ الذى كنا نحسبه ونقيسه فى كل ساعة ـ بأنها لن تلبث أن تضىء علينا ظلالا ، برغم أن طولها لم يكن قد تجاوز قدما واحـدة !.. وإذ استأثرت شجرتنا بكل اهتمامنا حتى أننا لم نعـد قادرين على تلقى أو استذكار أى درس ، وأصبحنا فى غشية حجبت عن عقولنا كل شىء آخر .. وإذ شد رائدانا قبضتيهما علينا ، وهما لا يدريان ما الم بنا ،

رأينا أن اللحظة الحاسمة التى لن نجد فيهـا ماء لشـجرتنا وشيكة الحلول ، فطارت نفسانا شعاعا لمجرد التفكير فى رؤية الشجرة تذوى من العطش .. وأخيرا ، أوحت لنا الحاجة ـ وهى أم الاختراع ـ وبطريقة تجنبنا الأسى ، وتجنب الشجرة الهلاك المؤكد ، وذلك بأن نحفر قناة تحت سـطح الأرض ، تسرب إلى صفصافتنا ـ خفية ـ قسطا من المـاء الموجه إلى شجرة الجوز !.. على أن المشروع فشل فى البداية ، برغم الحماس الذى اكتنف تنفيذه . فقد حفر النفق بطريقة بدائية ، فلم يجر الماء فيه مطلقا ، إذ انهار التراب وسد القناة ، وامتلأ المدخل بالطين ، وتلف كل شىء ! ولكن شيئا من هذا لم يثبط من عزمنا ، فان الدأب يقهر الصعاب جميعا ، ومن ثم زدنـا المجرى عمقا لنمكن الماء من الجريان ، كما قطعنا قيعان بعض الصناديق إلى شرائح صغيرة ضيقة ، بسط بعضها على القاع ـ شريحة إثر شريحة ـ واقيمت الباقية على الجانبين بميل أقام قناة مثلثة الشكل . ثم غرسـنا بضـع قطع صغيرة من الخشب متباعدة لدى المدخل ، فكانت أشبه بحاجز او مصفاة تصد الوحل والأحجار دون أن تمنـع انسياب المـاء .. ثم غطينا مجراتنا بتراب دسناه فى حذر وعناية حتى سويناه مع سطح الأرض . وإذ انتهى كل شىء ، شرعنا ننتظر ـ ونحن فى أشد الانفعال من جراء الأمل والخوف ـ موعد الرى .. وحانت الساعة أخيرا ، بعد انتظار خلناه استغرق قرونا ، فجاء السيد لامبرسييه ليعاون فى العملية كالمعتـاد ، بينمـا حرصنا نحن على أن نكون خلفه لكى نحجب شجرتنا ، التى كان ـ لحسن الحظ ـ يوليها ظهره !

وما أن سكب أول دلو من الماء ، حتى رأينا بعضه يجرى إلى قناتنا ، وعند هذا المنظر فارقنا تعقلنا ، فبدأنا نطلق صيحات ابتهاج حملت السيد لامبرسييه على أن يلتفت ، وكانت هذه هى الطامة ، فقد تولاه اهتمام ضاف وهو يرى ما كانت عليه التربة التى قامت فيها شجرة الجوز من جودة ، وكيف ابتلعت الماء بشراهة . وإذ دهش لرؤيته الماء ينساب موزعا بين حوضين ، صاح بدوره ، وأنعم النظر ، فتبين الحيلة ! وإذ ذاك أمر باحضار معول ، وكسر بضربة واحدة شريحتين او ثلاثا من خشبنا ، ثم صرخ بصوت جهورى : « قناة ! قناة ! » ، وراح يكيل الضربات فى كل اتجاه ، دون ما رحمة ، فكأنما كانت كل منها تصيب قلبينا مباشرة ! وإن هى إلا لحظات حتى كانت شرائحنا الخشبية ، وقناتنا ، ومجراها ، والصفصافة ، وكل شيء ، قد تقوض واجتث من مكانه ، دون أن ينبس القس خلال هذا العمل التدميرى بكلمة ، اللهم إلا ذلك التعجب الذى راح يكرره دون توقف : « قناة ! » .. وهكذا راح يصرخ وهو يهدم كل شيء : « قناة ! قناة ! » . ومن الطبيعى أن يخطر بالبال أن المغامرة انتهت أسوأ نهاية بالنسبة للمهندسين الصغيرين ، ولكن هذا الحدس خاطىء ، فقد انقضى ذكرها بانتهاء الهدم ، ولم ينبس السيد لامبرسييه قط بكلمة لوم ، أو ينظر إلينا فى استياء ، كما أنه لم يشر إليها بشيء مطلقا . بل اننا لم نلبث أن سمعناه بعد قليل يقهقه مع أخته ، فقد كانت قهقهته تسمع عن بعد .. على أن الأكثر مدعاة للدهشة هو اننا ـ بعد أن زايلنا الخوف الأول ـ لم نشعر بأى انزعاج أو ضيق ، بل اننا غرسنا شجرة ثانية فى

بقعة أخرى ، وكثيرا ما كنا نذكر نفسينا بالنكبة التى انقضت على محاولتنا الأولى ، بأن رحنا نردد فى لهجة ذات معنى : « قناة ! قناة ! » .. وكانت تواتينى ـ حتى ذلك الوقت ـ نوبات من الزهو ، بين آن وآخر ، إذ أخال نفسى مثل « اريستديس » أو « بروتس » أو غيرهما من أبطال التاريخ ، ولكن هذه النوبات لم تلبث أن زايلتنى إذ شعرت بأول نبضات الغرور واضحة ملموسة .. فقد لاح لى أن إنشاءنا قناة بأيدينا ، وغرسنا فرعا من شجرة لنتحدى به دوحة ضخمة ، كان عملا يرقى إلى ذروة المجد !.. وهكذا كنت ـ وأنا فى العاشرة من عمرى ـ أقدر على تمييز المجد من « قيصر » حين كان فى الثلاثين !

وقد ظلت شجرة الجوز هذه ، والقصة الصغيرة المتعلقة بها ، حيتين فى ذاكرتى ، أو أنهما عادتا إليها بعد حين ، حتى لقد كان من المشروعات التى وفرت لى سرورا عظيما ـ خلال رحلتى إلى جنيف ، فى سنة ١٧٥٤ ـ أن قررت الذهاب إلى ( بوسى ) وزيارة مراتع صباى ، وفى مقدمتها جميعا « شجرة الجوز » التى كان عمرها فى ذلك الوقت قد بلغ ثلث قرن !.. ولكنى شغلت طيلة فترة وجودى هناك ، ولم يكن لى كثير سلطان على نفسى ، فلم أجد لحظة أرضى فيها هذه الرغبة . وليس ثمة احتمال يذكر فى أن تسنح لى هذه الفرصة مرة أخرى ، ومع ذلك فان الرغبة لم تتلاش بتبدد الأمل فى تحقيقها ، بل أكاد أوقن من أننى إذا قدر لى أن أعود إلى تلك البقاع

الحبيبة ، وأن أجد شـــجرة الجوز العزيزة قائمة على قيـــد الحياة ، فلن أحجم عن أن أرويها بدموعى !

* * *

وبعد عودتى إلى جنيف ، أقمت مع خالى عامين أو ثلاثة ، ريثما يقرر أصدقائى ما ينبغى أن يتم بشأنى . ولما كان خالى قد أراد ابنه على أن يكون مهندسا ، فقد حمله على أن يتلقى شيئا عن الرسم ، كما علمه مبادىء «يوكليد»(١) ، فاستذكرت هذه المواد معه ، وتولانى ميل إليها ، وإلى الرسم بوجه خاص. وفى تلك الاثناء ، كان الجدل يدور حول ما إذا كان يخلق بى أن أصبح صانع ساعات ، أو من رجال القانون ، أو قسسا واعظا !.. وكان ميلى يتجه إلى تفضيل الاحتمال الأخير منها ، إذ كان الوعظ يبدو لى أمرا بديعا ، بيد أن الدخل الضئيل الذى كان يدره عقار أمى ـــ والذى كان يجب أن يقسم بينى وبين أخى ـــ لم يكن كافيا لأن يمكننى من متابعة دراساتى . ولم تكن ثمة ضرورة عاجلة لاتخاذ قرار ، نظرا لسنى فى تلك الفترة ، ولذلك مكثت مؤقتا مع خالى ، دون أن أفيد كثيرا من وقتى ، ودون أن أدفع مبلغا يذكر لقـــاء نفقات إقامتى ، كمـــا كان الانصاف يقتضى .. أما خالى ، فمع أنه كان محبا للهو مثـــل أبى ، إلا أنه كان عاجزا عن أن يكون مثله فى تقيده بالواجب ،

---

(١) كان « يوكليد » عالما رياضيا عاش فى الاسكندرية فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وقد وضع أصولا ـــ أو مبادىء ـــ للعلوم الرياضية فى ١٣ مجلدا ، خص الهندسة منها بتسعة مجلدات .

كما أنه لم يكن يكبد نفسه كثير عناء من أجلنا . وكانت عمتى تعتبر من المنصرفات للتقوى ـ بحيث كانت تؤثر أن تنشد المزامير على أن تعنى بتعليمنا ! ـ ومن ثم فقد أتيحت لنا حرية كادت أن تكون مطلقة ، ولكنا لم نسىء استغلالها قط ، فكنا دائما قانعين بصحبتنا أحدنا للآخر ، إذ لم نكن نفترق قط ، كما أننا لم نتعرض لمغريات تحملنا على أن نتخذ من أندادنا من أبناء الشارع رفاقا ، فلم نتعلم شيئا من العادات المنحلة التى كان التبطل خليقا بأن يقودنا إليها .. بل إننى لأخطىء إذ أقول إننا كنا متبطلين ، فاننا لم نحط قط إلى هذا الدرك فى حياتنا ، وكان من أعظم ما حبانا به الحظ أن كل الطرق التى كنا ننتهجها لتسلية نفسينا ، والتى شغفنا بها على التوالى ، كانت تشغلنا معا فى البيت ، دون أن ننساق لغواية الخروج إلى عرض الطريق .. فكنا نصنع أقفاصا ، وصافرات « النای » ، وخذاريف ( إلنحلات التى يلعب بها الأطفال ) ، وطبولا ، وبيوتا ، وقاذفات للحصى ( أو مقاليع ) ، وأقواسا للرماية . ولقد اتلفنا أدوات جدنا فى محاولاتنا ان نصنع ساعات ، كما كان يصنع هو !.. وكان لنا مزاج خاص فى الاسراف فى نماذج الورق ، وفى الرسم ، واستخدام الألوان المائية ، وتوزيع الأضواء ، وإفساد الألوان . ولقد وفد على جنيف صاحب مسرح إيطالى يدعى «جامبا ـ كورتا» ، فذهبنا لمشاهدة عرضه مرة ، لم نرغب بعدها فى الذهاب مرة أخرى !.. ولكنه قدم فيما قدم عرضا للدمى ( على غرار خيال الظل ) ، فشرعنا نصنع دمى .. ولما كانت عرائسه تمثل تكاهات ، فقد عكفنا

على إعداد مسرحيات فكهة من وضعنا . ولما كانت تعوزنا الأداة التى تصدر ذلك الصوت المصوصو المصرصع ، فقد عمدنا إلى تقليده بأصوات نصدرها من حلقينا ؛ لكى نخرج مسرحياتنا الفكهة البديعة ، التى تذرع أقاربنا المساكين المتفضلون بالصبر كى يجلسوا وينصتوا إليها ! ولكن خالى برنار قرأ على الأسرة ذات يوم موعظة بديعة من تأليفه ، فاذا بنا نهجر المسرحيات الفكهة لنؤلف المواعظ !

وانى لأعترف بأن هذه التفصيلات ليست مشوقة جدا ، ولكنها تبين كيف أن تربيتنا الأولى كانت موجهة خير توجيه ، كما يبدو من اننا ندر أن انسقنا إلى اساءة استغلال الفرص التى كانت متاحة لنا ، برغم أننا كنا سيدى نفسينا وصاحبى السيطرة على وقتنا ، فى تلك السن المبكرة !.. ذلك لأننا لم نكن بحاجة تذكر إلى أن ننشد رفاقا وزملاء ، حتى أننا كنا نهمل الفرص التى تقود إلى ذلك . فكنا إذا خرجنا للتريض ، نظرنا ، ونحن نمر بأندادنا فى السن ، إلى وسائل لهوهم ، دون ما أدنى رغبة ، بل دون مجرد التفكير فى أن نشاركهم إياها . كانت صداقتنا المتبادلة تملأ قلبينا تمام الملء ، حتى لقد كان يكفينا أن نجتمع معا ، كى نجعل من أبسط أسباب التسلية ملهاة سارة !.. وما لبثنا أن استرعينا الانتباه بتلازمنا هذا ، وعدم افتراقنا ، سيما وأن ابن خالى كان فارع الطول ، بينما كنت انا جد قصير ، فكنا نؤلف ثنائيا غريب التكوين !.. كان قوام ابن خالى الطويل النحيل ، ووجهه الصغير الشبيه بالتفاحة المسلوقة ، وأخلاقه الرقيقة ، ومشيته الهينة

المتخطرة ، تستثير سخف الأطفال ، فكان يسمى فى ساحة الحى « بارنا بريدانا ! » ، وكنا حين نغادر البيت لا نسمع سوى صيحة « بارنا بريدانا ! » تحف بنا . وقد احتمل هو ذلك بهدوء فاق هدوئى ، إذ كنت أفقد جلدى ، وأبدى الرغبة فى العراك ، وهذا عين ما كان ينشده الأوغاد الصغار . وقدر لى أن أتشاجر مرة ، فمنيت بالهزيمة . وحاول ابن خالى المسكين أن يساعدنى ما استطاع ، ولكنه كان ضعيفا ، فصرعته لكمة واحدة ، وإذ ذاك اشتد هياجى . على اننى — وإن تلقيت لكمات وافرة — لم أكن الهدف الحقيقى للعدوان ، وإنما كان « بارنا بريدانا » هو الهدف .. وما لبث غيظى المستعر أن زاد من استفحال الموقف ، حتى اننا لم نعد نجرؤ على الخروج من الدار — فيما بعد — إلا فى أوقات المدرسة ، خشية أن يتعقبنا الأطفال ليسخروا منا !

ألا ترون إذن اننى أقمت من نفسى ماحيا للمظالم !.. ولكنى أصبح « بالادين »(١) حقا ، كنت فى حاجة إلى سيدة ، ولكننى أوتيت اثنتين ! فلقد اعتدت أن أذهب — بين وقت وآخر — لزيارة أبى فى ( نيون ) ، وهى بلدة صغيرة فى إقليم ( فود ) ، استقر به المقام فيها . وقد حظى بحب القوم هناك ، وقدر لابنه أن يشعر بآثار ذلك ، ففى الفترة القصيرة التى كنت أمكثها معه ، كان الأصدقاء يتبارون فى الاحتفاء بى . وقد آثرتنى سيدة منهم — كانت تدعى السيدة « دى فيلسون »

---

(١) رمز للبطل الذى يدافع عن الحق ويدفع الجور عن المظلومين .

ـ بألف قبلة ، ثم توجت كل هذه الحفاوة بأن اتخذتنى ابنتها عشيقا لها !.. ومن الميسور أن تفهموا معنى « العشيق » هنا إذا تذكرتم أننى كنت فى الحادية عشرة من عمرى ، فى حين أن الفتاة كانت فى الثمانية والعشرين !.. ولكن هؤلاء الشابات الخبيثات ـ جميعا ! ـ لم يكن يتورعن قط عن أن يلعبن أمام الملأ بدمى صغيرة ـ مثلى ـ لكى يسترن وراءها عشاقا كبارا ، أو لكى يغوين بها هؤلاء الكبار !.. أما أنا ، فلم أر شيئا من عدم التكافؤ بيننا ، فحملت المسألة على محمل الجد ، وانغمست بكل قلبى ـ أو بالحرى بكل رأسى ـ إذ أننى لم أقبل على الحب إلا بذلك الجزء من نفسى ، فتماديت إلى درجة الجنون ، وكان طربى وانفعالى وخبالى تؤدى إلى مناظر كافية لأن تجعل أى فرد لا يتمالك نفسه من الضحك حتى ينشق جنباه !

ولقد ألفت نوعين صادقين من الحب يختلف كل منهما عن الآخر تمام الاختلاف ، فلا يكاد يكون بينهما أى تشابه ، وإن كان كل منهما حارا مشبوبا ، كما انهما يختلفان ـ كلاهما ـ عن الصداقة العاطفية .. بل إن عمرى كله كان موزعا بين هذين النوعين من الحب ، برغم اختلافهما الجوهرى ، فاعتدت أن أشعر بهما معا ، وفى آن واحد .. مثال ذلك أننى فى الفترة التى أتحدث عنها ، وفى الوقت الذى كنت فيه مغرما بالآنسة « دى ڤيلسون » جهارا وفى أنانية طاغية ـ حتى أننى لم أكن أطيق أن يقترب منها أى رجل ! ـ فى تلك الاثناء بالذات ، حظيت عدة مرات بلقاءات قصيرة ولكنها حافلة ، مع فتاة

معينة ـ تدعى الآنسة « جوتون » ـ فكانت تعمد خلال تلك اللقاءات إلى القيام بدور المعلمة ! وكان هذا غاية الأمر . ولكن « غاية الأمر » هذه ـ وكانت هى « الغاية » فعلا ، بالنسبة لى ـ بدت فى نظرى منتهى السعادة .. وإذ شعرت بقيمة الغموض ، وإن لم اكن أدرى كيف استغله اللهم إلا فى نطاق حيل الطفولة ، رحت اكيل بنفس الكيل للآنسة «دى فيلسون» ـ التى لم ترتب فى الأمر ـ جزاء دأبها على استغلالى كستار لإخفاء عشاق آخرين ! بيد أن سرى لم يلبث أن تكشف ـ ويا لعظم أسفى ! ـ أو أنه لم يحط من معلمتى الصغيرة بمثل ما كنت أحيطه به من كتمان ، ومن ثم فسرعان ما افترقنا .. وحدث بينما كنت اجتاز ( كوتانس ) ، فى طريقى إلى ( جنيف ) ـ بعد ذلك بوقت قصير ـ أن سمعت بعض فتيات صغيرات يهتفن متهامسات : « جوتون تيك ـ تاك روسو » !

ولقد كانت هذه الآنسة « جوتون » الصغيرة فتاة فذة .. فمع أنها لم تكن جميلة ، إلا أنها أوتيت وجها لا يسهل نسيانه ، ولا أزال اتمثله فى مخيلتى فى كثير من الأحيان ، فى حنان لا يليق بشيخ ارعن !.. وما كان شكلها ، ولا اخلاقها ، ولا عيناها ـ قبل كل شىء ـ بالتى تتناسب مع سنها . وكان لها مظهر أشم ، متسلط ، يتفق كل الاتفاق مع دورها ، كمعلمة ، بل إن مظهرها هذا هو الذى أوحى إلينا ـ فى الواقع ـ بأول تفكير فى هذا الدور .. ولكن أغرب ما كان فيها ، هو امتزاج بين الرعونة والتحفظ ، لم يكن من الهين إدراك مأتاه .. كانت تتصرف معى بكل حريتها ، ولكنها أبدا لم تسمح لى بأن أعاملها

بأى تحرر .. كانت تعاملنى كما تعامل طفلا فحسب ، مما يوحى إلى بأن اعتقد احد أمرين : إما أنها لم تعد ـ إذ ذاك ـ طفلة ، وإما أنها كانت ـ على العكس ـ من الطفولة بحيث انها لم تر فى الخطر الذى كانت تعرض له نفسها سوى لون من التسلية واللهو !

وكنت اهب نفسى تماما ـ كما ينبغى أن يقال ـ لكل من هاتين الفتاتين ، فاذا ما كنت مع إحداهما ، لم افكر مطلقا فى الأخرى . وفيما عدا ذلك ، لم يكن ثمة أى شبه ـ مهما يكن ضيلا ـ بين المشاعر التى كانت كل منهما تبعثها فى نفسى ! كان بوسعى أن انفق كل حياتى مع الآنسة « دى فيلسون » دون أن يخطر لى أن افارقها ، ولكن اغتباطى بالقرب منها كان هادئا وخلوا من الانفعال . وكنت أحبها أكثر مما احببت اية فتاة من فتيات المجتمع الراقى ، فقد كانت الفكاهات المنبعثة عن ذكاء لماح ، والمجون المستظرف ، وما كانت تبديه من مظاهر الغيرة العابرة ، تستهوينى وتستأثر بشغفى . وكنت أشعر بزهو وغرور لما كانت تضفيه على من مظاهر الإيثار أمام المزاحمين الكبار الذين كانت تعاملهم فى ازدراء !.. وكنت اتعنب ، ولكننى احببت العذاب !.. وكان التصفيق ، والتشجيع ، والضحك ، تبعث الثقة والإلهام فى نفسى .. وكانت تنتابنى نوبات من الوجد المشبوب ثم تنفثىء فى فكاهات جريئة .. كان الحب يحيلنى شخصا آخر ، فى المجتمعات .. أما فى الخلوات ، فكنت محرجا ، فاترا ، بل لعلنى كنت ضيق الصدر . ومع ذلك فاننى كنت اشعر بعاطفة صادقة نحوها ،

وكنت أتألم إذا هى مرضت ، بل اننى كنت أتمنى لو أهبهـا صحتى كى تستعيد عافيتها ـ برغم أننى كنت أعرف، بالتجربة، معنى المرض ومعنى العافية ! ـ وكنت أنكر فيها وأفتقدها حين أغيب عنها .. أما حين أكون بالقرب منها ، فان عناقها كان يهز قلبى ، دون أن يهز حواسى ! كنت متعلقـا بها دون ما طمع يشوب حبى ، فكان خيالى لا يطلب أكثر مما كانت هى تنعم على به ، ومع ذلك فاننى لم أكن أطيق أن أراها تفعـل مثل ذلك للغير . كنت أحبها حب الأخ لأخته ، ولكننى كنت أغار عليها غيرة العاشق على معشوقته !.. وكنت خليقا بأن أغار على الآنسة « جوتون » غيرة التركى ، أو المجنون أو النمر ، لو أننى توهمت مرة أنها قادرة على أن تبدى لغيرى ما كانت تبديه لى من معاملة .. ولكنها لم تكن قادرة ، بل إن هـذه المعاملة كانت صنيعا اعتدت أن أسألهـا إيـاه وأنـا جاث أمامها !

كنت أسعى إلى الآنسة « دى فيلسون » بفرح طاغ ، ولكن دون ما انفعـال ، فى حين أننى كنت لا أكـاد أرى الآنسـة « جوتون » حتى تنبهر حواسى ، فلا أعود أرى سواها !.. كنت آلف الأولى دون ما كلفة ، بينما كنت فى حضرة الثـانية على النقيض خجولا بقدر ما كنت منفعلا ، حتى فى أقصى درجات الفتنا . وأعتقد أننى كنت خليقا بأن أموت لو أننى مكثت معها طويلا ، فان خفقات قلبى كانت كفيلة بأن تخنق أنفاسى !.. وكنت أخشى أن تستاء منى الاثنتان على السواء ، ولكنى كنت أغمر الأولى بمزيد من حفـاوتى ، وأبدى للثـانية مزيدا من

في حين انني كنت لا أكاد أرى الآنسة « جوتون »
حتى تبهر حواسي ، فلا اعود ارى سواها !..

خضوعى، فما كان لأى شىء فى الدنيا أن يحملنى على أن اغضب الآنسة « دى فيلسون » ، أما إذا امرتنى الآنسة « جوتون » بأن ألقى بنفسى فى اللهب ، فأعتقد أننى كنت قمينا بأن أطيعها فى الحال !.. ولم يستمر حبى — أو بالحرى لقاءاتى — للأخيرة سوى وقت قصير . قصير بالنسبة لسعادة كل منا ! ومع أن علاقاتى بالآنسة « دى فيلسون » لم تكن فى خطورة علاقاتى بالأخرى ، إلا أنها لم تخل من الخطر ، بعد أن استمرت أمدا أطول . وجدير بجميع العلاقات التى على هذه الشاكلة أن تنتهى دائما بطريقة شاعرية ، وأن تصبح مادة لزفرات الأسى.

ومع أن صلتى بالآنسة دى فيلسون كانت أقل شدة واضطراما من علاقتى بالآنسة جوتون ، إلا أنها كانت أكثر توثقا ومتانة ، فلم نفترق قط دون دموع ، وكان من الخليق بالعجب حقا ، ذلك الفراغ المحير الذى كنت أشعر بأننى أتردى فيه بمجرد أن كنت أفارقها !.. فما كنت أتحدث أو أفكر فى سواها ، وكان أسماى صادقا ومحتدما ، ولكنى أعتقد أن هذا الأسى المنطوى على البطولة لم يكن — فى قراره — من أجل الفتاة نفسها ، وإنما كان للمتع التى اعتدت أن أنعم بها فى قرب الفتاة ، دور فى خلقه ، وإن لم أفطن إذ ذاك !.. ولقد اعتدنا ـ لتخفيف لوعات البعاد ـ أن نتراسل بخطابات كنا نضمنها من الشجون ما يذيب قلب الصخر !

وظفرت فى النهاية ، إذ أن الفتاة لم تستطع أن تمضى فى التجلد ، فجاءت إلى ( جنيف ) لتراني . وفى هذه المرة ، فقدت حجاى تماما ، فكنت منتشيا ، مجنونا ، أثناء اليومين اللذين

مكثتهما . فلمـــا رحلت ، رغبت فى أن ألقى بنفسى فى المـــاء وراءها ، وتردد صراخى فى الهواء !.. وبعد ثمانية أيـــام ، أرسلت لى بعض الحلوى وقفازين . وكنت خليقا بأن اعتبر هذا مجاملة عظيمة لولا أننى علمت ـــ فى الوقت ذاته ـــ أنها تزوجت ، وأن الزيارة التى راق لها أن تشرفنى بها إنما دبرت فى الواقع من أجل شراء ثوب الزفاف !.. ولن أحاول أن اصف حنقى ، ففى الوسع تصـــوره !.. واقسمت ـــ فى غضبى السامى ـــ ألا أرى « الغـــادرة » مـــرة أخـــرى ، إذ لم أكن لأتصور عقابا أكثر قسوة عليها من هذا !.. ولكنها لم تمت من قسوتى ، إذ حدث ـــ بعد عشرين عاما ـــ بينما كنت أتنزه مع أبى فى النهر ، أثناء إحدى زياراتى له ، أن سألته عن سيدتين كانتا فى قارب على غير مبعـــدة منا ، فهتف أبى مبتســـما : « عجبا ! ألا ينبئك قلبك ؟.. انها حبيبتك القديمة ، التى كانت الآنسة دى فيلسون ، وأصبحت الســـيدة كريستان ! » .. واجفلت إذ سمعت الاسم الذى كاد يصبح منسيا ، وسألت النوتيين أن يحولا اتجاه قاربنا ، فمع أن الفرصة كانت سانحة ـــ فى تلك اللحظة ـــ لكى أثأر لنفسى ، إلا أننى لم أر أية قيمة لأن أعاتب امرأة فى الأربعين ، وأن أجدد خصاما مضى عليـــه عشرون عاما !

## ٣ ـــ من سنة ١٧٢٣ إلى سنة ١٧٢٨

وهكذا بددت أغلى فترات صباى فى الحمـــاقات ، قبل أن يستقر الرأى على مهنتى المقبلة . وبعد جدل طويل بشـــأن ميولى الطبيعية ، انعقد العزم على مهنـــة لم أكن أكن لهـــا

سوى أقل ميل . فقد عهـد بى إلى السيد « ماسيرون » ـ كاتب البلدة ـ لأتعلم على يديه مهنة المحاماة النافعة !.. وكان مجرد الاسم الدارج لهذه المهنة ـ « مغتصب الأجر » ـ بغيضا لدى غاية البغض ، ولم يستهونى الأمل فى كسـب عدد من « الكراونات »(١) من مهنة « وضيعة » كهذه !.. بل إن العمل ذاته بدا لى مملا لا يطاق ، فان المطالبة المستمرة ، والشعور بالعبودية أتما كراهيتى ، فما ولجت المكتب مرة دون أن أشعر بنفور أخذ يزداد حدة يوما بعد يوم ! كذلك كان السيد ماسيرون من ناحيته ضيقا بى ، فكان يعاملنى بازدراء ، ولا يفتأ يرمينى بالغباء والبلادة ، ويردد على أذنى كل يوم أن خالى أنبأه بأننى على قسط من المعرفـة ، فى حين اننى كنت ـ فى الواقع ـ لا أعرف شيئا !.. وانه بشره بأننى فتى ذكى ، فى حين انه ابتلاه بجحش !.. وفصلت أخيرا من المكتب ، موصوما بأننى غير كفء مطلقا ، وصرح معاونو السيد ماسيرون بأننى لم أكن أصلح لشىء سوى نقل الملفات !

وإذ انتهى الأمر فى تقرير مهنتى على هذه الصورة ، أرسلت لأتعلم حرفة .. لا لدى « ساعاتى » ، وإنما لدى أحد الناقشين على المعادن(٢) . وكان الصـغار الذى عاملنى به السـيد ماسيرون قد أذل نفسى كثيرا ، فأطعت بدون تذمر . وكان معلمى الجديد ـ السيد ديكومين ـ شابا فظا ، قاسيا أفلح

---

(١) « الكراون » عملة تعادل ثلاثة فرنكات .

(٢) حفار يصنع الأختام و « الميداليات » بالحفر على المعادن .

فى أمد وجيز فى إطفاء كل ما كان لى فى طفولتى من ذكاء ، وفى تخدير طبيعتى الودود النشيطة ، وفى الهبوط بى إلى مرتبة « صبى الصانع » فعلا ، سواء فى العقل أو فى المركز !.. وقدر لما كنت قد حصلته من اللاتينية والتاريخ ، ولما عرفته عن الاقدمين وآثارهم ، أن ينسى أمدا طويلا .. بل إننى لم أعد أذكر أن قد كان فى الدنيا أى من الرومان ! ولم يعد أبى يرى فى ـ حين ذهبت لزيارته ـ معبوده القديم .. كما أننى لم أعد فى نظر السيدات ، « جان جاك » الكيس المقرب إلى قلوبهن . وأيقنت أنا نفسى ، من أن الأخوين لامبرسييه ما كانا ليعرفان فى شخصى تلميذهما القديم، حتى اننى خجلت من أن أزورهما ، فلم أرهما منذ ذلك الحين . وحلت أرذل الميول وأحط مفاسد السوقة محل أسباب التسلية السائغة ، بل إنها محت كل ذكرى لها ! ولابد أننى كنت قد أوتيت استعدادا عظيما للانحدار ـ برغم أننى حظيت بنشأة أعظم ما تكون استقامة ـ ذلك لأن الانقلاب أصابنى بسرعة عظيمة ، دون أتفه عسر ، فما قدر قط « القيصر » مبكر النضوج أن أصبح « لاريدون » بمثل هذه السرعة !(١)

ولم تكن الحرفة ـ فى حد ذاتها ـ هى التى لم تصادف هوى من نفسى ، إذ كان لدىّ ميل أكيد للرسم ، وقد لذ لى العمل

---

(١) استعير هذا الاسم من « لافونتين » الذى أطلقه على الكلاب المنحطة ، فى أسطورة بعنوان : « التربية » ، اذ قال : « أواه ! كم من قياصرة أصبحوا لاريدونات ! » .

بآلة الحفر ، ولما كان ثمة طلب محدود على الحفار الماهر للاستعانة به فى صناعة الساعات ، فقد ساورنى الأمل فى أن أبلغ الكمال فى هذه الحرفة . ولعلنى كنت بالغا هذه الدرجة لولا أن فظاظة معلمى الوحشية ، وإفراطه فى فرض القيود على ، حملانى على أن أكره عملى ! وكنت أسترق بعض ساعات العمل لاتوفر على بعض اعمال مشابهة ـ ولكنها كانت تفتننى بما كنت أحسه فى ممارستها من حرية ـ فكنت احفر الأوسمة التى ترمز إلى طبقة من الأشراف ابتكرتها لنفسى ولزملائى . وفاجأنى معلمى مرة وأنا فى هذا العمل المحظور ، فضربنى ضربا مبرحا ، معلنا أننى كنت أتدرب لأغدو مزيفا للنقود ، إذ أن الأوسمة التى صنعتها كانت تحمل رسم شعار الجمهورية .. وأقسم إننى لم أوت ـ إذ ذاك ـ اية فكرة عن النقود الزائفة ، بل اننى لم أوت إلا أتفه فكرة عن النقود الطيبة !.. وكان إلمامى بعملات الرومان ـ التى قرأت عنها فى الكتب ـ يفوق معرفتى بنقودنا المستعملة !

وأخيرا ، أدت ربقة معلمى إلى أن صار العمل ـ الذى كنت مهيأ لأن اشغف به ـ شيئا لا يطاق ، وانعمتنى برذائل كنت خليقا بأن أكرهها لولا جبروته ، مثل الكذب ، والتكاسل ، والسرقة !.. ولقد علمتنى ذكرى التبدل الذى اصابنى فى هذه الفترة من حياتى ـ أكثر من أى شىء آخر ـ الفرق بين تبعية الابن للأب ، وبين الخضوع الذليل . ومع ما فطرت عليه من خجل واستحياء ، لم يكن ثمة عيب يجافى خصالى الطبيعية قدر بذاءة اللسان . على اننى كنت استمتع بحرية كريمة لم تلبث

أن تعرضت للقمع تدريجيا ـ بعد ابتعادى عن أبى ـ حتى تلاشت تماما . وكنت جريئا مع أبى ، غير مكبوت مع السيد لامبرسييه ، معتدلا مع خالى ، فصرت جبانا مع معلمى ! ومنذ تلك اللحظة أصبحت طفلا حائرا ضالا . ولما كنت قد الفت ان اكون على قدم المساواة التامة فى اتصالاتى بمن يكبروننى ، ولم أعرف ملهاة بعيدة عن متناولى ، ولا رايت صفحة طعام لا يحق لى أن أنال منها نصيبا ، ولا رغبة لا املك ان أعبر عنها جهارا .. لما كنت قد ألفت كل هذا ، واعتدت أن يكون كل ما فى قلبى على طرف لسانى ، فان من الميسور تقدير ما كنت مسوقا إلى أن اتحول إليه فى بيت لم أكن أجسر فيه على ان افتح فمى ، وكنت مضطرا فيه إلى ان أغادر المائدة قبل ان افرغ من نصف الوجبة ، وان ابرح الغرفة بمجرد أن افرغ من شأنى بها .. فى بيت كنت فيه مغلولا إلى عملى باستمرار ، ولم أكن أرى فيه سوى أسباب المتعة لسواى والحرمان لنفسى .. حيث كانت رؤيتى الحرية التى يستمتع بها معلمى وزملائى تضاعف من وطأة الخضوع على نفسى ، وحيث لم أكن اجرؤ على أن أفتح فمى إذا ما ثار الجدل حول أمور كنت على خير دراية بها !.. وقصارى القول ، حيث كان كل ما يقع عليه بصرى يغدو هدفا لشوقى ، لمجرد أننى كنت محروما من كل شىء !

منذ ذلك الحين فارقتنى وداعتى ولطفى وخفة روحى ، وتلك البشاشة التى كانت ـ فيما مضى ـ تقينى العقاب إذا ما ارتكبت ذنبا . كل هذه تبددت . ولا اتمالك ان اضحك كلما تذكرت

كيف أننى ـ ذات مساء ـ أرسلت إلى الفراش ، فى بيت أبى، دون عشاء ، لذنب أتيته .. وفيما كنت أجتاز المطبخ وفى يدى كسرة خبز تدعو إلى الأسى ، رأيت قطعة لحم تقلب على السفود ـ «الشواية» ـ فأخذت أتنسم عبيرها ! وكان كل أهل البيت وقوفا حول النار ، فاضطررت إلى أن ألقى على كل منهم تحية المساء ، أثناء مرورى ، حتى إذا فرغت من تحيتهم ، غمزت بعينى لقطعة اللحم التى بدت بديعة المنظر ، والتى كانت زكية الرائحة ، ولم أتمالك أن انحنيت لها ـ كما انحنيت للآخرين ـ وقلت بلهجة حزينة : « عمى مساء يا قطعة الشواء ! » . واطربتهم هذه الملحة المسلجة إلى درجة جعلتهم يستبقوننى للعشاء . ولعلها كانت كفيلة بأن تتخذ نفس الوقع من نفس معلمى ، ولكنى واثق من أنها لم تخطر ببالى قط ، ومن اننى ما كنت لأجد الشجاعة على ان أقولها فى حضوره !

وبهذا النهج تعلمت كيف أكتم ما اشتهى ، وكيف أنافق ، واكذب ، و ـ أخيرا ـ أسرق !.. وهو أمر لم يخطر ـ حتى ذلك الوقت ـ ببالى مطلقا ، ولم استطع منذ ذلك الحين أن ابرىء نفسى منه تماما . ذلك لأن الاشتهاء المكبوت والضعف يقودان دائما إلى هذا الاتجاه ، الأمر الذى يفسر السر فى أن جميع الخدم نصابون ، وفى أن جميع الصبيان لدى أصحاب الحرف مسوقون إلى أن يكونوا كذلك .. ولكن هؤلاء يفقدون ـ بتقدمهم فى مدارج العمر ـ هذه الرذيلة المشينة ، إذا أتيحت لهم المساواة فى جوع وادع مأمون ، يألفون فيه أن يكون كل ما يرونه فى متناولهم . ولما لم تتح لى هذه الميزات ، فاننى لم أملك أن أجنى نفس الفوائد !.. وأكاد أقول إن الذى يدفع

الطفل إلى أن يخطو أولى خطواته نحـو الشر ، هو دائمـا المبادىء الطيبة التى يساء توجيههـا . فلقد مكثت مع معلمى عاما دون أن أفكر فى الاقدام على أخـذ أى شىء ـ حتى من المأكولات ـ برغم ما لاقيت من حرمـان وإغراء مستمرين . وكانت أولى سرقاتى من أجل شخص سواى ، ولكنها فتحت الباب لسرقات أخرى ، لم يكن الباعث إليها أمرا محمودا !.. فلقد كان لدى معلمى عامل باليومية ـ يدعى السيد «فيرا» ـ يقيم فى دار مجاورة ، وله حديقة على مسافة منها تنتج نوعـا راقيا من ( الاسفاناخ ) . وخطر للسيد فيرا ـ الذى لم يكن يحصل على حاجته من المـال ـ أن يسرق بعض الاسفاناخ الصغيرة التى كانت أمه تستنبتها ، فيبيعها لتدر عليه ما يكفى لامداده بفطور طيب ليومين أو ثلاثة . ولما لم يكن راغبا فى أن يقدم بنفسه على المغامرة ، كما أنه لم يكن خفيف الحركة ، فقد اختارنى لهذه المهمة . وبعد محايلات أولية وتملقات ـ زاد من سهولة نجاحها فى التأثير على ، أننى لم أكن أدرك هدفها ـ عرض على الأمر كفكرة خطرت له عفو اللحظة . فعارضتها بشدة ، ولكنه الح . وليس بوسعى قط أن اقاوم التملق ، ومن ثم فقد انصعت له ، وأخذت أذهب فى كل صباح فأجمع أبدع نبتات الاسفاناخ وأحملها إلى سوق ( مولار ) ، حيث أدركت امرأة طيبة أنى كنت أسرقها لتوى ، فكانت ترمينى بهذا الاتهام لتبخسنى الثمن . وكنت فى ذعرى أقبـل أى ثمن تقدمه ، ثم أحمله إلى فيرا ، فسرعان ما يتحـول المبـلغ إلى فطور كنت اتكفل باحضاره ، وكان يتقاسمه مع زميل آخر ، بينما أقنع أنا

ببضع لقيمات .. ولم اتذوق قط النبيذ الذى كانا يتناولانه مع هذا الفطور !

واستمرت هذه الخطة عدة أيام ، دون أن يخطر لى قط أن اسرق ـ بدورى ، من الباطن ـ السارق الأصلى ، وأن افرض « عوائد » على ما كانت تدره اسفاناخ السيد فيرا ! بل كنت أؤدى دورى فى المهمة بمنتهى الاخلاص ، وليس لى من حافز سوى رغبتى فى ارضاء ذاك الذى كان يحرضنى . ومع ذلك ، فكم من صفعات وشتائم وقسوة كنت خليقا بأن أتلقاها ـ لو أن امرى انفضح ـ بينما كان من المؤكد ان يبادر الوغد إلى انتحال اكذوبة تقابل بالتصديق ـ ومن ثم يتضاعف عقابى إذ يعتبر اتهامى اياه ـ وهو العامل وانا الصبى ـ وقاحة !.. وهكذا نرى أنه ـ فى كافة ظروف الحياة ـ كثيرا ما يحدث أن المذنب القوى ينجى نفسه على حساب البرىء الضعيف !.. وبهذه الطريقة تعلمت ان السرقة لم تكن من الفظاعة بالقدر الذى كنت أتصورها عليه ، وأنه ليس من شىء اشتهيه يعز على ، ما دام فى متناول يدى. ولم أكن سيىء التغذية على طول الخط ، ولكن العفة اصبحت امرا متعذرا على وانا ارى معلمى ينظر إليها كشىء منكر !.. ويبدو لى ان اعتياد اقصاء الصغار عن المائدة ، فى الوقت الذى تحمل إليها فيه أشهى الأطعمة ، هو أروع طريقة تنتهج لجعلهم نهمين ولصوصا !.. وسرعان ما أصبحت نهما ولصا ، واستطعت أن أمضى موفقا ـ بوجه عام ـ فلم يفتضح أمرى إلا فى مرات نادرة كنت افاجأ فيها !

اننى لأرتجف ـ واضحك فى الوقت ذاته ـ إذ اتذكر أن سرقة

بعض التفاح كادت تكبدنى غاليا ! فقد كانت تلك التفاحات فى قرار حجرة لاختزان المؤن ، تضاء بالنور المنساب من المطبخ خلال كوة عالية ذات شبكة حديدية . وفى ذات يوم ، وقد خلت الدار إلا منى ، صعدت على المعجن ـ حوض العجين ـ لألقى نظرة على الثمار الغالية فى حديقة « هيسبريد »(١) . ولما كانت بعيدة عن متناولى ، فقد أحضرت سيخا لأحاول أن أتبين ما إذا كان بوسعى أن أمس التفاحات ، ولكنه كان جد قصير . ولكى أزيده طولا ، ربطت إليه سيخا صغيرا ، كان يستخدم فى شى الحيوانات الصغيرة ، إذ كان معلمى مغرما بالصيد . ودفعت السيخين عدة مرات ، دون أن أوفق . وأخيرا ، شعرت لعظم اغتباطى ، أننى أصبت تفاحة ، فتأهبت لأن استخوذ عليها ، ولكن .. منذا الذى يستطيع أن يصف اساى ، حين وجدتها أكبر من أن تمر خلال قضبان الكوة ! وكم من حيل بذلتها لانفذها خلال القضبان !.. وكان لابد لى من العثور على ما يبقى السيخ فى مكانه ، والحصول على سكين ذات طول كاف لشطر التفاحة ، وقطعة من الخشب استعين بها على إبقاء التفاحة عاليا . وتمكنت اخيرا من أن اشطرها ، يحدونى الأمل فى أن استطيع أن أجتذب النصفين ، واحدا بعد الآخر ، ولكنهما ما أن انفصلا حتى هويا إلى ارض المخزن ! ـ الا فلتشاركنى اساى ، أيها القارىء الشفوق ! ـ ومع ذلك فانى لم أفقد جلدى مطلقا ، لكننى كنت قد ضيعت

---

(١) هيسبريد : اسم لواحدة من عذارى ورد ذكرهن فى أساطير الاغريق على أنهن كن يغرسن شجرة تثمر تفاحات ذهبية .

وقتا ليس بالقصير ، فخشيت أن أفاجأ ، وارجأت القيام بمحاولة أخرى — تكون موفقة — إلى اليوم التالى ، وعدت إلى عملى فى سكينة ، وكأننى لم آت أمرا ، دون أن أفكر فى الشاهدين المشطورين اللذين كانا يقبعان فى المخزن !

وفى اليوم التالى ، انتهزت فرصة سانحة ، وقمت بمحاولة جديدة . فصعدت على مقعدى ، وربطت السيخين وهيأتهما ، وهممت بأن ادفعهما ، ولكن « الغول » لم يكن نائما ، لسوء الحظ . فقد فتح باب المخزن بغتة ، وخرج منه معلمى ، فعقد ذراعيه ، وتطلع إلى ، وقال : « تشجع ! » .

إن القلم يسقط من يدى !.. على أن حساسيتى إزاء العقاب لم تلبث أن ضعفت ، من جراء سوء المعاملة المستمر ، فكنت أنظر إلى السرقة على أنها نوع من التعويض يخول لى الاستمرار فيها ! وبدلا من أن أستعرض ما فات وأقدر ما كنت ألقى من عقاب ، رحت أتطلع إلى الأمام وأفكر فى الانتقام !.. ورحت أرى أننى إذا كنت أضرب بزعم أننى لص ، فان هذا الضرب يخولنى أن أتصرف كلص . وتبينت أن السرقة والضرب أمران يسيران جنبا إلى جنب ، فجعلت منهما جانبين فى صفقة عادلة .. فماذا قمت بدورى ، كان على أن ادع معلمى يؤدى دوره ! وبهذا التفكير ، شرعت أمارس السرقة بنفس أكثر طمأنينة من ذى قبل . وكنت أقول لنفسى : « ما هى النتيجة ؟.. سأضرب ؟.. لا بأس ، لقد تعودت الضرب ! » .

اننى مشغوف بالأكل ، ولكنى لست شرها .. وأنا مغرم بارضاء نزواتى البدنية ، ولكنى لست نهما ، فان لى ميولا كثيرة

اخرى تحول دون ذلك . وما جشمت نفسى يوما أية متاعب بشأن الطعام ، اللهم إلا حين يكون قلبى خاليا مما يشغله ، وهذه حال كانت من القلة فى حياتى بحيث اننى نادرا ما وجدت وقتا للتفكير فى الأطايب اللذيذة . ولهذا السبب لم أقصر اتجاهاتى فى اللصوصية على المواد الغذائية ـ لأمد طويل ـ بل سرعان ما بسطتها إلى كل شىء كان يغريني ! وإذا كنت لم أصبح لصا محترفا ، فانما ذلك لأننى لم أجد قط فى النقود إغراء شديدا . وكانت فى الطريق إلى خارج « الورشة » العلمة حجرة خاصة لمعلمى ، وجدت وسيلة لأن افتح بابها وأغلقه دون أن يفطن أحد إلى ذلك . وهناك ، رحت أشاطره خير عدده وآلاته ورسومه وتجاربه .. بل كل شىء كان يجتذب ميولى ، وكان هو يحرص على إبقائه بعيدا عنى لهذا السبب !.. وكانت هذه السرقات ـ فى قرارها ـ بريئة تماما ، إذ ما كنت استغلها إلا فى خدمة معلمى . على اننى انتشيت إذ وجدت هذه التوافه فى متناولى ، وخيل إلى اننى كنت أسلبه مواهبه وما كان ينتج عنها ! وإلى جانب ذلك ، وجدت صناديق تحوى مبارد وأساور صغيرة وبعض النفائس والعملات الذهبية والفضية . وكنت حين أجد فى جيبى اربع أو خمس قطع من فئة « السو »(١) ، اعتبر نفسى غنيا . ومع ذلك ، فضلا عن اننى لم أمس شيئا مما وجدته هناك ، فاننى لا أذكر قط اننى رمقتها يوما بعينين مشوقتين . وإنما كنت أنظر

---

(١) « السو » عملة فرنسية صغيرة تعادل ٥ سنتيمات ، أو جزءا من عشرين من الفرنك .

إليها فى جزع أكثر منى فى ابتهاج ! واعتقد أن هذا الاستنكار لسرقة المال والنفائس كان راجعا — إلى حد كبير — إلى تربيتى ، وإلى ما كان يقترن بها من أفكار دفينة عن العار ، والسجن ، والعقاب ، والمشانق ، مما كان كفيلا بأن يجعلنى أرتجف فرقا لو أننى تأثرت بالاغراء .. هذا فى حين أن أحاييلى كانت تبدو فى نظرى كمجرد أعمال خبيثة — أو « شقاوة » — لا أكثر ، وانها لا يمكن أن تفضى إلى أكثر من « علقة » طيبة من معلمى .. وكنت أعد نفسى مقدما لذلك !.. وأكرر أننى لم أشعر قط برغبة كافية فى أن أكبح نفسى ، فلم يكن ثمة ما يقلق ضميرى . وكانت قصاصة واحدة من ورق الرسم البديع أكثر إغراء لى من نقود تكفى لأن ابتاع رزمة منه ! وهذه الظاهرة الفذة ترتبط باحدى ميزات خلقى وشخصيتى ، وقد كان لها من عظم النفوذ على مسلكى ما يجعلها أهلا للشرح !

* * *

اننى إنسان ذو حمية بالغة ، إذا ما استبدت بى ثورتها ، فلن يعدل اندفاعى شىء : إذ انسى كل حكمة ، وكل شعور بالاحترام والخوف والوقار ، فاذا أنا أغدو شرسا ، متهورا ، عنيفا ، غير هياب .. لا يصدنى أى إحساس بالعار ، ولا يرهبنى أى خطر .. بل اننى لا أحفل من الكون كله إلا بالغاية التى تشغل بالى فحسب ! على أن هذا كله لا يستمر إلا لحظة ، ثم إذا بى فى اللحظة التالية أنغمس فى سكون تام . أما فى لحظات هدوئى ، فأنا الخور والجبن ذاتهما ، إذ يخيفنى ويثبط همتى كل شىء : فالذبابة التى تمر بى وهى تطن تفزعنى .. واضطرارى إلى أن أقول كلمة أو

أبدى حركة ، يقض خمولى .. وهكذا يتسلط على الخوف والخجل إلى درجة يسرنى معها أن استخفى عن بصر زملائى من الآدميين !.. وإذا كان على أن آتى تصرفا فاننى لا أدرى ماذا ينبغى أن افعل . وإذا قدر على أن اتكلم ، فإننى لا أدرى ما ينبغى أن اقول . وإذا نظر أحد إلى ، تولانى الارتباك !.. ولقد أوفق إلى الكلمات الخليقة بأن تقال ، عندما استثار لدرجة عالية ، ولكنى ـ فى الحديث العادى ـ لا أعثر البتة على شىء يقال ، واغدو فى حال لا تطاق ، لمجرد أن أجدنى مضطرا إلى الكلام !.. أضف إلى ذلك أن ليس بين رغباتى المتسلطة ما يتجه إلى أشياء يمكن أن تشترى . فلست اشتهى سوى المتع البريئة ، غير الزائفة ، وكلها مما يسمه المال ويفسده . من ذلك اننى مشغوف بمتع الطعام ، ولكننى ـ إذ لا أحتمل عبء الجلوس فى جماعة ، أو الشراب فى حانة ـ لا املك أن أحظى بها إلا برفقة صديق .. أما إذا كنت وحيدا ، فان خيالى يشغل إذ ذاك بأمور أخرى ، فلا يعود للأكل حظوة لدى . وبرغم أن دمى الحار يهفو إلى النساء ، فان قلبى المشبوب أشد حنينا إلى العاطفة الصادقة . ومن ثم تفقد النساء ـ اللاتى يشترين بالمال ـ كل مفاتنهن فى نظرى .. بل أنى أرتاب فى أن أجد من نفسى قابلية للافادة منهن . كذلك شأنى مع كل المتع التى فى متناول يدى ، فأنا أجدها غثة طالما كانت لا تكبدنى شيئا !.. وإنما أحب من المتع وأسباب اللذة ما لا يكون ملكا لأول إنسان يعرف كيف يستمرئها !

والمال .. أبدا ما تراءى لى نفيسا كما يقدر عادة ، بل إنه

لم يبد لى قط ذا صلاحية خاصة ، فهو عديم القيمة فى حد ذاته ، إذ لابد من استبداله لكى يتيسر الاستمتاع به . فالمرء مضطر إلى أن يشترى ، ويساوم ، ويتعرض للغش ، ويغبن ويبهظ ، ولا يخدم حق الخدمة .. وحين انشد شيئا جيد الصنف ، أوقن من أننى لن أحصل بالمال إلا على صنف ردىء !.. فاذا ما دفعت نقودا من أجل بيضة طازجة ، وجدتها فاسدة .. أو من أجل ثمرة طيبة من الفاكهة ، الفيتها فجة .. وقد ادفع من أجل فتاة ، فاذا بها مفسودة !.. وأنا مولع بالنبيذ الجيد ، ولكن أين اظفر به ؟ الدى تاجر الخمور ؟ مهما افعل فانه لن يتحرج عن أن يسمنى ! ولو شئت أن أحظى بخدمة طيبة حقا ، فيالعناء ويالحيرة ! لا بد لى من أصدقاء ، ورسل ، ومن أن أمنح عمولات ، واكتب ، وأروح واجىء ، وانتظر .. وغالبا ما أكون فى النهاية ضحية للغش !.. أى عناء القاه من مالى ! إن خوفى منه لأشد من شغفى بالخمر الجيدة !

كم من مرات يخطئها الحصر ، خرجت فيها ـ اثناء تعلمى الحرفة وبعد ذلك ـ وأنا اعتزم شراء بعض الحلوى .. فكنت أقبل على حانوت صانع الحلوى ، فأرى بعض النسوة عند طاولة البيع . وأخال أننى ابصرهن بالفعل وهن يتضاحكن من هذا النهم الصغير !.. فأذهب إلى الفاكهى ، وارمق الكمثرى فيغويني شذاها ، ويرمقنى شابان أو ثلاثة على مقربة .. وهذا رجل يعرفنى ، يقف أمام حانوته .. وأرى فتاة مقبلة من بعد ، أفتراها خادم الدار ؟ إن قصر نظرى يهيىء لى كافة الرؤى الوهمية ، فأخال المارة جميعا من المعارف ،

وهكذا أجد فى كل مكان من العراقيل ما يفزعنى ويصدنى .. وتتضاعف رغبتى بازدياد خجلى واستحيائى ، ثم أعود ـ فى النهاية ـ إلى البيت ، كالمغفل ، والشوق يضنينى ، وفى جيبى الوسيلة لإشباعه ولكنى لم أوت الجراة على أن ابتاع شيئا ! ولقد انساق إلى أكثر التفصيلات اجتلابا للملل إذا سمحت لنفسى ـ وأنا أصف كيف كانت نقودى تنفق ، عن طريقى أو عن طريق سواى ـ بأن اشرح الارتباك ، والاستحياء ، والإحجام ، والتململ ، والازعاج ، التى كنت أمر بها دائما .. على أن القارىء المتتبع لمجرى حياتى ، لن يلبث ـ إذا ما عرف حقيقة طباعى وسجيتى ـ أن يفهم كل هذا دون أن اتجشم عناء روايته عليه !

.....

ولو تسنى له فهم هذا ، فسيسهل عليه إدراك ظاهرة من ابرز ظواهر التناقض لدى : وهى اجتماع شح يكاد يكون خسيسا ، مع بغض شديد للنقود !.. فما النقود سوى قطعة من أثاث لا أجد فيها من الراحة سوى القليل ، حتى انه لا يخطر ببالى قط أن أصبو إليها عندما لا تتوفر لى .. وحتى إذا ظفرت بها ، فانى ابقيها طويلا دون أن انفقها ، عجزا منى عن أن ادرى كيف استخدمها بطريقة تدخل السرور على نفسى. أما إذا سنحت لى فرصة ملائمة ومواتية ، فاننى اقبل على استخدام النقود حتى ليخلو كيسى منها قبل أن افطن !.. وإلى جانب ذلك ، فلا داعى لأن يتوقع أحد أن يجد عندى تلك الخلة العجيبة التى تتوفر فى البخلاء : الانفاق ، لمجرد التظاهر بالانفاق ! بل اننى ـ على النقيض ـ أنفق فى السر من أجل

الاستمتاع ، وبدلا من أن أفخر بالانفاق أخفيه ! ويبلغ من شدة شعورى بأن لا نفع للمـــال لدى ، أننى أكاد أخجل إذ أقتنى أى قدر منه ؛ وأكون أشد خجلا حين استخدمه !.. ولو قدر لى يوما من الدخل ما يكفى لأن أعيش حيـــاة مريحـــة ، فاننى أجزم باننى ما كنت لأكون بخيلا ، بل كنت أنفقه عن آخره ، دون أن أحاول زيادته . ولكن ظـــروفى غير المستقرة تلزمنى الحرص ، فأنا أعبد الحرية ، وأمقت الكبت والعنـــاء ، وأن أكون عالة على الغير ! وطالمـــا بقى المـــال فى كيسى ، فانه يطمئننى إلى استقلالى ، ويعفينى مؤونة البحث عن أعمـــال لتملأ الكيس من جديد ، وهى ضرورة تبعث الجزع فى نفسى دائما .. ومن ثم فان الخوف من أن أرى ما لدى من المـــال قد استنزف ، يجعلنى اكتنزه فى حرص .. فالمـــال الذى يمتلكه الشخص هو أداة حريته ، أما حين نسعى إليه ملهوفين فيكون أداة العبودية .. ولهذا أتشبث بما لدى ، ولا أرغب فى مزيد !

ومن ثم فان عدم شغفى بالمال لم يكن سوى تقاعس وتبلد ، فان متعة الاقتناء لا تستحق عناء التحصيل .. وكذلك الحال بالنسبة لإسرافى ، فهو ليس أكثر من تقاعس وبلادة ، وعندما تحين فرصة الانفاق النافع ، فاننى لا أحسن استغلالهـــا .. فالمـــال أقل إغراء لى من الأشياء ، إذ أن ثمة وسيطا ـــ على الدوام ـــ بين المـــال وبين اقتناء الأشياء المنشودة ، فى حين أنه لا يوجد أى وسيط بين الأشياء وبين الاستمتاع بها .. فاذا ما رأيت الشىء فانه يستهوينى ، وما أن أتبين وسيلة الظفر به حتى يفقد إغراءه !.. ولهـــذا السـبب اعتدت أن أرتكب السرقـــات ، ولا أزال ـــ حتى الآن ـــ اختلس التوافه التى

تستهوينى ، والتى أوثر أن آخذها بهذه الطريقة على أن اطلبها .. ولكنى لا أذكر أننى ـ سواء فى طفولتى أو فى كبرى ـ قد سلبت أى امرىء درهما واحدا ، اللهم إلا فى مناسبة واحدة ـ منذ خمس عشرة سنة ـ إذ سرقت سبعة « ليبرات » وعشر قطع من فئة « السو » . وهذا الحادث جدير بالذكر ، لأنه يشتمل على خليط عجيب من النزق والقحة ، ما كنت لأصدقه بسهولة لو أنه كان يتعلق بشخص سواى !

ولقد وقع هذا الحادث فى باريس ، إذ كنت أتمشى مع السيد « دى فرانسوى » فى حدائق ( الباليه رويال ) حوالى الساعة الخامسة . فاذا به يخرج ساعته ، فيستطلعها الوقت ، ثم يقول : « لنذهب إلى الأوبرا ! » . ووافقت ، فذهبنا . واستأجر السيد مقعدين فى « الصالة » ، وأعطانى إحدى التذكرتين ، ثم مضى بالثانية يتقدمنى ، فتبعته . ودخل إلى « الصالة » ، فلما هممت بالدخول خلفه ، إذا بالناس يسدون الطريق . وتلفت فاذا كل فرد واقف ، فظننت أن من السهل أن أتوه وسط الزحام ، أو أن أوهم السيد « دى فرانسوى » بأننى ضللت ، على أية حال . ومن ثم خرجت فاسترجعت ثمن التذكرة ، وانصرفت بالنقود ، دون أن يخطر ببالى أن الجميع كانوا قد اتخذوا مجالسهم بمجرد بلوغى الباب الخارجى ، وأن السيد « دى فرانسوى » قد تبين اننى لم أكن موجودا ! (١) .. وإذ لم يكن ثمة تصرف ينافى مسلكى العادى

(١) ذكرت جورج صاند فى كتابها : « تاريخ حياتى » ، أن السيد دى فرنسواى ـ وكان جدها ـ اعتاد أن يذكر دائما صدق هذه القصة .

مثل هذا التصرف فاننى انكره لأبين أن هنـــاك لحظات ينبغى الا يحكم فيها على الرجال بأعمالهم ، لأنهم يكونون فى شـــبه ذهول أو شرود !.. ذلك لأننى لم أكن راغبا فى اختلاس النقود ذاتها ، وإنما أردت أن أسرق وجه استخدامها ، ولكن هـــذا التصرف كان مشينا بقدر ما كان بعيدا عن السرقة !

* * *

ولن يقدر لى أن أفرغ من كل هذه التفصيلات لو أننى ألححت بكافة الدروب التى اتبعتها ـــ أثناء تعلمى الحرفة ـــ فى هبوطى من ذرى البطولة النبيلة ، إلى درك التفاهة ! ومـــع ذلك ، فاننى لم أستمرىء رذائل المركز الذى كنت فيه ، وإن مارستها. وسئمت أسباب التسلية التى كان زملائى يقبلون عليها ، حتى إذا اشتد تقييد حريتى فجعل العمل فى نظرى أمرا لا يطاق ، سئمت كل شىء !.. وجدد هذا من شغفى بالقراءة ، بعد أن كنت قد فقدته زمنا . ولكن هذه القراءة ـــ التى كنت أختلس لها فترة من وقت العمل ـــ أصبحت عيبـــا جديدا استوجب عقابى .. وإذا الميل إليها يتحول ـــ بالقمع ـــ إلى وجد لم يلبث أن أصبح جنونا !.. وكانت «لاتريبو» ـــ وهى امرأة اشتهرت باعارة الكتب ـــ تمدنى بكتب كافة ألوان الأدب ، وكانت كلها ـــ الغث منها والنفيس ـــ سواء عندى ، إذ لم يكن لى فى الأمر خيار ، فأخذت أقرأ كل شىء بنفس النهم : رحت أقـــرأ وأنـــا أمام طاولة العمل ، وأقرأ وأنا منطلق فى بعض المهام ، وأقرأ بجوار صوان الملابس، وأنسى نفسى ساعات طويلة حتى يدور رأسى لفرط القراءة .. فما كنت أملك ســـوى أن أقرأ ! كان

معلمى يراقبنى ، ويباغتنى ، ويضربنى ، وينتزع الكتب منى . . وكم من مجلدات مزقت واحرقت وطوح بها من النافذة ! . . وكم من مؤلفات تركت ناقصة الأجـزاء ـــ لهذا السبب ـــ فى مكتبة « لاتريبو » !.. وكنت إذا عزت على النقـود ، أقـدم للمراة اقمصـتى ، واربطة عنقى ، وملابسى .. كمـا كانت تستولى منى فى يوم الأحد من كل أسبوع على قطع « السو » الثلاث التى كنت اتقاضاها لمصروفى الخاص !

سيقال لى هنا إن النقود باتت من الضرورات لى . وهذا حق ، ولكنه لم ينطبق على إلا عندما حرمنى شغفى بالقراءة ، من كل نشاط . فان انصرافى بكل نفسى إلى هوايتى ، وعـدم اكتراثى بغير القراءة ، ألهانى عن السرقة ! وهذه ميزة اخرى من الميزات البارزة فى شخصيتى ، ففى غمرة انغماسى فى اى مسلك فى الحيـاة ، يستطيع اى امر تافه أن يجتذبنى ، وان يحولنى ، وأن يستأثر بانتباهى ، ثم يغدو شغفا . وإذ ذاك يصبح كل شىء منسيا ، فلا أعود افكر فى غير الشىء الجديد الذى يستحوذ على اهتمامى .. وهـكذا كان قلبى يخفق فى صـبر نافذ إذا ما احضرت كتابا جديدا ودسسته فى جيبى ، فلا اكاد اخلو إلى نفسى حتى اخرج الكتاب ، ولا أعود افكر فى التنقيب فى حجرة معلمى بالورشـة .. ولا اكاد اصدق اننى كنت اقدم على السرقة ، ولو كانت لى اهواء تكلفنى نفقـة ابهظ .. كنت فى اقتصارى على الحاضر ، لا اجد اتجاها إلى أن ادبر امر المستقبل بهذه الطريقـة ، فقد كانت « لاتريبو » تعطينى الكتب بالنسـيئة ( بالتقسيط ) ، وكانت الدفعـات

صغيرة ، ولكنى كنت أنسى كل شىء بمجرد أن أطمئن إلى وجود الكتاب فى جيبى . وكانت النقود التى تأتينى بطرق شريفة تذهب بنفس الأسلوب إلى يدى هذه المرأة ! ولم يكن أهون على ـ عند ما تشتد فى الضغط على ـ من أن أنزل عما أمتلك. وكانت السرقة ـ قبل الحاجة إلى المسروق ـ تتطلب كثيرا من بعد النظر ، ومن ثم لم أكن أتعرض لاغراء يحملنى على السرقة لكى ادفع ما كانت المرأة تطلبه !.. وكان من جراء المشاجرات ، والضرب ، والاطلاع خفية على كتب أسىء اختيارها ، أن صرت شرسا ، صموتا ، وشرد عقلى ، وأصبحت أعيش منطويا !.. على أنه إذا كان إدراكى لم يعصمنى من الكتب السخيفة والفاسدة ، فإن حظى الحسن صاننى من الكتب الفاحشة والنابية .. لا لأن « لاتريبو » ـ التى كانت امرأة لينة الجانب ، من كل اعتبار ـ كانت تثير أى اعتراض دون إعارتى هذه الكتب ، وإنما لأنها كانت تذكرها لى فى لهجة مشوبة بالغموض ، لكى تضاعف من قيمتها لدى ، فاذا بهذا الغموض ، يحملنى على رفضها ، بدافع من الاستهجان والاستحياء .. وقد ساعدنى حظى على الاحتفاظ بهذا المسلك الطيب الورع ، فانقضى أكثر من ثلاثين عاما قبل أن تقع عيناى على أحد هذه الكتب الخطرة ، التى ما كانت أية سيدة رقيقة لتجد مطالعتها مريحة ، لأنها لا تقرأ إلا بيد واحدة فقط ! (١) .

---

(١) يقصد روسو الكتب المثيرة ، التى كان يبلغ من عنف اثارتها للقارىء أن تغريه على ممارسة العادات السيئة .

وفى أقل من عام ، كنت قد استوعبت الثروة الضئيلة من الكتب ، التى كانت لدى « لاتريبو » ، وأصبح افتقارى إلى ما يشغلنى ـ خلال فراغى ـ أمرا مضنيا . وكنت قد أبرأت نفسى من نزواتى الصبيانية النابية ، بفضل ولعى بالمطالعة . بل انى بفضل الكتب التى كنت أقرؤها ـ برغم أنها كانت سيئة الاختيار ، وكثيرا ما كانت رديئة ـ ملأت قلبى بمشاعر انبل من تلك التى كان محيط حياتى يوحى إلى بها . وإذ امتلأت اشمئزازا من كل شىء كان فى متناول يدى ، وشعورا بأن كل ما كان خليقا باغرائى قد أقصى عنى تماما ، لم أعد أرى ثمة ما يمكن أن يهفو إليه فؤادى . وكانت حواسى المهتاجة قد طال شوقها إلى متعة لم يكن فى وسعى أن أدرك كنهها ، ولو فى الخيال !.. كنت نائيا عن المتعة الواقعية ، وكأننى خال من الجنس .. وكنت ـ لاكتمال نموى وإرهاف مشاعرى ـ أفكر احيانا فى نزواتى ، ولكنى لم أكن ابصر مما وراءها اى شىء .. وفى هذه الحال العجيبة ، أقبل خيالى المضطرب على شاغل انقذنى من نفسى وهذا من حساسيتى الشهوية النامية !.. وكان هذا الشاغل هو تعليل نفسى بالحالات والمواقف التى استرعت انتباهى أثناء مطالعاتى . وبفضل تذكرها ، وتنويعها ، والجمع بينها ، وتصور انها تمت لى حقيقة ، أصبحت واحدا من الشخصيات التى كانت تملأ خيالى ، وأصبحت أرى نفسى ـ دائما ـ فى أكثر هذه المواقف ملاءمة لذوقى .. وأخيرا ، جعلتنى الحال الخيالية ـ التى وفقت إلى وضع نفسى فيها ـ أنسى خالى الحقيقية التى لم أكن راضيا

عنها ! وقد أفضى بى هذا الولع بالموضـــوعات الخيـــالية ، والاستعداد الذى كنت أتوسل به إلى شغل نفسى بها ، إلى الاستمئزاز من كل شىء حولى ، وإلى اقـــرار ذلك الميل إلى الوحدة الذى لم يفارقنى بعد ذلك . وسنرى ـ أكثر من مرة ـ فى سياق الحديث ، الآثار العجيبـــة التى ترتبت على هـــذا السلوك الذى كان يبدو كئيبا ، ومنطويا ، ولكنه ـ فى الواقع ـ راجع إلى قلب مفرط العطف ، ومفرط الحب ، ومفرط الحنان ، اضطر إلى أن يغذى نفسه بالأوهام إذ عجـــز عن أن يجد فى الوجود أى قلب آخر يشـــبهه ! على أننى اكتفى ـــ فى الوقت الحاضر ـــ بأننى حددت أصـــل ومبعث هوايـــة خففت كل نزواتى ، وفرضت عليها من نفســـها قيودا ، فجعلتنى على الدوام بطىء التصرف ، نظرا لفرط تأجج شهوتى !

* * *

وهكذا بلغت العام السادس عشر من عمرى ، وانا قلق ، غير راض عن نفسى ولا عن أى شىء ، خلو من شىء من الميول التى تتوفر فى مثل الحال التى كنت أعيش فيهـــا .. خلو من ملاهى السن التى كنت اجتازها ، يضنينى اشتهاء الغاية التى كنت أجهل كنهها .. فكنت أبكى دون ما داع للدموع ، وأتنهد دون أن أدرى لذلك سببا ! وقصارى القـــول ، كنت أداعب أطياف خيالى بحنان ، لأننى لم أكن أرى حولى شيئا يرجحها . وكان زملائى ـــ الذين كانوا يتعلمون الحرفة معى ـــ يغدون فى أيام الآحاد يبحثون عنى بعد الصلاة ، لأذهب فأنشـــد بعض اللهو معهم . كنت أشعر بأننى خليق بأن اغتبط لو استطعت

أن أهرب منهم ، ولكنى لم أكد اشترك فى ملاهيهم مرة ، حتى ازددت تحمسا وتماديت إلى أبعد مما كانوا يذهبون إليه !.. هكذا كان مسلكى دائما ، يصعب حملى على الشىء ، كما يصعب إيقافى عن المضى فيه إذا ما بدأت !.. فكنت ـ خلال نزهاتنا خارج المدينة ـ أذهب إلى أبعد مما يذهب إليه أى واحد منهم ، دون ما تفكير فى العودة ، ما لم يتذكرها لى الآخرون !.. ولقد تورطت فى هذا الصدد مرتين ، إذ أغلقت أبواب المدينة قبل أن أتمكن من العودة ! فكنت ـ فى اليوم التالى ـ أقابل من معلمى بما يمكن تصوره ! بل إننى أنذرت فى المرة الثانية بأن أقابل ـ إذا ما تكرر التأخر ـ استقبالا جعلنى أعقد العزم على أن لا أقدم على التعرض لهذا الخطر ثانية !.. ومع ذلك ، فقد قدر للمرة الثالثة أن تأتى ، برغم بشاعتها : فقد أفسد على حرصى ضابط لعين من الحرس ـ كان يدعى الكابتن مينوتولى ـ اعتاد دائما أن يغلق « البوابة » التى كان يحرسها قبل أن تغلق الأبواب الأخرى بنصف ساعة ! وكنت فى تلك المرة عائدا مع زميلين ، وقبل أن نبلغ المدينة بنصف فرسخ ، سمعت البوق الذى يستحث العائدين ، فضاعفت من خطاى .. وعدت أسمع البوق ، فهرعت بكل قواى .. ووصلت وأنا مقطوع الأنفاس ، غارقا فى العرق ، وقد راح قلبى يخفق بعنف .. ورأيت الجنود ـ من بعد ـ يتخذون مراكزهم ، فاندفعت نحو البوابة وأنا أصرخ بصوت كاد يخنقه التهدج .. ولكن الفرصة كانت قد فاتت ، فما أن أصبحت على عشرين خطوة من مركز الحراسة الامامى ، حتى رفعت القنطرة الأولى ! وارتعدت

وأنا أرى طرفيها الرهيبين يرتفعان فى الهواء ؛ كنذير شـؤم بغيض بالمصير الذى كان فى تلك اللحظة يفغر فاه ليبتلعنى !

وفى الفـورة الأولى لأسـاى ، ألقيت بنفسى على الأرض المنحدرة ، ورحت أعضها . وبادر زميلاى لتوهما ـ وهمـا يضحكان من نحسهما ـ إلى تقرير ما ينبغى عليهما عمله . وقد حذوت حذوهما ، ولكن قرارى كان يختلف عن قرارهما. فقد اقسمت ـ فى تلك البقعة ـ الا اعود إلى معلمى قط ! فلما ولجا المدينة فى الصباح التالى ، بعـد أن فتحت الأبـواب ، ودعتهما إلى الأبد ، ولم أسألهما سـوى أن ينبئا ابن خـالى « برنارد » بقرارى ، سرا ، وبالمكان الذى يستطيع أن يرانى فيه مرة أخرى !.. ولم أكن ـ منذ تتلمذت فى الحرفة ـ قد رأيته الا لمـاما ، فقد ظللنا وقتا نلتقى فى يوم الأحـد من كل أسبوع ، ولكن كلا منـا أخذ يتجـه رويدا إلى عادات غير عادات صاحبه ، فأخذت لقاءاتنا تقل باطراد . وأعتقـد أن لأمه يدا فى هذا التحول ، فقد كان من أبنـاء الحى الراقى ، بينما كنت تلميذا فقيرا أتلقى أصول الصنعة . كنت من أبنـاء ( سان جيرفيه ) ـ حى الفقراء بالمدينة ـ فلم تعد ثمة مساواة بيننا ، برغم قرابتنا ، ومن ثم فقد كان من الحطة له أن يكون ذا شأن معى !.. ومع ذلك ، فان الصـلات بيننا لم تنقطع تماما ، فان ابن خالى ـ بما أوتى من فطرة طيبة ـ كان يتبع فى بعض الأحيان ما كان يمليه عليـه قلبـه ، وليس ما كانت تمليه عليه أمه !.. فلما أنبىء بما عقدت عليه العزم ، أسرع إلى ، لا ليحاول أن يثنينى عنه أو يشاطرنيه ، وإنما ليخفف

متاعب فرارى ببعض المنـــح البســـيطة ، إذ كانت مواردى لا تساعدنى على الذهاب بعيدا . وكان بين الأشياء الأخرى التى وهبنيها ، سيف صغير استهوانى كثيرا ، وظللت أحمله حتى بلغت ( تورين ) ، حيث اضطرتنى الضرورة إلى ان أنزل عنه . اننى كلما فكرت ـــ منذ ذلك الحين ـــ فى التصرف الذى انتهجه ابن خالى نحوى فى تلك اللحظـــة الحرجة ، ازددت اقتناعا بانه إنما أتبع تعليمات أمه ، وربما أبيه ايضا . إذ أنه من الأمور التى لا سبيل إلى تصديقها ، أنه كان يقعد عن بذل اى مجهود لاستبقائى ، أو يحجم عن أن يتبعنى ، لو أنه كان يتصرف من تلقاء نفسه .. ولكنه ـــ على العكس ـــ كان فى مسلكه أقرب إلى تشجيعى على أن أمضى فى خطتى ، منه إلى إثنائى عنها !.. وعندما تبين أننى كنت مصمما ، تركنى دون أن يذرف كثير دمع . ولم يقدر لنا أن نتبادل الرسائل أو أن يرى أحدنا الآخر ، منذ ذلك الحين ! وإنه لأمر يدعو للأسف ، إذ كانت شخصيته بطبيعتها طيبة ، وكنا قد خلقنا لكى يحب كل منا الآخر !

وقبل أن استغرق فى الحديث عن حظى وقدرى ، اسمحوا لى أن أحول عينى لحظة إلى الحظ الذى كان خليقا بأن ينتظرنى ـــ بحكم طبيعة الأمور ـــ لو أننى وقعت بين يدى معلم افضل من معلمى هذا .. فما كان ثمة ما هو أنسب لميـــولى ، ولا ما هو أصلح لاسعادى ، من الحياة الهادئة، المغمورة، التى يحظى بها اى صاحب حرفة محترم، لا سيما إذا كان من طبقة كطبقة الناقشين على المعادن فى ( جنيف ) .. إذ أن مثل هذا المركز

ـ الذى يدر من الكسب ما يكفى لتهيئة معاش مناسب ، ولكنه لا يكفى لتكوين ثروة ـ كان كفيلا بأن يحد من طموحى ما تبقى لى من العمر ، وبأن يفسح لى فراغا شريفا لكى أرعى ميولى المتواضعة ، وبأن يستبقينى فى المحيط المناسب لى ، دون أن يتيح لى أسباب تجاوزه !.. فقد كانت موارد خيالى من الخصب بحيث تخلع جمالا على كل المهن والأعمال وما يحيط بها ، ومن القوة بحيث تنقلنى ـ إن صح هذا التعبير ـ من حال إلى حال ، وفق ارادتى . لذلك لم يكن للمركز الذى أجد نفسى فيه أى اعتبار مادى فى الواقع . وما كان أى مكان أوجد فيه ليبعد عن أولى تلاعى التى كنت أشيدها فى الهواء بمسافة تقعدنى عن أن ألوذ بقلعتى دون ما عناء !.. وترتب على هذا وحده أن أبسط مهنة ، المهنة التى تنطوى على أقل عناء ، والتى تتيح أكبر قدر من الحرية الفكرية ، هى التى كانت تروق لى أكثر من سواها .. وهكذا كانت مهنتى تماما !.. وكان من الممكن أن أقضى حياة هادئة وادعة ، كتلك التى تتطلبها ميولى ، فى أحضان عقيدتى ، ووطنى ، وأسرتى ، وأصدقائى .. وفى رتابة المهنة التى تلائم ذوقى ، وفى الرفقة المحببة إلى فؤادى .. كان من الممكن أن أكون مسيحيا طيبا ، ومواطنا طيبا ، وأبا طيبا لأسرة ، وصديقا طيبا ، وعاملا طيبا ، ورجلا طيبا فى كافة روابط الحياة .. وكان من الممكن أن أحب مركزى فى الحياة ، بل ولعلنى كنت أمجده .. وكان من الممكن بعد أن أقضى حياة بسيطة وخاملة مغمورة ، فى الواقع ـ أو فلأقل هادئة وقورا ـ

أن أموت بسلام ، فى أحضان أسرتى .. ومع أننى كنت خليقا بأن أغدو نسيا منسيا بعد قليـــل ـــ دون ما ريب ـــ إلا أننى كنت خليقا إذ ذاك بأن أجـــد من يحزن على ـــ على الأقل ـــ ما بقى على قيد الحياة واحد ممن يذكروننى !

أية صورة أوشك أن أرسمها ، بدلا من هذه ؟.. لنكف عن استباق شجون الحياة ، فسوف أشـــغل قرائى بما هو فوق الكفاية من الأسى !

# الكراسة الثانية

## ٤ ـ من سنة ١٧٢٨ إلى سنة ١٧٣١

بقدر ما بدت اللحظة ـ التى أوحى إلى فيهـا الخـوف بفكرة الفرار ـ حزينة ، فان اللحظة التى أقدمت فيهـا على تنفيذ الفكرة بدت بهيجة .. فقد كنت أهجر بلدى ، وأهلى ، وأسباب عيشى، ومواردى، وأنا بعد صغيرا !.. كنت انصرف عن حرفة ـ وأنا فى منتصف دراستها ـ دون ما معرفة كافية بها ، تمكننى من أن اكسب عيشى .. كنت أسلم نفسى لأهوال العوز ، دون أية وسيلة لإنقاذ نفسى منها !.. كنت أعرض نفسى ـ وأنا بعـد فى سن البراءة والضعف ـ لكل غوايات الرذيلة والقنوط .. كنت أنشد ـ فى البعد ـ العـذاب ، والخطأ ، والزلات ، والعبودية ، والموت تحت ربقة أشـد طغيانا من تلك التى لم أطق احتمالها !.. هذا ما كنت أوشك أن افعل ، وهـذا هو المستقبل المحتمل الذى كان يجب أن أقدره !.. فما أبعد هذا عن الخيال المزوق !.. كان الاستقلال الذى اعتقدت أننى اكتسبته ، هو الشعور الوحيد الذى أخذ يحركنى .. فقد اعتقدت أن بوسـعى ـ وأنا حر ، سـيد نفسى ـ ان افعل كل شىء ، وأن أحقق كل شىء ، وليس على سوى أن ادفع نفسى فاذا بى أرقى وأحلق فى الهواء !.. لقد دخلت الدنيا الواسعة وأنا عامر القلب بالشعور بالأمـان ، وبأن هذه الدنيا لن تلبث أن تنعم بصيت أعمالى ، وأننى سأجد فى كل خطوة احتفالات ، وكنوزا ، ومغامرات ، وأصدقاء على استعداد لأن يخدمونى ، وعشيقات تواقلت إلى إرضائى !..

فليس على سوى أن أظهر ، فأشغل بال الدنيا بأسرها .. ومع ذلك فلم أكن راغبا فى الدنيا كلها ، إذ كان بوسعى أن استغنى عنها ، إلى حد ما !.. كانت الرفقة اللطيفة تكفينى ، دون أن أضنى نفسى ببقية الدنيا .. كنت فى تواضعى قد قصرت نفسى على مجال ضيق ، مختار ، بهيج ، يكون سلطانى عليه أمرا محققا .. كان أقصى طموحى يتمثل فى نطاق غزو قلعة واحدة : فلو قدر لى أن أكون أثيرا لدى السيد والسيدة ، وحبيبا للابنة ، وصديقا للابن ، وحاميا للجيرة ، لقنعت .. فما كنت راغبا فى مزيد !

وفى ارتقاب هذا المستقبل المتواضع ، رحت أهيم حول المدينة لبضعة أيام ، متخذا مقامى لدى بعض فلاحين كنت أعرفهم . وقد استقبلونى فى كرم يفوق ما كان أى امرىء من سكان المدينة خليقا بأن يبذل لى ، فقد رحبوا بى ، وآووني ، وغذونى بكرم يفوق كل ما كنت استحق .. ولا سبيل إلى وصف عملهم بأنه « احسان » ، إذ انهم لم يكونوا يخلعونه على بترفع أو من .. وهكذا رحت أتنقل وأهيم على وجهى ، حتى بلغت ( كونفينيون ) ، بمنطقة ( سافوى ) ، على بعد فرسخين من ( جنيف ) . وكان مطرانها يدعى السيد « دى بونفير » ، وقد استرعى انتباهى هذا الاسم الذائع فى تاريخ الجمهورية ، وكنت تواقا لأن اشهد سلالة « فرسان الملعقة » (١) .

---

(١) كان هؤلاء الفرسان الكاثوليك من رعايا دوق سافوى ، وكانوا يؤلفون

وسعيت إلى السيد « دى بونفير » ، فتلقانى فى رفق ، وتحدث عن زنجقة (جنيف) ، وعن سلطان كنيسة الأم المقدسة ؛ ثم دعانى إلى العشاء . ولم أجد ما أرد به على حديث انتهى إلى هذه النتيجة ، بل اننى خرجت برأى أوحى إلى بأن المطارنة الذين يحظون بمثل هذا العشاء ، لا يقلون صلاحا عن كهنتنا . وكنت ـ يقينا ـ أكثر معرفة من السيد « دى بونفير » ، ولكنى كنت لا أقل صلاحية كضيف عنى كمتبحر فى علوم اللاهوت ؛ كما أن نبيذ « فرانجى » الذى قدم على المائدة ، والذى لاح لى بديعا ، كان موفقا فى كسب كل حجة إلى صف المطران ؛ فقد كان خليقا بى أن استحيى من أن أوقف فم مثل هذا المضيف العجيب عن الكلام .. ومن ثم فقد رحت أسلم بحججه ، أو ـ على الأقل ـ أحجم عن أن ابدى مقاومة صريحة . ولو أن أحدا راى ما كنت أبدى من حذر ، لخالنى مخادعا . ولكن هذا غير صحيح ، فمن المحقق اننى إنما كنت أصدر فى تصرفى عن ملاطفة عامة ، إذ أن المجاملة ولين الجانب ليسا من الرذائل دائما ، بل انهما كثيرا ما يكونان من الفضائل ؛ لا سيما لدى الشبان .. ذلك لأن الكرم الذى يعاملنا به اى شخص ، يقربه إلى قلوبنا ، فاذا ما جاريناه فى آرائه فلن يكون

---

= عصبة فى جنيف ، فى عهد الاصلاح ، وقد أطلق عليهم لقب « فرسان الملعقة » ، لأنهم كانوا يفخرون بأنهم « أكلوا أعداءهم بالملعقة » !.. ومن ثم فقد كانوا يحملون ملعقة مدلاة من الشرطة حول أعناقهم . وكان يرأسهم فارس من آل « دى بونفير » .

ذلك عن تملق ، بغيـــة استغلال كرمـــه ، وإنما هو تجنب لإغضابه ، أو لمقابلة حسنته بسيئة .. إذ ما الصالح الذى كان السيد دى بونفير يبتغيه من وراء استقبالى ، أو اكرامى ، أو محاولة اقناعى ؟.. لا شىء سوى مصلحتى انا . هكذا أنبأنى قلبى الشاب ، فهزنى عرفـــان الجميل ، وتوقير مثل هـــذا الكاهن الطيب . وكنت اشعر بتفوقى عليه فى المعرفة ، فلم أشأ أن اجازيه عن ضيافته بأن أذهله بهذا التفوق . ومن ثم لم يكن فى مسلكى شىء من النفاق ، فما فكرت قط فى ان أغير دينى ، بل إننى كنت أبعد ما اكون عن أن أروض نفسى سريعا على هذه الفكرة ، وما نظرت إليها إلا فى استنكار ساعد على ان يقصيها عنى أمدا طـــويلا . إنمـــا كانت كل رغبتى هى ان أتفادى اغضاب اولئك الذين كانوا يحسنون معاملتى سعيـــا منهم إلى تحويلى عن عقيدتى . كنت أبغى ان أنمى حســـن نواياهم ، وأن أدع لهم الأمل فى النجاح ، وذلك بأن أبدى لهم اننى اقل مناعة مما كنت فى الواقع . وكان مســـلكى فى ذلك يشبه تدلل النساء ذوات المكانة المحترمة ، اللائى يعرفن كيف يثرن آمالا تفوق ما يعتزمن أن يحققنه احيانا فى ســـبيل بلوغ مآربهن ، دون أن يجدن بشىء ، أو يتقيدن بوعد !

كان العقل ، والشفقة ، ومراعاة النظام، تتطلب من الناس أن ينقذونى من الدمار الذى كنت أهرع لملاقاته ، وإعادتى إلى أسرتى ، بدلا من معاونتى على طيشى ! هذا ما كان كل إنسان صالح صادق التقوى خليقا بأن يفعله ، أو يحاول فعله . ولكن السيد « دى بونفير » وإن كان رجلا طيبا ، إلا انه لم يكن ـــ

قطعا ـ بالرجـل التقى .. بل إنه كان ـ على النقيض ـ متعصبا ، لا يعرف عن التقوى سوى أنهـا عبادة الصور ، وترديد التسابيح .. كان من ذلك النـوع من المبشرين الذين لا يملك الواحد منهم أن يفكر فى شىء لمصلحة عقيدته ، افضل من كتابة الاتهامات ضـد قساوسة جنيف !.. وبدلا من أن يردنى إلى موطنى ، استغل الرغبة التى كنت أحس بهـا فى الفرار من هذا الموطن ، وعمل على أن يجعل العودة متعذرة على ، ولو شئتها !.. ومن المحتمل أن الطريق التى وجهنى إليها كانت كفيلة بأن توردنى موارد التعاسة ، أو أن تجعلنى امعة لا وزن له .. ولكنه لم يكن يتطلع إلى ذلك أو يحسب حسابه ، فما كان يرى أمامه سوى نفس انقذت من الكفر وردت إلى الكنيسة . وسواء اكنت شريفا أم وغدا ، فما قيمة ذلك ما دمت أذهب إلى القـداس ؟.. على أن المـرء يجب ألا يعتقد أن مثل هذا التفكير مستغرب لدى الكاثوليك ، بل إنه مألوف لدى كافة الاديان المتعصبة ، التى يعتبر الإيمان هو الشىء الرئيسى فيها ، وليس الأعمال !

وقال لى السيد دى بونفير : « إن الله يدعوك ، فاذهب إلى ( انيسى ) ، وهناك ستجد سيدة طيبة ، محسنة ، جعلها كرم الملك فى مركز يمكنها من إنقاذ الأرواح من الخطأ الذى نجت هى نفسها منه ! » . وكانت السيدة المقصودة هى « مدام دى فاران » ، التى اعتنقت الكاثوليكية حديثا ، والتى اضطرها القساوسة ـ فى الواقع ـ إلى أن تقتسم مع من كانوا يبيعون عقيدتهم من الدهماء ، معاشا قدره الف فرنك كانت تتلقاه من ملك سردينيا. وشعرت بهوان من جراء طلب المعونة من سيدة

طيبة محسنة ، فقد كنت جد تواق إلى أن أحصل على ما يفى بحاجاتى ، وليس إلى أن أحظى بصدقات !.. كما أن التفرغ للدين لم يكن يستهوينى . ومع ذلك فقد حملت نفسى ـ فى شىء من العناء ـ على أن أسعى إلى ( انيسى ) مدفوعا بالحاح السيد دى بونفير ، وبضغط الجوع ، وبمتعة الرحيل فى سبيل غاية محددة . وكان بوسعى أن أبلغ وجهتى فى يوم واحد ، ولكننى استغرقت فى سفرى ثلاثة أيام ، إذ لم أكن فى عجلة من أمرى . ولم أجرؤ ـ فى تلك الاثناء ـ على أن الج قصرا ، أو اقرع بابا ، فقد كنت بطبعى شديد الخجل . ولكنى كنت أغنى تحت النوافذ التى يراودنى الأمل فى أن يكون خلفها من يسمعنى . وكنت أصدم عندما أنهك رئتى بالجهد المتواصل ، ثم لا أرى سيدات ولا عذارى ينجذبن إلى صوتى أو معانى أغانى ، لا سيما وأننى كنت أعرف منظومات رائعة علمنيها زملائى ، وكنت أغنيها فى إلقاء لا يقل عن معانيها روعة !

ووصلت أخيرا ، فرأيت « مدام دى فاران » . ولقد حددت هذه الفترة من عمرى شخصيتى ، فلست اقوى على أن أحمل نفسى على المرور بها مرا سريعا .. كنت فى منتصف العام السادس عشر من عمرى ، وكنت بديع التكوين ، دون أن اكون ما يسمونه « فتى مليحا » .. كنت صغير القدم ، مستوى الساق ، رضى الخلق ، ذا قسمات معبرة ، وفم صغير بديع ، وشعر فاحم ، وحاجبين أسودين ، وعينين صغيرتين غائرتين قليلا ، ولكنهما ـ مع ذلك ـ كانتا ترسلان بقوة تلك النار التى كانت تتأجج فى دمى !.. على أننى ـ لسوء الحظ ـ لم اكن

أعرف شيئا عن ذلك ، فما خطر لى قط ـ خلال حياتى ـ أن أفكر فى مظهرى الشخصى ، اللهم إلا بعد أن فات أوان الإفادة منه !.. وكان الجبن المألوف فى مثل سنى هذه يرتبط بوجل ناشىء عن شخصية جبلت على الحب ، فهى دائما فى هم من خشية الإساءة إلى أحد . هذا إلى جانب أننى وإن أوتيت عقلا حسن التكوين ، نشىء على التسامح ، إلا أننى لم أكن قد رأيت الدنيا ، وكانت تعوزنى آداب السلوك .. وبدلا من أن تسد معرفتى هذا النقص ، فانهـا لم تؤد إلا إلى مضاعفة خجلى وجبنى ، إذ أظهرتنى على مدى حاجتى الماسة إلى هذه الآداب!

ومن ثم ، فان خوفى من أن يخفق مظهرى ـ فى أول لقاء مع مدام دى فاران ـ فى أن يكسب عطفها ، دفعنى إلى تجشم متاعب أخرى . فنظمت رسالة بديعة ، فى أسلوب خطابى ، خلطت فيها عبارات منتقاة من الكتب ، بتعبيرات مكتسبة من الزملاء العمال ، وكشفت عن كل بلاغتى ، لكى أكسب رضاء السيدة . وارفقت برسالتى خطاب السـيد دى بونفير ، ثم سعيت إلى المقابلة التى كنت أرهبهـا !.. ولم تكن مـدام دى فاران فى البيت ، بل قيل لى انهـا بارحتـه لتوها إلى الكنيسة ، إذ كان اليوم يوم أحد السعف من عـام ١٧٢٨ ، فهرعت فى أثرها ، ورأيتها ، فلحقت بهـا وخاطبتها . وخليق بى أن أذكر البقعة التى التقينا فيها ، فـكم رويتهـا بدمعى وغطيتها بقبلاتى ، منذ ذلك الحين ! وكم أتمنى أن أحيط هذه البقعة المباركة بسياج من ذهب . كم أود أن أجتلب إليهـا تمجيد العالم وخشوعه .. وخليق بكل من يحب تكريم ذكريات

خلاص النفوس البشرية ، الا يقترب منهـا إلا وهـو راكع على ركبتيه !

كانت تلك البقعة دربا يمتد خلف منزل السيدة ، ويصـل بين جدول ـ إلى اليمين ـ يفصل البيت عن الحديقة ، وسياج الفنـاء ـ إلى اليسـار ـ ويؤدى إلى باب خلفى لكنيسـة الفرنسيسكان(١) . وفى اللحظة التى همت فيها مدام دى فاران باجتياز هذا الباب ، سمعت صوتى ، فالتفتت خلفها . وكم اذهلنى منظرها !.. كنت قد تمثلتهـا عجوزا ، عابسـة ، متعصبة فى تدينها ـ فما كانت السيدة التقيـة التى تعـرف السيد دى بونفير لتعدو هذه الصورة ، فى رايى ! ـ بيد اننى رايت بدلا من هذه الصورة وجهـا يفيض بالسحر ، وعينين زرقـاوين جميلتين ـ مفعمتين رقة ـ وبشرة تبهر البصر ، ومعالم عنق فاتن .. لم يفلت شىء من النظرة السريعة التى القاها المريد الفتى ـ فقد غدوت منذ تلك اللحظة مريدا وتلميذا متعلقا بها ـ وقد داخلنى اقتناع بأن دينا يبشر به حواريون من قبيل هـذه السـيدة ، لابد وأن يقـود إلى الفردوس ! وتنـاولت منى المراة ، مبتسـمة ، الرسـالة التى قدمتها

---

(١) أصحاب الحبال : وهم أفراد طائفة دينية انشاها القديس فرانسيس الأسيسى فى سنة ١٢٢٣ . وقد أطلق هذا الاسم فيما بعد على جماعة أنشاها « دانتون » و « مارا » و « ديمولان » ـ زعماء الثورة الفرنسية ـ فى سنة ١٧٩٠ . وكانت تعقد اجتماعاتها فى دير الفرنسيسكان العتيق بباريس .

وفى اللحظة التى همت فيها مدام دى فاران باجتيـــاز
هـــذا البـــاب ، ســـمعت صوتى ، فالتفتت خلفها

إليهـا بيد مرتجفة ، ففضتهـا ، والقت نظـرة على ما كتب السيد دى بونفير ، ثم ارتدت إلى ما كتبتـه أنـا فقـرأته كله ، وهمت بأن تعيد قراءته لولا أن نبههـا خادمها إلى أن الوقت قد حان لتلج الكنيسة ، فقالت لى بلهجة هزت كيانى : « حسنا يا صغيرى .. إذن فأنت تهيم فى البلاد ، فى مثل هذه السن ؟.. إنه لأمر يستحق الرثاء حقا ! » .. ولم تنتظر حتى أجيب ، بل أردفت : « اذهب فانتظرنى ، وسلهم أن يقدموا لك فطورا .. ولسوف آتى بعد الصلاة لأتحدث إليك » .

كانت « لويز اليـونور دى فاران » شابة تنتمى إلى آل « لاتوردى بيل » ، وهى أسرة عريقـة ونبيلـة من أسرات ( فيفاى ) إحدى مدن مقاطعة ( فودن ) . وكانت قد تزوجت وهى جد صغيرة من السـيد دى فاران ـ من آل لويس ـ وكان الابن الأكبر للسيد دى فيلاردان ، من ( لوزان ) . ولم يكن هـذا الزواج ـ الذى لم يعقب ولدا ـ زواجا هنيئا ، فلم تلبث السيدة دى فاران ـ تحت تأثير حزن عائلى ـ أن انتهزت فرصة وجود الملك فيكتـور اماديو فى ( ايفيان ) ، فعبرت البحيرة ، والقت بنفسها عند قدمى هذا الأمير .. ومن ثم هجرت زوجها وأسرتها وبلادها ، فى ثورة حمقاء تشـبه ثورتى ! ـ وقد وجدت متسعا من الوقت بعد ذلك للندم ، كما فعلت أنا ـ وإذ كان الملك مشغوفا بأن يظهر بمظهر الكاثوليكى الغيور ، فانه أخذ السيدة تحت حمايته ، ووقف عليها معاشا

سنويا قدره ١٥٠٠ جنيه بييمونتى(١) .. وهو مبلغ كبير يعد إسرافا من أمير كان بطبعه غير ميال للسخاء .. على أنه علم بعد ذلك بما قيل ـ بسبب استقباله إياها ـ من أنه أحبها ؛ فما كان منه إلا أن أرسلها إلى ( انيسى ) فى حماية فصيلة من حرسه ، حيث نبذت العقيدة البروتستانتية فى دير ( الزيارة ) ، تحت إرشاد روحى من « ميشيل جابرييل دى برنيكس » ، الأسقف الأسمى لجنيف .

وكانت قد قضت ست سنوات فى ( انيسى ) عندما قدر لى أن أصل إليها ، وكانت وقتئذ فى الثامنة والعشرين من عمرها ، إذ ولدت فى بداية القرن . ولقد كان جمالها من النـوع الذى يبقى مع الزمن ، إذ أنه يقتـرن بالمحيـا أكثر منـه بالملامح والقسمات .. كما أنه كان ـ لديها ـ فى باكورة تألقه . فكان لها طابع لطيف ، حنون ، وشكل رقيق ، وابتسامة ملائكية ، وفم يشبه فمى ، وشعر أشهب خفيف نادر الجمال ، ترسله فى إهمال كان يكسبها مظهرا أخاذا . وكانت صغيرة القد ، بل أنها كانت قصيرة ، وإن لم يكن هذا يعيبها . على أنها أوتيت رأسا وصدرا ويدين وذراعين لا تملك العين أن تقع على أجمل منها .. ولقد كانت تربيتها جد عجيبة : كانت قد فقدت أمهـا عند مولدها ـ مثلى ـ وتلقت العلم فى غير انتظام ، كلما عن

---

(١) نسبة الى ولاية ( بييمونتى ) ـ وتكتب بالحروف اللاتينية ( بييد مونت ) ولكن التاء تغفل فى النطق ـ وتقع على حدود فرنسا وسويسرا ، فى الشمال الغربى لايطاليا .

لها أو صادفتها الفرصة .. فأخذت قدرا ضئيلا من مربيتها ، وقليلا من أبيها ، وقليلا من مدرسيها ، وحظا وافرا من عاشقيها ، لا سيما من شخص منهم يدعى السيد «دى تافيل» ، كان رجل ذوق وعلم ، فكان يزين المرأة التى تتجه إليها عواطفه بروائع معرفته . ولكن تعدد أنواع المعرفة المتباينة ـ بهذه الكثرة ـ جعل كلا منها يعرقل الآخر ! ولما كانت السيدة قد واصلت دراساتها دون ما نظام مرسوم ، فان إدراكها السليم ـ بطبعه ـ لم يصب أى تحسن . ومن ثم فانها ـ برغم إلمامها بشىء من أصول الفلسفة وعلم الطبيعة ـ ظلت تحتفظ بما كان لأبيها من ميل إلى الطب التجريبى(١) والكيمياء ، وكانت تحضر أنواع « الاكسير » والأصباغ ، والبلاسم ( المراهم ) ، والمساحيق السامية(٢) . وكانت تزعم انها تمتلك عقاقير سرية ! ولقد استغل مدعو الطب من الدجالين ضعفها . فتسلطوا عليها ، وأعنتوها ، وأفلسوها .. وبين البواتق والعقاقير بددوا ذكاءها ، ومواهبها ، ومفاتنها التى كانت خليقة بأن تبهر بها أرقى مجتمع !.. ومع ذلك ، فبالرغم من أن الأوغاد الخبثاء أساءوا استغلال تربيتها التى لم تلق التوجيه الصالح ، لكى يطفئوا ضياء عقلها ، إلا أن قلبها السامى صمد للمحنة ، وظل دائما على سموه .. وما تغيرت شخصيتها الودودة اللطيفة ، ولا عطفها على التعساء ، ولا طيبتها التى لم يكن لها حد ،

---

(١) الطب التجريبى هنا يقصد به ذلك الطب الذى تكتسب معرفته بالممارسة والتجربة ، وهو ما يعرف لدى العامة بطب « البركة » .

(٢) المساحيق السامية مساحيق كانت تعزى اليها ميزات عالية .

ولا خلقها البشوش ، الصريح ، المستقيم .. بل إنها حين عدا عليها الكبر ، وأحاطت بها الحاجة والعناء والمصائب من كل الانواع ، ظلت سجيتها الوادعة الجميلة ، محتفظة ـــ حتى نهاية عمرها ـــ بكل ما كان بها من بهجة فى أهنأ الأيام !

ولقد كانت أخطاؤها راجعة إلى معين لا ينضب من النشاط الذى كان فى حاجة مستمرة إلى شاغل . ولم تكن تبغى شيئا من الدس كما كانت تفعل غيرها من النساء ، وإنما كانت تبغى مشروعات تعنى بتوجيهها وتنفيذها . فلقد خلقت لتسهم فى الشئون الهامة . ولو أن « مدام دى لونجفيل » كانت فى مكانها لكانت مجرد دساسة تنصرف إلى المؤامرات .. أما هى ، فلو أنها كانت فى مكان مدام دى لونجفيل لحكمت الدولة وساست أمورها ! ولكن قدر لمواهبها أن تتوفر فى غير المجال الصالح لها ، فاذا هذه المواهب التى كانت خليقة بأن تجلب عليها الشهرة لو أنها كانت فى مركز أسمى ، تؤدى إلى دمارها وهى فى المركز الذى عاشت فيه !.. ذلك أنها كانت ـــ فى كل ما يقع فى مجال طاقتها العقلية ـــ ترسم خطتها مكبرة فى رأسها ، فترى غايتها مضخمة ، مما كان ينجم عنه استخدامها وسائل أكثر تناسبا مع آرائها منها مع قوتها .. ولقد أخفقت بفضل أخطاء غيرها . وعندما فشل مشروعها ، أفلست ولما يكد سواها يخسر شيئا !.. على أن هذا الشغف بالأعمال التجارية ـــ الذى أضر بها أبلغ الضرر ـــ كان عظيم النفع لها من ناحية أخرى فى عزلتها الرهبانية ، إذ حال بينها وبين البقاء فى هذه العزلة ما بقى من عمرها ، كما كانت تعتزم . فما كان

من المحتمل أن تليق حياة الراهبات المنتظمة المتقشفة ، ولا الثرثرة المنبعثة عن الخمول والكسل ، بعقل كان فى حركة مستمرة ، وكان يبتكر فى كل يوم نظما جديدة ، ويحتاج إلى الحرية ليكرس ذاته لهذه النظم !

وكان أسقف برنيكس الطيب يشبه «فرانسوا دى سال»(١) فى كثير من النواحى ، وإن لم يعد له مهارة .. كما أن مدام دى فاران ـ التى كان يدعوها بابنته ـ كانت تشبه « مدام دى شانتال »(٢) فى كثير من النواحى ، وكانت خليقة بأن تشبهها أيضا فى اعتزالها الناس ، لولا أن حياة الدير الخاملة كانت بغيضة إليها . ولم يكن عن نقص فى حمية هذه السيدة الطيبة أن عزفت عن تكريس نفسها للعبادات البسيطة التى تتطلبها الرهبنة ، والتى كانت تبدو ملائمة لمؤمنة حديثة عهد بالعقيدة ، تعيش تحت إرشاد أسقف .. فمهما يكن الباعث الذى اغراها على أن تبدل عقيدتها ، فانها كانت صادقة الإخلاص ـ عن يقين ـ للعقيدة الجديدة التى اعتنقتها . ومن المحتمل أن تكون قد ندمت على اقدامها على ذلك ، إلا أن من الأكيد انها لم ترغب قط فى النكوص، فهى لم تمت على مذهب الكثلكة فحسب ، بل انها برهنت خلال حياتها على انها كانت كاثوليكية صالحة . وإنى لأجرؤ ـ وأنا الذى يعتقد أنه قد

---

(١) أسقف جنيف ( ١٥٦٧ ـ ١٦٢٢ ) .

(٢) سيدة امتازت بتقواها ، وهى التى أسست نظام راهبات «الزيارة» ، وقد أثر رهبنها البابا كليمنت الثالث عشر .

اطلع على سريرتها ـ على أن أؤكد أن عزوفها عن أن تبدو في ثياب التقوى علانية إنما كان ناجما عن استبشاعها للتصنع . كانت تقواها على درجة من الصدق كانت تأبى معها أن تظهرها للملأ .. على أن هـذا ليس بمجال الحديث عن مبادئهـا ، فلسوف تسنح لي فرص أخرى للخوض فيها .

وعلى الذين ينكـرون تعـاطف الأرواح أن يفسروا ـ إن استطاعوا ـ كيف أن مدام دي فاران أوحت إلى منـذ اللقاء الأول ، بل منذ الكلمة الأولى ، والنظرة الأولى ، بثقة كاملة لم تكشف قط عما يكذبها ، فضلا عما أوحت إلى به من مشـاعر الولاء والتعلق ، ولـو سـلمنا بأن أحاسيسي نحـوها كانت حبـا حقيقيـا ـ وهـو ما سـيبدو موضـع شـك ، على الأقـل ، لأولئك الذين يتتبعـون تاريـخ علاقتنـا ـ فكيف تسنى أن يكون هذا الحب منذ بدايته مقترنا بمشـاعر قل أن أوحى بها الهـوى ـ واعني بذلك طمأنينـة القلب ، والسكينة ، والسرور ، والثقة ، والاعتداد ؟ ـ كيف تسـنى أنني عنـد ما سعيت لأول مـرة إلى امرأة لطيفة ، مهذبة ، ذات جمال باهر .. إلى سـيدة أرفع مني مقاما ـ وما كنت قد خاطبت يوما مثيلة لها ـ وكان مصيري، بطريقة ما ، يتوقف عليها ، وفقا لمدى ما قد تستشعره من ميـل للأخذ بيدي .. أقول : كيف تسنى ـ رغم كل هذا ـ أن أشعر لفورى بانطلاق، وبارتياح تام ، وكأنني كنت واثقا كل الثقـة من أنني سأروق لها ؟.. كيف تسنى أنني لم أحس ـ ولو للحظة واحدة ـ بأية حيرة ، أو ارتباك ، أو تحرج ؟.. لقد كنت بطبيعتي خجولا ،

سهل الاضطراب ، لا أعرف شيئا من الدنيا ، فكيف تسنى لى منذ اليوم الأول ، بل اللحظة الأولى ، أن أتخذ معها المسلك السهل ، واللغة الرقيقة ، واللهجة الأليفة التى سادت بيننا بعد ذلك بعشر سنوات ، عند ما جعل الود الوثيق هذه الأمور طبيعية ؟.. فهل من المحتمل أن يحب المرء بدون غيرة ـ ولست اقول بدون رغبات، فان هذه كانت متوفرة لدى ! ـ أفلا يرغب المرء فى أن يعرف على الأقل ، من هدف عواطفه ، ما إذا كان حبه يقابل بحب مثله أم لا ؟.. الواقع أنه ما خطر لى فى حياتى أن أوجه إليها هذا السؤال ، ولا أن أسأل نفسى ما إذا كنت قد احببتها !.. كما أنها لم تبد فضولا نحوى من هذا القبيل . كان ثمة شيء فذ فى مشاعرى نحو هذه المرأة الساحرة ، ولسوف يصادف القارىء ـ فى سياق حكايتى ـ عجائب غير مرتقبة !

كان الموضوع يتعلق بما سوف يصير إليه أمرى ، وقد استبقتنى السيدة للغداء كى نتحدث بشأن مستقبلى . وكانت تلك أول مرة فى حياتى تخلت عنى فيها شهيتى ، حتى لقد قالت وصيفة السيدة ـ التى قامت بخدمتنا على المائدة ـ إننى كنت أول قادم من سفر ، فى مثل سنى وطبقتى ، رأته فى مثل هذه الحال . ومع أن هذه الملاحظة لم تنل منى فى نظر سيدتها ، إلا انها أصابت مرمى فى نفس طفيلى كبير كان يتناول الغداء معنا ، وكان قد التهم وحده ما يكفى ستة أفراد! أما أنا ، فقد كنت فى حال من النشوة العاطفية لم تكن تدع لى سبيلا إلى الأكل . كان قلبى يتغذى من شعور جديد على كل الجدة ، وقد ملأ كل كيانى ، ولم يدع بنفسى ميلا إلى اى شيء آخر !

ورغبت مدام دى فاران فى أن تعرف دقائق تاريخ حياتى القصيرة ، فاستعدت وأنا أرويها كل ما فقدت خلال تتلمذى فى الحرفة من حماسة ومرح . وكنت كلما استثرت اهتمام تلك الروح السامية ، ازدادت هى إشفاقا على مما اعتزمت أن أعرض حياتى له . ولم تجرؤ على أن تنصحنى بالعودة إلى جنيف ، فقد كان ذلك ـ بالنسبة لموقفى ـ عملا ينطوى على خيانة للعقيدة الكاثوليكية ، كما أنها كانت تعرف تمام المعرفة كيف أنها كانت محوطة بالرقابة ، وكيف أن كلماتها كانت توزن بميزان دقيق . على أنها حدثتنى بلهجة مؤثرة عن أسى أبى ، حتى لقد كان من السهل أن يرى المرء أنها كانت تحبذ عودتى كى أواسيه . ولم تكن تدرى كيف أنها كانت تترافع بقوة ضد نفسها ، دون أن تدرى . إذ أظننى قد قلت من قبل إن عقلى كان قد استقر على قرار ، فكنت كلما ازدادت كلمات السيدة ذلاقة واقناعا ، وكلما ازدادت تغلغلا فى فؤادى ، ازددت عجزا عن أن أفكر فى الانفصال عنها ! كنت اشعر بأن العودة إلى جنيف بمثابة إقامة عوائق لا سبيل إلى تذليلها بينى وبين هذه السيدة ، ما لم اتشبث بهذه الخطوة التى اتخذتها . ومن ثم ظللت صامدا فى موقفى . وإذ رأت مدام دى فاران أن جهودها غير مجدية ، لم تمعن فى الالحاح ، حتى تتفادى إحراج نفسها ، بيد أنها قالت لى وهى ترمقنى فى إشفاق : « أيها الصغير البائس ، يجب أن تذهب إلى حيث يدعوك الله ، ولكنك ستتذكر حديثى عندما تكبر ! » .. واعتقد أنها لم تكن تتصور إذ ذاك مدى القسوة التى قدر لهذه النبوءة أن تتحقق بها !

وكانت المشكلة عسيرة . وكيف كان بوسعى ـ وانا فى مثل تلك السن الصغيرة ـ أن أجد موردا للعيش بعيدا عن وطنى؟ .. كنت جد بعيد عن أن أتقن حرفتى وانا لم اكد أتم نصف فترة التعلم والمران .. حتى لو أننى كنت اتقنها ، فقد كنت خليقا بأن أعجز عن كسب قوتى منها فى إقليم ( سافوى ) ، لأن الإقليم كان أفقر من أن يجد ما ينفقه على الفنون .. على أن الطفيلى الذى كان يلتهم الأكل ـ نيابة عن السيدة وعنى ـ وجد نفسه مضطرا إلى التوقف كى يريح فكيه ، فانتهز الفرصة وقدم اقتراحا قال إنه مستلهم من السماء ، وإن كان خليقا ـ إذا حكمنا عليه بنتائجه ـ بأن يكون مستلهما من مكان آخر مضاد للسماء . وكان الاقتراح يوحى بأن أذهب إلى ( تورين ) حيث أجد عونا روحيا وبدنيا فى دار للضيافة اقيمت للوعظ والتعليم الدينى ، إلى أن يتاح لى أن انضوى تحت لواء الكنيسة ، فاستطيع أن أحصل على عمل بفضل أريحية المحسنين . واستطرد صاحبى قائلا : « أما نفقات رحلته ، فان سيادة الاسقف سيتكرم بلا شك بتوفيرها ، إذا اقترحت السيدة هذا العمل الخيرى عليه. ولا مراء كذلك فى أن السيدة « البارونة » وتابع قوله وهو ينحنى على طبقه : « وهى جد محسنة ، ستتوق هى الأخرى إلى المساهمة » . ووجدت فكرة الاحسان بهذا الشكل جد بغيضة ، فأثقل الألم قلبى ولم انبس ببنت شفة . أما مدام دى فاران ، فقد اكتفت بأن قالت ـ دون أن تتحمس فى قبول الاقتراح ـ إن كل إنسان جدير بأن يصنع الخير بقدر ما فى وسعه ، وانها على استعداد لأن تتحدث إلى الأسقف بهذا الصدد . ولكن صاحبنا اللعين ، الذى لم يكن له

فى الأمر شـــأن يذكر ، والذى كان يخشى ألا تتحدث السيدة إلى الأسقف بالطريقة التى كان يرجوها ، سارع إلى دعـــوة المحسنين ، وبذل جهده فى إقناع القساوسة ببراعة .. فلما رغبت مدام دى فاران ـــ التى كانت تخشى على من الرحلة ـــ فى الحديث إلى الأسقف عنها ، وجدت أن كل شىء قد دبر . واسلمها الرجل لفوره النقود التى خصصـــت لنفقات رحلتى المتواضعة ، فلم تجسر على الالحاح فى بقائى ، إذ كنت اقترب من السن التى لا يليق عندها بامراة فى عمر السيدة أن تعبر عن رغبتها فى استبقاء شاب معها !

واضطررت ـــ بعد إذ دبرت رحلتى بهـــذا الشكل ـــ إلى الانصياع ، بل اننى اقدمت على الرحلة دون إحجام . ومع ان ( تورين ) كانت أبعد من ( جنيف ) ـــ كما قدرت ـــ إلا انها ، كعاصمة للاقليم ، كانت أوثق اتصالا بانيسى من اية بلدة تابعة لعقيدة مختلفة ، وفى أرض اجنبيـــة . وإلى جانب اننى كنت مقدما على الرحيل إطاعة لمدام دى فاران ، فاننى اعتبرت نفسى باقيا تحت رعايتها ، فكان هذا اهم عنـــدى من أن اقيم على مقربة منها . ثم فكرة الانطلاق فى رحلة طويلة اثارت شغفى بالتجوال والترحال ، وهو شغف كان قد بدأ يعلن عن نفسه ، وبدا لى أن من التجارب البديعة ان اعبر الجبال ـــ وانا فى تلك السن ـــ وان ارفع نفسى عن كل رفاقى بقدر ارتفاع جبـــال ( الألب ) .. إن فى مشاهدة مختلف الأقطار لسحرا لا يكاد أى امرىء من ابناء ( جنيف ) يقوى على مقاومته . ومن ثم فقـــد قبلت الرحيل . وكان ذلك الطفيلى مزمعا أن يسافر مع زوجته

خلال يومين ، فعهدوا بى إلى رعايته ، كمـا عهدوا بنقـودى ـ التى ضاعفتها مدام دى فاران ـ إليه . على أنها منحتنى كذلك مبلغا بسيطا لمصروفى الخاص ، وزودتنى بنصحها .. وفى يوم الأربعاء من « أسبوع الآلام » ، بدأنا سفرنا .

* * *

وفى اليوم التالى لرحيلى ، وصل أبى إلى ( أنيسى ) ـ متعقبا اثرى ـ مع صديقه السيد ريفال، وهو ساعاتى مثله ، موهوب بل مشحوذ الذكاء ، كان ينظم اشعارا تفوق اشعار «لاموت» ولم يكن يقل ابداعا للكلام عنه بالشعر ، فضـلا عن انه كان طيبا فى كل ناحية . بيد أن ميله للأدب ـ فى غير مجاله ـ لم يجد عليـه من الثمار سـوى دفع أحـد أبنائه إلى اعتـلاء المسرح !.. ولقد قابل السيدان ـ أبى وصاحبه ـ مدام دى فاران ، واكتفيـا بأن رثيـا لحظى ، بدلا من ان يتبعـانى ويستردانى ، وهو أمر كان من اليسير عليهما أداؤه ، إذ انهما كانا يمتطيان جوادين ، فى حين أننى كنت أسير على قدمى ! ولقد حذا خالى « برنار » حذوهما ، فوصل إلى ( كونفينيون ) ، ثم ارتد إلى ( جنيف ) بعد أن سمع أننى كنت فى ( انيسى ) .. وكأنما كان أهلى متحالفين مع نجمى المنحوس على أن يسلمونى إلى المصير الذى كان يرتقبنى . ولقد ضاع أخى بفضل إهمال شبيه بهـذا ، وكان ضياعه شـبه نهائى ، حتى أن أحدا لم يعرف قط ما جرى له !

وما كان أبى رجلا شريفا فحسب ، وإنما كان ذا استقامة مشهود بها ، وقد أوتى نفسا من تلك النفوس القوية القادرة

على جليل الفضائل . وكان فضلا عن ذلك أبا صالحا ؛ لاسيما بالنسبة لى . فقد كان يحبنى ويخصنى بحنان فياض ، ولكنه كان يحب مسراته كذلك ، وقد اكتسب ـ منذ أصبحت أعيش بعيدا عنه ـ ميولا أخرى أحالت عاطفته الأبوية فاترة بعض الشىء . وكان قد تزوج مرة أخرى فى ( نيون ) ، ومع أن زوجته لم تكن فى سن تمكنها من أن تمنحنى أخوة ، إلا أنها كانت ذات أقارب وأهل ، مما خلق لأبى أسرة جديدة ، وأهدافا جديدة ، ووسطا جديدا ، فلم يعد يكثر من استعادة ذكراى .. وكان قد اكتهل ، وليس لديه ما يعيش عليه ، ولكنى وأخى كنا قد ورثنا عن أمنا ثروة بسيطة ، كان من حق أبى أن يحصل على ريعها فى غيابنا . ولم تواته هذه الفكرة مباشرة ، ولا هى حالت بينه وبين أداء واجبه ، ولكنها كانت تتغلغل خفية فى نفسه ، دون أن يفطن إليها ! وقد خففت ـ فى بعض الأحيان ـ من تحمسه الذى كان خليقا بأن يدفعه إلى الانطلاق فى تعقب أثرى ، كما حدث عقب رحيلى عن ( انيسى ) . وهذا ـ فيما أعتقد ـ هو السر فى أنه ، وإن كان قد سعى إلى ( انيسى ) للبحث عنى فى الواقع ، فانه لم يتبعنى إلى ( شامبيرى ) ، حيث كان حريا بأن يعثر على ولابد . وكان هذا هو السر كذلك فى أنه كان يستقبلنى عندما أزوره ـ كما صرت أفعل كثيرا بعد فرارى ـ بعناقات الأب وقبلاته ، ولكن .. دون أن يبذل أى جهد صادق لاستبقائى معه !

على أن هذا التصرف من جانب أبى ـ الذى كنت أعرف حنانه واستقامته تمام المعرفة ـ قادنى إلى تأملات فى حالى ،

ساهمت بدرجة غير طفيفة فى استبقاء قلبى سليما . فمنهما استنتجت الدرس الاخلاقى العظيم ، الذى قد يكون الدرس الأوحد ذا القيمة العملية : تفادى تلك المواقف التى تعترض الحياة ، والتى تدفع واجباتنا إلى التضارب مع مصالحنا ، والتى تبصرنا بما قد يكون لنا من نفع فى مصائب الغير . . فمن المؤكد ـ فى مثل هذه المواقف ـ أنه مهما يكن حبنا للفضيلة صادقا ، فلابد من أنه سيأخذ فى الضعف ، دون أن ننتبه إلى ذلك ـ إن عاجلا أو آجلا ـ حتى يصبح ظالما ، شديدا فى تصرفاته ، وإن لم يكف عن أن يظل منصفا طيبا فى أعماق قلوبنا !

هذا المبدأ الذي انطبع فى قرارة فؤادى ، والذى هدانى ـ وإن جاءت هدايته متأخرة ـ فى كل مسلكى فى الواقع ، هو أحد المبادىء التى جعلتنى أبدو مخلوقا شديد الغرابة والحماقة فى نظر العالم ، وفى نظر معارفى قبل سواهم ! ولقد عيب على اننى أحاول أن اظهر فذا ، مغايرا لكل من عداي ، والحقيقة هى أننى لم أجشم نفسى قط عناء التصرف على شاكلة غيرى من الناس ، أو على نقيضهم ، وإنما كنت أتوق مخلصا إلى أن افعل ما كنت أراه صوابا . فكنت ابتعد ـ بقدر ما فى وسعى ـ عن المواقف التى تجعل مصالحى متعارضة مع مصالح الغير ، والتى قد توحى إلى ـ من جراء ذلك ـ برغبة خفية فى إيذاء الغير ، ولو دون إرادة منى !.. ولقد أراد سيدى اللورد مارشال أن يثبت اسمى فى وصيته ـ منذ عامين ـ فعارضت ذلك بشدة ، وقلت له إننى لا أبغض

شيئا فى الدنيا ، قدر أن أعلم أن اسمى مثبت فى وصية أحـد ، وفى وصيته هو بالذات . ولقد نزل أخيرا عن رغبته ؛ ولكنه أصر على أن يمنحنى معاشا مدى الحيـاة ، فلم أعارض . ولسوف يقال إننى كسبت بهذا التعديل ، وهو قول قد يكون صحيحا ، ولكن .. أواه أيها الأب وأيهـا المحسن !.. إننى لأوقن بأنه إذا قدر لى ـ لتعاستى ـ أن أعيش بعدك ، فاننى سأفقد بفقدانك كل شىء ، ولن اكسب شيئا !

هذه ـ فى رأيى ـ هى الفلسـفة الحقة ، بل الفلسـفة الوحيدة التى تناسب القلب البشرى فى الواقع . وإنى لأزداد فى كل يوم تأثرا بمتانتها وثباتها ، حتى أننى عرضتها ـ تحت أضواء متعددة ـ فى كتاباتى الحديثة ، ولكن الجمهور سطحى الإدراك ، لا يعنى إلا بالقشور ، فلم يدر كيف يستوعبهـا . ولو قدر لى أن أعيش ، بعد أن أفـرغ من مهمتى الحاضرة ، حتى اضطلع بمهمـة جديدة ، فاننى اعتزم ان أقـدم ـ على غرار ما فعلت فى «اميل»(١) ـ مثالا جذابا رائعا لهذه الفلسفة ، يضطر القارىء إلى أن يعنى به . ولكن .. لنكتف بهذا القدر من تأملات المسافر ، فقد آن لنا أن نواصل الرحلة !

* * *

وجدت الرحلة أبدع مما توقعت ، ولم يكن مرافقى الطفيلى من السماجة بالقـدر الذى كان يلـوح عليـه : كان رجـلا

---

(١) يقصد بهذه الاشارة ما أورده فى الخطاب العشرين ، بالجزء الثالث من قصته الطويلة « هولويز الجديدة » .

فى أواسط العمر ، له شعر أسود بدأ الشيب يدب فى حوافه ، وقد بدا كجندى من قاذفى القنابل ، وأوتى صوتا جهوريا .. وكان عارم البشاشة ، يغـذ فى سـيره ، ويسرف فى أكله ، ويمارس كافة أنواع الحرف ، دون أن يجيد شـيئا منهـا . واعتقد انه كان يزمع إنشاء مصنع ما فى ( انيسى ) ، ولم تتخل مدام دى فاران عن تحبيذ فكرته ، وكان لابد له ـ كي يقدم على المحاولة ـ من الحصول على موافقة الوزير ، ولهذا كان فى طريقه إلى ( تورين ) ، مزودا بالمـال . وكان صديقنا هـذا ذا براعة فى الدس والتآمر ، حريصا دائما على ان يتقرب إلى رجال الدين ، وبينما كان يبدى تلهفا عظيما على اداء الخدمات لهم ، استطاع أن يقتبس عن مدرستهم أسلوبا وذلاقة ورعتين كان لا يفتأ يستغلهما مباهيا بأنه واعظ كبير .. بل إنه استطاع أن يحفظ آية من التوراة باللاتينية ، كان لا يكف عن ترديدها الف مرة فى اليوم ، فيبدو وكأنه يعرف الفـا منها !.. ونادرا ما كان يعوزه المال إذا ما عرف أن لدى سواه نقودا .. كان بارعا أكثر منه أناقا ، وكان عندما يردد « كابوشينياته »(١) بلهجة ضـابط تدريب المجنـدين ، يشبه الراهب بطرس(٢) عندما كان يدعو إلى الحرب الصليبية ، ملقيا خطبه الدينيـة وهو ممسك بسيف !.. أما زوجتـه ـ السيدة سابران ـ

---

(١) خطب وعظات دينية غلة ، كتلك التى كان يلقيها الرهبان «الكابوشان» .

(٢) يعتبر بطرس الراهب أهم محرض على شن الحملة الصليبية الأولى ، وكان يطوف بقرى أوربا على ظهر بغلة ، ويخطب فى الناس ممسكا صليبا ، ويتخذ من الغيرة الدينية وسيلة لتحريك الأحقاد .

فكانت امراة طيبة ، أهدأ بالنهار منها بالليل . ولما كنت أنام فى حجرتهما ، فان نومها الصاخب كثيرا ما كان يوقظنى ، وكان خليقا بأن يستبقينى ساهرا لو اننى علمت سببه ؛ ولكنى لم اشعر بأتفه ريب ، وقد أدى غبائى فى هذه الناحية إلى وقوع عبء تعليمى على الطبيعة وحدها !

ومضيت فى رحلتى مع مرافقى التقى وزميلته الصاخبة ؛ دون أن تعكر صفو سفرى أية بادرة . كنت أسعد . بدنيا وذهنيا ، مما كنت طيلة عمرى . كنت فتى قويا ، موفور الصحة ، خلوا من الهم ، مفعما بالثقة فى نفسى وفى الغير . كنت استمتع بتلك الفترة الغالية ـ برغم قصرها ـ من الحياة .. اللحظة التى تنبسط فيها الحياة على سعتها ، فتضخم من شعورنا بكل حواسنا وأحاسيسنا ، وتجعل الطبيعة فى أبصارنا ، إذ تبديها تحت سحر وجودنا !.. وكان قلبى البهيج يخضع لهدف يقيد من حدته ، ويسكن من خيالى . كنت انظر إلى نفسى كصنيعة وتلميذ وصديق ، بل وحبيب ـ تقريبا ـ لمدام دى فاران . كانت الأمور المؤدبة التى حدثتنى بها ، واللطف البسيط الذى خصتنى به ، والاهتمام الحنون الذى لاح انها أولتنيه ، ، ونظراتها الودية التى بدت لى وكأنها مليئة بالحب ـ إذ انها كانت تلهمنى هذا الشعور ! ـ كل هذه الأمور شغلت أفكارى خلال الرحلة ، وأغرقتنى فى أحلام لذيذة لم يكن يعكرها أى خوف أو شك بشأن مستقبلى . فقد رأيت انهم ـ إذ أوفدونى إلى تورين قد تكفلوا بأن يعولونى هناك ، وأن يحصلوا لى على مركز مناسب . لذلك شعرت بأننى فى

غير حاجة إلى أن أحمل هم نفسى بعد ذلك ، فقد حمله عنى سواى . ومن ثم مضيت فى سفرى بخطى خفيفة بعد أن تخلصت من هذا العبء . كان كل شىء يلوح لى وكأنه يعزز سعادتى المبكرة . وكنت بين الجدران أصور لنفسى المآدب والحفاوات الريفية .. وفى المروج أصور لنفسى الألعاب الخشنة .. وعلى ضفاف الأنهار : السباحة والنزهات وصيد السمك .. وفوق الشجر : الفواكه الشهية .. وتحت ظلالها : الخلوات العاشقة .. وعلى الجبال : دلاء مترعة باللبن والقشدة ، وخمول حبيب وسكينة وبساطة ، ومتعة الانطلاق دون ما غاية !.. وقصارى القول أنه لم يكن ثمة ما يصادف بصرى دون أن يبعث فى فؤادى شيئا من الافتتان الممتع !.. كانت فخامة المناظر المحيطة بى ، وتنوعها ، وجمالها الحقيقى ، تجعل تلك الفتنة أهلا للتدبر والتأمل . بل إن الغرور كان يطالب لنفسه بنصيب فى ذلك ، فقد لاح لى شرفا يفوق ما يؤهلنى له عمرى أن أزور إيطاليا ـ وأنا لا أزال صغيرا ـ وأن أرى مثل هذا القدر من الدنيا ، وأن أقفو أثر « هانيبال » عبر الجبال !.. وكنا ـ إلى جانب ذلك ـ كثيرا ما نقف بالفنادق الريفية الجيدة . وكانت شهيتى متفتحة للأكل ، كما كان إرضاؤها متوفرا بكثرة . والواقع أننى لم أجد داعيا لأن أحرم نفسى شيئا ، لاسيما وأن وجباتى لم تكن بالشىء الذى يذكر إذا قورنت بوجبات السيد سابران !

ولست أذكر خلال حياتى كلها وقتا حظيت فيه بتحرر تام من الهم والقلق كما تحررت فى الأيام السبعة أو الثمانية التى

استغرقتهـا رحلتنـا ! فان مقدرة السـيدة سابران على السير ـ وهى المعدل الذى كنا مضطرين إلى أن ننظم خطانا وفقا له ـ جعلت الرحلة تجاوز نزهة طويلة على الأقدام ! ولقد خلفت لى ذكرى هذه المناسبة ميـلا شديدا إلى كل شىء كان مرتبطا بها لا سيما الجبال والسير على الأقدام . فما سبق لى ، فى الأيام السالفة من عمرى ، أن سافرت على قدمى .. فضلا عن أن سفرى هذا كان مقترنا بأعظم المسرات ، ذلك لأن الواجبات والأعمال وكثرة الأمتعة ، اضطرتنى فيما بعد إلى أن اتخذ دور السيد الراقى ، وأن استقل عربة فى أسفارى . كما أن الهموم والارتباكات والشواغل المضة لم تلبث أن تسربت إلى ، فغدا كل همى فى رحلاتى متجها إلى بلوغ غايتى ، بعد أن كنت لا أكترث بشىء سوى الاستمتاع بالسفر !.. ولقد قضيت وقتا طويلا أحاول أن أعثر على رفيقين أوتيا مثل ميولى بحيث يقبلان أن ينفقـا خمسين « لوى »(١) من مالهمـا ، وعاما من وقتهما ، فى الترحال معى على الاقدام ، لنجوس خلال إيطاليا ، دون أن نصحب معنا سوى غلام واحد يحمل حقائبنا . ولقد بدا على الكثيرين الافتتان بالفكرة ، ولكنهم لم يكونوا يرونها ـ فى الواقع ـ أكثر من وهم يطيب الحديث عنه ، دون أى تفكير فى تنفيذه ! وإنى لأذكر أن « ديديرو » و « جريم » ـ اللذين ناقشت معهما الفكرة بحماس ذات مرة ـ قد تحمسا لهـا فى النهاية ، فخيل إلى أن الأمر قد استقر ، ولكنه انتهى إلى أن قمنا برحلة على الورق ، لم يجـد فيها « جريم » من السرور

---

(١) « اللوى » عملة فرنسية قديمة كانت تساوى عشرين فرنكا .

أكثر من أن يجعـل « ديديرو » يرتكب عـددا من الأخطـاء الإلحادية ، ثم يسلمنى إلى التحقيق بدلا منه ! (١) .

* * *

لم يخفف من أسفى لسرعة الوصول إلى ( تورين ) سوى سرورى برؤية مدينة كبيرة ، والأمل فى أن يقدر لى أن أقـوم بدور يليق بشخصى ، إذ كانت أبخرة الطموح قد بدأت تتصاعد فى مخى ، وأصبحت أرى أننى قد سموت — إلى ما لا نهاية — فوق حالى السابقة أيام كنت أتتلمذ للحرفة .. وكنت أبعـد من أن أظن — مجرد ظن — أنه قد كتب لى أن أهوى ، فى أمد وجيز ، إلى ما دون تلك الحـال !.. على أن من واجبى أن أسأل القارىء الصفح ، أو أن أبرر له — قبـل أن أمضى فى قصتى — تلك التفصيلات التافهـة التى خضتهـا ، أو التى سأخوضها فى سياق القصة ، والتى قد تبدو فى نظره عديمة القيمة .. فان المهمة التى آليتها على نفسى — إذ وعدت بأن اكشف نفسى للملأ على حقيقتها ، دون ما تحفظ — تتطلب عدم إبقاء شىء يتعلق بى فى طى الإبهام أو الخفاء ، وأن أدع نفسى تحت أبصار الملأ باستمرار ، حتى يصحبونى فى كل هفوات قلبى ، وفى كل الأركان الخفية فى حياتى ، فلا أغيب عن أعينهم لحظة واحدة ، خشية أن يتساءلوا لو أنهم عثروا فى روايتى على أضأل ثغرة ، أو أتفه فراغ : « ما الذى كان يفعله خلال

---

(١) يقصد روسو أن الرحلة لم تخرج عن نطاق الورق والقلم والانطلاق فى الخيال ، بحيث غدت قصة وهمية .

ذلك ؟ » .. فلا يلبثون أن يتهمونى بأننى غير راغب فى أن افضى بكل شىء . وأن ما اكتبه ليعرضنى لغضب الجنس البشرى بما فيه الكفاية ، دون ما حاجة لأن أعرض نفسى — بصمتى — لمزيد !

وكان مصروفى الخاص الضئيل قد نفد ، إذ كنت فى ثرثرتى قد تحدثت عنه ، فلم يتوان مرشداى عن استغلال عدم حرصى ، واستطاعت مدام سابران أن تحصل منى على كل ما كان معى .. حتى على قطعة صغيرة من شريط مكسو بالفضة كانت مدام دى فاران قد منحتنيها لأزين بها سيفى الصغير . وكانت حسرتى عليها أشد منها على أى شىء آخر . بل إن السيف ذاته كان خليقا بأن يبقى فى حوزتهما لو أننى تهاونت فى مقاومتى . ولقد تكفلا بنفقاتى — فى أثناء الرحلة — بأمانة ، ولكنهما لم يدعا لى فى الوقت ذاته شيئا .. فبلغت ( تورين ) بلا ثياب ولا مال ولا متاع ، وغدوت مضطرا إلى أن أدع لمواهبى وحدها شرف الحظ الذى كنت أرجو أن أحظى به !

وكنت مزودا ببعض خطابات قدمتها ، فسرعان ما اقتدت إلى نزل الوعاظ ، حيث بدأت أتعلم الدين الذى كان على أن أكسب به عيشى !.. ورأيت عند وصولى بابا ضخما ذا قضبان حديدية ، أغلق خلفى — وأحكم رتاجه — بمجرد أن اجتزته . وبدت لى هذه المقدمة منفرة أكثر منها مقبولة . وكانت قد بدأت تغذينى بالخواطر عندما اقتدت إلى غرفة رحبة الجوانب ، كان كل أثاثها عبارة عن هيكل خشبى يعلوه صليب كبير — فى نهاية الحجرة — وقد قامت أمامه أربعة أو خمسة مقاعد صنعت

هى الأخرى من الخشب ، ولاحت كأنها مصقولة خصيصا ، فى حين أنها إنمـا كانت تلمع من كثـرة الاسـتعمال والمسـح والاحتكاك . وفى هذه الحجرة المخصصة للاجتماعات : كان ثمـة أربعة او خمسة من الأشرار الرهيبين .. أولئك كانوا رفاقا من الطلبة الذين لاحوا لى وكأنهم من الزبانية وليسوا من الطامعين فى شرف أن يصبحوا أبناء للرب . وكان اثنـان من هؤلاء الأوغاد من « السلافيين » الذين يزعمون أنهم من اليهود أو المراكشيين ، وقد اعترفا لى بأنهمـا قضـيا عمريهما فى التجوال فى ربوع اسبانيا وإيطـاليا ، وانهمـا كانا يعتنقان المسيحية من آن لآخر ويتقدمان كى يعمدا أينما كان يحلو لهما أن يقضيا بعض الوقت !

وما لبث أن فتح باب حديدى آخر ، فشطر شرفة رحبـة تمتد بطول الفناء . وأقبلت خلال هذا الباب أخواتنا . كن من التلميذات اللائى قدر لهن ـ كمـا قدر لى ـ أن يولدن من جديد ، لا عن طريق التعميد ، وإنمـا عن طريق نبذ عقيدتهن السابقة . وكن حقا أعظم أفاقات وأبشع متشردات تطخن زمرة رعايا الرب . على أن واحدة منهن فقط لاحت لى جميلة وجذابة ، وكانت فى حوالى عمـرى ، أو ربمـا كانت تكبرنى بعامين أو ثلاثة . وقد أوتيت عينين جريئتين أخذتا تلتقيـان بعينى أحيانا ، فألهمنى هذا برغبة فى التعـرف بهـا ، ولكنى وجدت خلال الشهرين اللذين قضتهما فى النزل بعد وصولى ـ وكانت قد مكثت ثلاثة أشـهر قبلهما ـ أن من المسـتحيل إطلاقا أن أتحدث إليها ، فقد كانت حارسة سجننا العجـوز

مأمورة بأن تشتد فى رعايتها ، كما كانت تحت رقابة دقيقة من المبشر الدينى الذى كان يبذل مزيدا من الحماس والجهد لتحويلها عن عقيدتها . ولابد أنها كانت مفرطة الغباء ، وإن لم تكن تبدو كذلك ، إذ أن تلقين العقيدة لم يكن يستغرق قط مثل هذا الوقت الطويل ، فقد كان رجل الدين يجدها دواما غير متأهبة لإعلان خروجها عن عقيدتها السابقة . على أنها مالبثت أن ملت عزلتها عن العالم ، فأعلنت عن رغبتها فى ترك النزل ، سواء صارت مسيحية أو لم تصر . واضطروا إلى أن يكتفوا باعلان انضوائها للكثلكة ـ دون أن تعى تعاليمها ـ خشية أن يتولاها العناد فترفض !

وعقدت الجماعة الصغيرة اجتماعا لتكريم الداخلة الجديدة فى حظيرة الدين . والقى علينا خطاب قصير ، وجه إلى فيه الحض على أن استجيب لفضل الله الذى أتيح لى ، بينما دعى الآخرون إلى أن يصلوا من أجلى ، وأن يشجعونى بأن يكونوا قدوة لى . وعادت عذارانا ـ بعد ذلك ـ إلى معزلهن ، وانغمست أمامى الوقت كى أفكر مذهولا فى موقفى على ضوء هوى قلبى . ثم اجتمعنا فى الصباح التالى مرة أخرى لنتلقى الدرس ، وإذ ذاك بدأت ـ للمرة الأولى ـ أفكر جديا فى الخطوة التى كنت مزمعا اتخاذها ، وفى الظروف التى قادتنى إلى ذلك !

ولقد قلت ـ ولا أزال أقول ، ولعلنى سأظل أردد وأنا أزداد كل يوم اقتناعا ـ بأنه إذا كان ثمة طفل قد تلقى تربية معقولة سليمة ، فهذا الطفل هو أنا ! فقد كنت أنتمى إلى أسرة امتازت

باخلاقها عن عامة الناس ، فما تعلمت من أقاربى سوى دروس الحكمة ، وكنت دائما أرى أمام عينى أمثلة مشرفة . فلقد كان أبى ـ برغم ولعه باللهو ـ رجلا شديد الاستقامة ، ليس هذا فحسب ، بل انه كان أيضا على قدر كبير من الشعور الدينى . كان رجلا ذا شهامة فى شئون الدنيا ، ومسيحيا فى قرارة فؤاده ، وقد بث فى قلبى منذ الصغر ما كان يخالجه من أحاسيس . وكذلك أفدت من عماتى الثلاث ، اللائى كن جميعا عاقلات فاضلات ، فقد كانت الكبريان منهن تقيتين ، أما الصغرى ـ وكانت فتاة فياضة الحسن والذكاء والذوق ـ فلعلها كانت أكثر منهما تقوى ، وإن لم تكن تبدى تقواها إلا لماما . ومن حضانة هذه الأسرة ، انتقلت إلى السيد لامبرسييه الذى كان واعظا ومن رجال الدين ، ومع ذلك فانه كان مؤمنا فى قرارة قلبه ويكاد يمارس دائما كل ما يعظ به ! ولقد عمل واخته ـ بالرفق والتعليم الحكيم المتئد ـ على تنمية ما وجدا فى فؤادى من مبادىء التقوى . ولقد استخدم هذان الشخصان الكريمان فى سبيل غايتهما هذه وسائل صادقة ، حكيمة ، معقولة ، دون أن يملا الوعظ والتعليم . وكنت دائما أتاثر بهذا الجهد منهما ، وأتخذ قرارات طيبة ، نادرا ما كنت أغفل تنفيذها عندما أذكرها . أما فى حالة عمتى برنار ، فان تقواها كانت منفرة لى بعض الشىء ، لأنها كانت تتخذ منها حرفة وصنعة. على أننى نادرا ما فكرت فيها أثناء مدة تدريبى الحرفى دون أن أغير هذا الرأى .. كذلك لم أتصل قط بأى شخص فى باكورة العمر يمكن أن يفسدنى ، ومع أننى غدوت شريدا ، إلا أننى لم أكن قط منحلا !

وكنت ، من جراء هذا ، أعرف من الدين كل ما يمكن لطفل فى سنى أن يعرفه . بل إننى كنت أعرف أكثر من ذلك ـ إذ لا جدوى من أن أكتم خواطرى ! ـ فان طفولتى لم تكن شبيهة بطفولتى انادى ، بل إننى كنت دائما اشعر وأفكر كما يشعر الرجل ويفكر ! وما دخلت زمرة الأفراد العاديين الطبيعيين إلا عندما كبرت ، ولكنى لم اكن فى طفولتى عاديا ! وسوف يضحك القارىء إذ يجدنى أصف نفسى ـ متواضعا ـ كشخص ممتاز . فليكن ! ولكن ليتصور ـ إذا ما فرغ من الضحك ـ طفلا فى السادسة من عمره بلغ به الافتتان بالقصص الخيالية والاستساغة لها والتأثر بها ، درجة تجعله يذرف الدمع سخينا عليها !.. إذا استطاع القارىء أن يتصور هذا ، فسأشعر بأن غرورى كان سخفا ، وسأعترف بأننى مخطىء ! وإذا كنت أقول إننا جديرون بالا نحدث الأطفال عن الدين ـ إذا شئنا لهم أن يعتنقوا أى دين ـ بل إذا كنت أذهب إلى القول بأنهم غير قادرين على معرفة الله ، ولو وفقا لآرائنا فيه ، فانما أنا قد خرجت بهذا الاعتقاد من مشاهدتى ، وليس من خبرتى الخاصة ، إذ أننى ادرك أن ليس بين النتائج التى تستمد من خبرتى ما يصلح لغيرى من الأطفال . وإلا فاصنعوا منهم جان جاك روسو كذلك الذى كنته فى السادسة من عمرى ، وتحدثوا إليهم عن الله إذا ما بلغوا السابعة ، وإذ ذاك اطمئنكم إلى انكم لن تتعرضوا لأية مجازفة !

واعتقد أن من المسلم به أن التدين لدى الطفل ـ بل ولدى الرجل ـ يعنى اتباع الدين الذى ولد عليه . ولكن هذا الإيمان

قد يتضاءل أحيانا ؛ ونادرا ما يقوى .. فالإيمان الأعمى من ثمار التربية . وإلى جانب هذا المبدأ العام الذى ربطنى بعقيدة آبائى الدينية ؛ فاننى أوتيت ذلك النفور الذى امتازت به غريتنا إزاء الكاثوليكية ، والذى كان يصورها على أنها وثنية رهيبة ؛ ويلطخ قساوستها بأشد الألوان قتامة ! ولقد بلغ من شدة هذا الشعور فى نفسى ، أننى ـ فى البداية ـ لم أشهد قط جوف أية كنيسة ، ولا قابلت قسا فى زى الكهنوت ، ولا أنصت اطلاقا إلى جرس جنائزى ، إلا وسرت فى جسدى قشعريرة خوف وفزع ، لم تلبث أن زايلتنى فى المدن ، ولكنها كانت كثيرا ما تعاودنى فى أبرشيات(١) الريف ، لأنها أكثر شبها بتلك التى واتانى فيها هذا الشعور فى البداية . ومن الصحيح أن هذا الأثر يتناقض ـ بشكل بارز ـ مع ذكريات العطف الذى كان قساوسة ضواحى جنيف مولعين باسباغه على أطفال المدينة. وبينما كان الجرس الذى يعلن الراحة الكبرى ـ الموت ـ يفزعنى ، كان جرس القداس وصلوات الغروب تذكرنى بالفطور ، واللقاء حول المائدة ، والزبد الطازجة ، والفاكهة ؛ والغذاء المخلوط باللبن !.. ولا يزال عشاء السيد بونفير الشهى يحدث فى نفسى أثرا عظيما !

* * *

على أننى أقصيت كل تلك الخواطر من ذهنى ، وأقبلت ـ وأنا أنظر إلى البابوية من ناحية علاقتها بالتسلية وطيب

---

(١) الدوائر التابعة للكنائس الريفية .

الحياة فقط ـــ على ترويض نفسى على فكرة العيش فى غمرة الكثلكة ، بيد أن فكرة الانضواء نهائيا تحت لواء كنيسة روما كرجل من رجال الدين لم تخطر ببالى إلا لحظة ، وكاحتمـــال للمستقبل البعيد . أما فى الفترة التى أنا بصددها ، فلم يعـــد بوسعى أن أغرر بنفسى ، بل تبينت فى جزع نوع القبول الذى قطعته على نفسى ، وما يترتب عليه من نتائج لا محيد عنها . ولم يكن لرهبان المستقبل المبتدئين ، الذين كانوا حـــولى ، حساب فى تعزيز شجاعتى ، ولا كان فى طوقى أن أخفى عن نفسى أن العمل المقدس الذى اعتزمت الاضطلاع به كان فى الحقيقة نوعا من السرقة ! ذلك لأننى شـــعرت ، برغم صغر سنى إذ ذاك ، بأنه أيا كان الدين الحق بين العقائد ، فاننى كنت مقدمـــا على بيع عقيدتى .. وأننى وإن كنت قد اخترت عقيدة طيبة ، إلا أننى كنت ـــ فى قرارة فؤادى ـــ أكذب على الروح القدس وأستحق ازدراء البشر !.. ولقد كنت ازداد سخطا على نفسى كلما ازددت تفـــكيرا فى ذلك ، وكنت ازفر حسرة على المصير الذى ساقنى إلى هذه الطريق ، وكأنما لم يكن المصير من صنعى أنا ! وكانت تمر بى لحظات تشتد فيها هذه الخواطر ، إلى الدرجة التى كانت خليقة بأن تجعلنى أفر بكل تأكيد ، لو أننى كنت قد ألفيت الباب مفتوحا لحظة ! ولكن هذا كان مستحيلا ، كما أن عزمى لم يكن بالقوة الكافية . فكم من رغبات خفية صارعتها لئلا تتغلب على .. ثم أن تصميمى الثابت على عدم العودة إلى جنيف ، والاستحياء ، وصعوبة اجتياز الجبال ثانية ، والحيرة التى انتـــابتنى إذ وجدت نفسى

نائيا عن بلدى ، بلا أصدقاء ولا موارد .. كل هـذه المشاعر اجتمعت على أن تجعلنى أرى فى وخزات ضميرى ندما جـد متأخر . لقد كنت أتعمد أن ألوم نفسى على ما فعلت ، لكى أجد العذر فى إتيـان ما أوشـك أن أفعله ! وبينمـا كنت أضخم أخطاء المـاضى ، رحت أعتبر أخطاء المستقبل نتائج محتومة لها .. فبدلا من أن أقول لنفسى « إنك لم تأت الفعـل بعد ، وفى وسعك أن تظل بريئا ، إذا شئت » ، رحت أقول : « اندم على الجرم الذى أدانتك نفسك به ، وفرضت على نفسـك ضرورة تنفيذه » ! .

أية قوة ذهنية خارقة كان لابد منها ، فى مثل سنى تلك ، لأنكر كل شىء وعدت به أو رجوته إذ ذاك ، من أجل تحطيم الأغلال التى فرضتها على نفسى ، ولكى أعلن فى جرأة أننى كنت راغبا ، مهما يبلغ ما أتكبده ، فى أن أظل معتنقا دين آبائى !.. مثل هذه القوة لم تكن طبيعية ميسورة لامرىء فى سنى ، وما كان من المحتمل تماما أن تنجح ، إذ أن الأمور كانت قد تطورت إلى مدى لم يعـد معـه إخفاق هـذه القوة أمرا يدعو إلى الخجل .. وكانت تزداد تطورا كلما ازددت مقاومة ، حتى عز على أن أقرها !

وكانت السفسطة التى قضت على هى ذلك المنطق الفلسفى المألوف لكثيرين ممن يشكون الحاجة إلى القوة بعد أن يكون أوان الانتفاع بهذه القوة قد فات . فالفضائل لا تغدو عسيرة المنال إلا بفضل أخطائنا ، ولو أننا استطعنا أن نتمسك دائما بالحكمة والروية ، لندرت حاجتنا إلى الجرى وراء الفضائل .

ولكن الميول المنحرفة التى يسهل قهرها تتعجل انحدارنا لأننا لا نقاومها . ونحن ننساق لغوايات طفيفة ، ازدراء منا لخطرها ، كما اننا نقع ـ دون أن نفطن ـ فى مأزق خطيرة كان من اليسير علينا أن نتوقاها ، ولكنا ـ متى وقعنا فيها ـ لا نستطيع أن ننتزع أنفسنا منها دون جهد مستبسل يضنينا .. وفى النهاية نهوى إلى الدرك الأسفل ، ونحن نلوم الله ، ويسأله كل منا فى عتاب : « لماذا خلقنى ضعيفا بهذا الشكل ؟ » .. ولكنا ـ على الرغم من انفسنا ـ نسمع ضمائرنا تجيب بلسانه . « إنما خلقتك أضعف من أن تقوى على إنقاذ نفسك من الهوة ، لأننى خلقتك اقوى من أن تسقط فيها » !

والواقع أننى لم أكن قد عقدت العزم تماما على أن أصبح كاثوليكيا ، ولكنى استغللت الفرصة ، وأنا أرى الوقت أمامى متسعا ، لكى أروض نفسى على هذه الفكرة تدريجيا . وكنت أتمنى فى الوقت ذاته أن تحدث ظروف غير منتظرة تنزعنى من هذا المأزق . ولكى أكسب الوقت ، وقررت أن أتخذ خير ما كان فى طوقى من أساليب الدفاع ، ولكن غرورى سرعان ما أعفانى من التفكير فى قرارى هذا ، فما أن تبينت أننى كنت أحيانا أحير أولئك الذين كانوا راغبين فى أن يعلمونى ، حتى وجدت فى هذا ما يكفى لأن أسعى إلى أن أضاعف من حيرتهم حتى أعجزهم جميعا ! بل أننى أخذت أبدى شوقا أهوج إلى تحقيق هذه الغاية ، وبينما كانوا يحاولون التأثير على ، رحت بدورى أحاول التأثير عليهم ! وكنت أوقن حقا بأن الأمر لن

يكبدنى أكثر من أن أوفق إلى اقناعهم . فاذا هم ينقلبون إلى بروتستانتيين !.. وكان من جراء ذلك ، أنهم لم يجدوا فى من الاتساق لهم قدر ما كانوا يتوقعون ، سواء من حيث معرفتى أو من حيث استعدادى ورغبتى . والبروتستانت ـ عادة ـ أفضل تعليما من الكاثوليك . وهو أمر طبيعى ، لأن عقيدة الأولين تدعو إلى النقاش ، فى حين أن عقيدة الآخرين تتطلب الاتصياع . فالكاثوليكى مضطر إلى أن يعتنق الرأى الذى يقدم إليه ، أما البروتستانتى فلا بد من أن يتعلم كيف يقرر بنفسه الرأى الذى يعتنقه !.. وقد كان هذا أمرا معروفا ، ولكن أحدا لم يكن يتوقع أن يثير فتى فى مثل سنى وموقفى مصاعب لأفراد ذوى خبرة وتجارب . فضلا عن أننى لم أكن قد تلقيت أول « مناولة » (١) ، ولا لقنت التعاليم الخاصة بها . وكان هذا أمرا معروفا كذلك ، ولكن الشىء الذى لم يعرفوه هو أننى تعلمت على يدى السيد لامبرسييه وأخته ، وأننى ـ فضلا عن ذلك ـ كنت أختزن ثروة لا تروق لأولئك السادة ، من المعرفة بتاريخ الكنيسة والإمبراطورية . فقد حفظت هذا التاريخ عن ظهر قلب أثناء مقامى مع أبى . ثم نسيته

---

(١) فريضة « المناولة » أو فريضة « الاشتراك فى العشاء الربانى » هى من أهم الفرائض والأسرار المقدسة التى تركها المسيح لتلاميذه وأتباعه ، لكى يذكروه بها كلما مارسوها . وهى تقوم على تناول خبز مكسور ، رمزا الى جسد المسيح المصلوب ، وعلى تناول جرعة من عصير عنب مختمر ، رمزا لدم المسيح المسفوك على الصليب . وكل الكنائس المسيحية تمارس « المناولة » الى وقتنا الحاضر .

تقريبا بعد ذلك ، ولكنه أخذ يعود إلى ذاكرتى كلما اشتد وطيس الجدال !

ورأس الاجتماع الأول ـ الذى ضمنا جميعا ـ قس كبير السن ، صغير الجسم ، على شىء من الوقار والمهابة . وكان هذا الاجتماع بالنسبة لزملائى درسا فى الدين ، وليس مجالا للمناقشة . ومن ثم فقد شغل القس بتعليمهم لا بمحو اعتراضاتهم . على أن الوضع تغير فى حالة واحدة : فعندما حان دورى رحت أستوقف القس عند كل نقطة ، ولم أعفه من اية عقبة كان بوسعى أن ألقيها فى طريقه ، فأطال هذا من وقت الاجتماع وجعله مملا للحاضرين . وأسهب قس الشيخ فى الكلام ، وبدا انفعاله يزداد ، وأخذ يشرد عن موضوعه ، ويخرج من المأزق بادعاء أنه لم يكن يجيد الفرنسية ! فلما كان اليوم التالى ، رؤى أن اعتراضاتى الرعناء قد تؤذى رفاقى ، فوضعت فى حجرة أخرى ، مع قس آخر كان أصغر سنا من قس الأمس ، وأكثر ذلاقة لسان ـ أعنى أنه كان يجيد التلاعب بالعبارات ـ وأعظم رضى عن نفسه مما يجوز لأى مدرس !.. على أننى لم أدع نفسى تنصاع لمسلكه المتسلط ، وما أن اطمأننت إلى أن بوسعى ـ برغم كل شىء ـ أن احتفظ بموقفى ، حتى شرعت أجيبه فى ثقة وطيدة ، وأضغط عليه من كل جانب بغاية جهدى !.. وخيل إليه أن بوسعه أن يحيرنى بذكر القديس أوغسطين ، والقديس جريجورى ، وغيرهما من الآباء الروحيين ، ولكنه لدهشته التى فاقت كل تصور ، وجد أننى أجيد الجدال بشأن الآباء جميعا بإسهاب لا يقل عن

إسهابه ، لا لأننى كنت قد قرأت عنهم من قبل ـ كما قرأ هو ـ وإنما لأننى كنت أتذكر فقرات عديدة من كتاب دينى عن مجاهدة النفس ، فما أن كان القس يذكر فقرة منه دون أن يتوقف لمناقشتها ، حتى كنت أجيبه بفقرة أخرى من أقوال الأب نفسه الذى نقل عنه ، مما سبب له ارتباكا غير قليل ، فى كثير من الأحيان ! ومع ذلك فقد انتهى الأمر إلى فوزه ، وذلك لسببين : أولهما أنه كان الأقوى جانبا . ولما كنت أشعر بأننى تحت رحمته ، فقد حكمت عن صواب ـ برغم صغر سنى ـ بأنه ليس من الصواب أن أحرجه ، إذ أن هذا قد يدفعه إلى التطرف ، سيما بعد أن رأيت بجلاء أن القس الشيخ الضئيل الجسم لم يعد شديد العطف على أو على تعليمى !.. والسبب الثانى هو أن القس الشاب كان متعلما ، فى حين أننى لم أكن متعلما ، الأمر الذى جعله يستخدم فى نقاشه أسلوبا عز على أن أجاريه فيه ، فكان إذا أحس بنفسه محرجا تحت ضغط اعتراض غير ظاهر ، يرجىء الاجتماع إلى اليوم التالى ، متعللا بأننى كنت أشرد عن الموضوع . وكان فى بعض الأحيان يأبى أن يصدق ما كنت أذكره من أقوال مقتبسة ، زاعما أنها مصطنعة زائفة ، ثم يتحدانى أن أرشده إلى مواقع هذه المقتبسات من الكتب ، وهو مطمئن إلى أنه لن يتعرض لكثير من الحرج ، لأننى برغم علمى المستعار لم أكن ذا خبرة كافية للبحث فى الكتب، ولم أكن من الدراية باللاتينية إلى الدرجة التى تمكننى من البحث عن فقرة فى مجلد كبير ، مهما أكن متأكدا من وجودها فيه !.. وكنت من ناحيتى أذهب إلى الشك فى

أن القس الشاب كان يعمد إلى عين ما اتهم به قساوستنا من خداع وعدم أمانة . وإلى افتراء الفقرات ليوسع لنفسه مخرجا من مأزق أكون قد أوقعته فيه !

* * *

وبينما كانت هذه المجالات العارضة حول التوائه مستمرة ، والوقت يمضى فى نقاش ، وتمتمة وصلوات ، دون ما عمل ، تعرضت لمغامرة صغيرة مستهجنة ، أوشكت تماما أن تسفر عن نتائج سيئة بالنسبة لى ! ذلك أنه ما من نفس خبيثة ، ولا قلب همجى ، إلا ولصاحبهما ميل ما . وقد ساورت أحد الشقيين اللذين كانا يزعمان أنهما مراكشيان عاطفة نحـــوى ، فكان مشغوفا بمتابعتى ، لا يفتـــأ يكلمنى بلكنته الغريبة ، ويؤدى لى بعض الخدمات البســـيطة ، ويمنحنى فى بعض الأحيان شطرا من غذائه ، بل وكثيرا ما كان يقبلنى فى حـــرارة كانت تغيظنى ! وعلى الرغم من الجزع الطبيعى الذى كان يتملكنى من وجهه الأسمر المشوه بندبة طويلة ، ومن ملامحه التى كانت تبدو أقرب إلى الشراسة منها إلى اللطف ، فاننى كنت أحتمل قبلاته ، قائلا لنفسى : « لقـــد تملكت المسكين صداقة طاغية نحوى ، فمن الخطأ أن أصده ! » . .ولكنه أخذ ـــ بالتدريج ـــ يستبيح لنفسه حرية متزايدة معى ، وكان أحيانا يعرض على اقتراحات غريبة ، جعلتنى أظنه مجنونا .. وأراد فى إحدى الليالى أن يبيت معى ، فرفضت قائلا إن سريرى جد صغير ، وإذا به يلح على أن أصحبه إلى سريره ، ولكنى رفضت من جديد ، إذ كان الوغد جد قذر ، تفوح منه رائحة الطباق الذى كان يمضغه ، بحيث كانت نفسى تغثى منه !

وفى ساعة مبكرة من الصباح التالى كنا وحيدين فى قاعة الاجتماع ، فشرع يعانقنى ويقبلنى فى حركات عنيفة لم تلبث أن أثارت خوفى . وأخيرا ، شاء أن يستبيح لنفسه أبشع تحرر معى ، وأمسك بيدى محاولا أن يحملنى على أن أستبيح نفس التحرر معه ! فأرسلت صرخة عالية ، وقفزت إلى الخلف مفلتا منه . وبدون أن أبدى غضبا أو حنقا ـ إذ لم تكن لدى أتفه فكرة عما كان يسعى إليه ـ أعربت له عن دهشتى وازدرائى بشكل جعله يتركنى حيث كنت . ولكنى رأيت ـ بينما كان ماضيا فى إتمام الحركات التى كان قد بداها ـ شيئا أبيض لزجا ينبثق منه مندفعا فى اتجاه المدفأة ، ثم سقط على الأرض، فأثار مظهره معدتى ، واندفعت إلى الشرفة وأنا أشد تأثرا ، وأشد انزعاجا ، وأشد خوفا مما كنت فى أى يوم فى حياتى ، حتى لقد شعرت أننى أوشك أن أقع مريضا !

ولم يكن بوسعى أن أفقه ما أصاب التعس ، بل اعتقدت أنه أصيب بنوبة من الصرع ، أو بنوع من الجنون أقسى من الصرع ! والحق أننى لا أعرف ما هو أبشع لدى أى شخص هادىء الأعصاب ، من رؤية مثل هذا المسلك المشين القذر ، ولا مثل تلك الملامح التى الهبتها الشهوة البهيمية !.. وما رأيت قط رجلا آخر فى مثل هذه الحال ، ولكن إذا كنا نتعرض لهذا المشهد ونحن مع النساء ، فلابد أن نظراتهن تخضع لسحر خاص ، يحميهن من أن يشمأززن منا !

وهرعت لأنبىء كل امرىء بما جرى لى ، ولكن المشرفة العجوز أمرتنى بأن أعقل لسانى ! على أننى رأيت أن قصتى

قد أثرت عليها بدرجة كبيرة ، وسمعتها تتمتم: « يالله من كلب لعين !.. وحش كاسر ! » .. ولما كنت لم ادرك الحكمة فى أن أمسك لسانى ، فقد مضيت فى إخبار كل شخص بما حدث ، برغم أمرها ، فاذا بأحد المشرفين يفد فى ساعة مبكرة من اليوم التالى فيوجه إلى تقريعا مقذعا ، ويتهمنى بالاساءة إلى شرف دار دينية ، وباثارة ضجة حـــول حادث تافه !.. ونســـج محاضرته بحيث شرح لى اشياء كثيرة كنت أجهلها ، ولكنه لم يكن يصدق أنه كان يعرفنى بها لأول مرة ، إذ أنه كان مقتنعا بأننى ما دافعت عن نفسى إلا لأننى كنت غير راغب ، وليس لأننى لم أكن أفقه ما ابتغـــاه المراكشى منى !.. ثم أنبأنى ـــ برصانة ـ بأن ذلك العمل محرم ، وبأنه جد بعيد عن الأخلاق ، ولكن اشتهاءه ليس إهانة للشخص الذى يكون هدفـــا له ، ومن ثم لم يكن ثمة داع لأن أغضب من شخص اعتبرنى جديرا بالمحبة ! وأنبأنى بوضوح أنه ـــ هو نفسه ـــ قد تقبـــل فى صغره هذا الشرف حين عرض له ، وأنه عندما فوجىء به وهو فى حال لا تمكنه من المقاومة ، لم يجد الأمر مؤلما فى حد ذاته !.. وكان من عدم الحياء بحيث أنه راح يستعمل ألفاظا صريحة ، وأخذ ـــ وهو يتصور أن مقاومتى كانت ناشئة عن خوف من الألم ـــ يطمئننى إلى أنه ليس ثمـــة داع للخوف ، وأنه ما كان لى أن أنزعج دون ما مبرر للانزعاج !

ورحت اصغى إلى ذلك التعس فى ذهول ضاعف منه أنه لم يكن يروى أمرا يخصه ، وإنما بدا أنه كان ينصحنى بما فيـــه الخير لى . كان الموضوع يتراءى له بسيطا إلى الدرجة أنه لم يحاول أن يتستر أو يتكتم ، بل ان حديثا انسـاب إلى أذنى ظرف

ثالث تمثل فى رجل من رجال الكنيسة ، لاح أنه لم ينزعج هو الآخر من الأمر ! وأثرت على هذه الروح المتساهلة التى أبدت الأمر عاديا ، إلى درجة أننى اقتنعت بأنه ـ ولابد ـ عادة معترف بها فى العالم ، وإن لم تتح لى فرصة الإلمام بها قبل ذلك الحين !.. وكان من جراء ذلك أننى رحت أصغى بدون غضب، ولكن اصغائى لم يخل من الاشمئزاز . ولقد ظلت صورة ما حدث لى ـ وما رأيته بوجه خاص ـ منطبعة فى ذاكرتى إلى درجة أننى لا أزال أشعر بالتقزز كلما تمثلتها !.. وبدون أن أفطن ، امتد نفورى من الشىء إلى الشخص الذى كان يبرره ، إذ لم يكن بوسعى أن أتمالك نفسى إلى الدرجة التى تحول بينه وبين مشاهدة الأثر السيء لدرسه فى نفسى . ومن ثم رمانى بنظرة كانت بعيدة عن أى ود ! ومنذ ذلك الوقت لم يدخر وسعا فى أن يجعل إقامتى فى النزل مكروهة . ولقد وفق فى ذلك إلى درجة أننى لم أر سوى وسيلة واحدة للفرار ، فبادرت إلى اتخاذها ، بنفس التحمس الذى كنت أتذرع به حتى ذاك الحين لتفاديها !

ولقد أمتنى هذه المغامرة بمناعة فى المستقبل ضد محاولات « فرسان الكم » ، فكانت رؤية أولئك المنتمين إلى مذهبهم تذكرنى بمنظر وحركات المراكشى الرهيب ، فتوحى إلى دائما بجزع يعز على إخفاؤه ! ومن ناحية أخرى، يبدو لى أن النساء ظفرن بكسب نسبى من جراء هذه المغامرة ، إذ تراءى لى أننى مدين لهن بالعواطف اللطيفة وبالمجاملة كتعويض لهن عما يلحقه بهن أبناء جنسى من إهانات .. وكانت أبشع مومس

تصبح فى نظرى أهلا للعبادة ، إذا ما تذكرت ذلك الافريقى الزائف !.. أما هو ، فلم ادر ما قيل له ؛ ، ولم يظهر لى أن أحدا ـ فيما عدا السيدة لورينزا ـ بدل من شعوره السابق نحوه ! على أنه لم يعد يلاحقنى أو يتحدث إلى . وبعد ثمانية أيام ، تم تعميده فى جلال عظيم ، وسربل بالبياض من رأسه إلى قدمه ، رمزا لطهر روحه التائبة ! وفى اليوم التالى غادر المنزل ، فلم أره البتة منذ ذلك الحين . ثم حان دورى بعد شهر ، فقد كان لابد من هذه المدة لأتيح لمرشدى شرف الفوز بهداية « كافر » صعب المراس ، واضطررت إلى ان اجتاز امتحانا مسئلت فيه عن جميع التعاليم ؛ حتى يتسنى لهم أن يزدهوا باستعراض علمى الجديد !

اما وقد تعلمت اخيرا ـ ما فيه الكفاية ـ وتم إعدادى بالدرجة التى ترضى أساتذتى ، فقد اقتدت فى موكب مهيب إلى كنيسة القديس يوحنا الكبرى ، لأعلن خروجى على عقيدتى أمام الملأ ، ولأتلقى شهادات التعميد ـ وإن كنت لم أعمد فعلا ، إذ كنت معمدا منذ مولدى ـ ولكن مثل هذه الاحتفالات تنفع فى ايهام الناس بأن البروتستانتيين ليسوا من المسيحيين فى شىء !.. وارتديت يومذاك معطفا رمادى اللون ، مزدانا بضفادع بيضاء ، كان يستخدم فى مثل هذه المناسبات. وحف بى رجلان ـ من أمام ومن خلف ـ يحملان وعاءين من من النحاس ، أخذا يضربان عليهما بمفتاحين ، فكان كل امرىء يلقى فى هذين الوعاءين بما يتصدق به ، تبعا لتقواه ولمدى اهتمامه بالمؤمن الجديد . وقصارى القول أن شيئا من مظاهر

عظمة الكنيسة الكاثوليكية لم يدخر ، وذلك لإسباغ آيات الجلال على الحفلة فى نظر الناس ، وامعانا فى إذلال نفسى . ولم يكن ينقصنى سوى الرداء الأبيض ، الذى كان يليق بى ، والذى لم يسمح به لى كما سمح به للمراكشى ، لاننى لم احظ بأن اكون يهوديا قبل انضمامى للكنيسة !

على أن هذا لم يكن كل ما فى الاحتفال ، إذ اضطررت بعد ذلك إلى أن اذهب إلى ديوان التحقيق ، لأتلقى قرار توبتى من جريمة الزندقة ، ودخولى إلى حظيرة الكنيسة فى احتفال كان الملك هنرى الرابع ممثلا فيه فى شخص سفيره ! ولم يكن فى مسلك قداسة الأب المحقق ، ولا فى مظهره ، ما يمحو الرعب الخفى الذى تملكنى وانا الج الدار . وبعد عدة أسئلة عن عقيدتى ، ومركزى ، وأسرتى ، سألنى فجأة عما إذا كانت أمى ملعونة أ.. وحملنى الذعر على أن اكبت أول مظاهر الاستنكار ، واكتفيت بأن أجبت بأننى اجرؤ على أن أرجو الا تكون ملعونة ، وأن يكون الله قد أنار بصيرتها فى ساعتها الأخيرة . وصمت الراهب ، ولكنه كشر عن ابتسامة لم يبد لى انها من امارات الرضى فى شىء ! وعندما انتهى كل شىء ، وفى اللحظة التى توقعت فيها أن يمدونى بالمال الذى يلائم آمالى ، إذا بهم يشيعوننى إلى خارج الأبواب وفى يدى ما يزيد قليلا على عشرين فرنكا بالعملات الصغيرة .. وهى نتيجة الصدقات التى جمعت لى. وزودت بالنصح بأن اعيش مسيحيا صالحا ، وأن أظل صادق الولاء لشرف العقيدة .. ثم تمنوا لى حظا حسنا ، واغلقوا الباب دونى ، فلم ارهم بعد ذلك !

* * *

وهكذا تلاشت كل آمالى العظام فى لحظة ، وكانت النتيجة الوحيدة التى خرجت بها من الخطوة التى اتخذتها ، وهى الشعور بأننى كنت مرتدا عن دينى ، وغـرا مغفلا ، فى آن واحـد ! ومن اليسير تصور أية ثورة مفاجئة أصابت آرائى عندما رأيت نفسى متذوقا من حالق أحلام الثراء البراقة إلى البؤس المدقع! وبعد أن كنت ـ فى الصباح ـ أطيل التفكير فى انتقـاء القصر الذى أقيم فيه ، الفيتنى فى المساء مضـطرا إلى أن أنام على قارعة الطريق !.. وقد يخطر بالبـال أننى بدأت استسلم لشعور من القنوط ، زاده قسوة ما انتابنى من حسرة رحت معها ألوم نفسى لأن نحسى إنما كان من صنع يـدى . ولكن شيئا من هـذا لم يحدث ، إذ كنت قد مكثت سجينا ـ لأول مرة فى حياتى ـ أكثر من شهرين ، فكان أول ما انتابنى هو شـعور بالفرح لاسترداد حريتى . ووجدتنى سـيد نفسى وتصرفاتى من جديد ـ بعد فترة طويلة من الاسـتعباد ـ فى مدينة كبيرة ، وافرة الموارد ، غنية بذوى المكانة الذين لا يمكن أن أخفق فى أن أحظى بضيافتهم ـ حين أصبح معروفا ـ لمـا كان لى من خـلال طيبـة ومواهب . وإلى جانب ذلك ، كان الوقت متسعا أمامى ، وكانت الفرنكات العشرون القابعة فى جيبى تلوح لى كما لو كانت كنزا لا ينضب معينه ! كنت أملك أن أنفقها كما أشاء ، دون أن أقدم عنهـا حسابا لأحد . وكانت هذه هى المرة الأولى التى أملك فيها مثل هذا المبلغ . ومن ثم فبدلا من أن تثبط عزيمتى ، أو ينسـلب دمى ، اكتفيت بأن عدلت آمالى ، دون أن يفقد قلبى الطاهر شيئا من جراء هذا

ومن اليسير تصور أية ثورة مفاجئة أصابت آرائى عندما
رأيت نفسى مقذوفا من حالق أحلام الثراء البراقة الى البؤس المدقع !..

التعديل .. فما شعرت قط بمثل ما داخلنى إذ ذاك من طمأنينة وثقة ، إذ اعتقدت أن حظى بات أمرا مقررا ، ورأيت أن من البديع حقا ألا يكون لأحد ـ سواى ـ فضل فى ذلك !

وكان أول ما فعلته هو أن سعيت لارضاء فضولى إلى الطواف بالمدينة ، ولو لأستمتع بملاذ الحرية !.. فذهبت لمشاهدة فرسان الحرس ، وهناك راقت لى الموسيقى العسكرية إلى درجة بعيدة . وتبعت المواكب ، فانتشيت بالموسيقى الكنيسية التى كان يعزفها القساوسة . وسعيت لمشاهدة قصر الملك ، فاقتربت منه فى رهبة وخشوع ، حتى إذا رأيت غيرى يلجونه ، حذوت حذوهم ، فلم يستوقفنى أحد ! ولعلى كنت مدينا بهذه الخطوة للفافة التى كنت احملها تحت ابطى ـ وكيفما يكن الأمر ، فاننى بدأت أقيم وزنا كبيرا لنفسى عندما الفيتنى فى القصر . بل اننى بدأت أتمثل نفسى مقيما فيه بالفعل . وما لبثت فى النهاية أن سئمت الرواح والغدو ، وكنت جائعا ، والجو حارا ، فولجت حانوت لبان ، وابتعت قسطا من جبن « الجيونكا » (١) واللبن الرائب ، وشريحتين من الخبز البيمونتى البديع الذى افضله على ما عداه . وبخمس أو ست قطع من فئة « السو » حظيت بوجبة من أشهى الوجبات التى تناولتها فى حياتى !

وكنت مضطرا إلى البحث عن مأوى . وكان من السهل أن

---

(١) جبن « الجيونكا » نوع من الجبن الطازج الذى ينقل الى السوق فى حصير .. كالجبن المعروف فى مصر باسم « القريش » .

أعثر على واحد ، إذ كنت قد ألممت من اللغة البيمونتية بقدر يمكننى من أن أجعل حديثى مفهوما . وكنت من الحكمة بحيث راعيت فى اختيارى ما يناسب مواردى وليس ما يلائم ذوقى . فقد أنبئت بأن زوجة جندى فى شارع « دوبو » تأوى الخدم المتعطلين مقابل « سو » واحد فى الليلة . وكان لديها سرير خال ، فاستأجرته . وكانت المرأة شابة حديثة العهد بالزواج ، وإن كانت قد أنجبت خمسة أطفال أو ستة من قبل !.. ونمنا جميعا فى غرفة واحدة : الأم ، والأطفال ، والنزلاء .. ( وقد ظللنا على هذه الحال طيلة اقامتى عندها ! ) .. وفيما عدا ذلك كانت امرأة طيبة ، سريعة الشباب كالحوذية ، تكشف دائما عن ثدييها ، وتدع شعرها مشعثا . على أنها كانت شغوفة القلب ، بشوشا ، مالت إلى ، بل كانت ذات نفع لى !

وقضيت عدة أيام مسلما نفسى لمباهج الاستقلال والفضول وحدها ، فجست خلال المدينة وخارجها ، متفحصا كل مكان ، متأملا كل ما كان يبدو لى جديدا أو غريبا . وهكذا كان الشأن بالنسبة لكل شىء ، لدى شاب غادر لفوره معتقله ، ولم يسبق له أن رأى عاصمة . وكنت ـ قبل كل شىء ـ أتردد بانتظام على القصر ، كما كنت حريصا على أن أحضر القداس الملكى فى كل صباح ، فقد رأيت أن من البديع أن أكون فى كنيسة واحدة مع الأمير وحاشيته ، ولكن شغفى بالموسيقى كان قد بدأ يغدو محسوسا ، وكان أكثر دفعا لى على الحضور المنتظم من الرواء الملكى الذى ما أن يرى بانتظام ، وبنفس الشكل ، حتى يفقد نتفته وطرافته .. وكانت لدى ملك سردينيا فى

ذلك الوقت خير فرقة من المترنمين فى أوروبا . وكان «سومى» و «ديجارادنه» و « بيسوتزى » هم بالتتابع نجومها اللامعين. وكان هـذا أكثر مما يلزم لاجتذاب شاب يستهويه صـوت اسوأ آلة موسيقية ، إذا كان العزف عليها سليما . وبجـانب ذلك ، كان الاعجاب الذى أحسست به نحو العظمة والفخفخة ـ اللتين بهرتا بصرى ـ إعجابا خاليا من التعقل ، ولا يستحق ان يغبطنى أحد عليه . وكان الشىء الوحيد الذى أثار اهتمامى فى كل رواء البلاط الملكى هو أن أرى ما إذا كانت ثمـة أميرة شابة ، جديرة بتكريمى، وبأن أتصل بها فى مغامرة غرامية؟!.. وكنت قد أوشكت أن أبدأ مغامرة من هذا النوع ، فى وسـط أقل رواء ، ولكنها مغامرة كنت خليقا بأن أجد فيها ـ لو أننى مضيت قدما ـ متعا تفوق متع الغرام بالأميرات ألف مرة !

* * *

ومع أننى كنت أعيش بأقصى درجات التقتير ، إلا أن كيسى بدأ ينضب رويدا . ولم يكن اقتصادى فى النفقات نتيجة حكمة بقدر ما كان نتيجة بسـاطة فى الذوق لم يبدلها ـ إلى يومنا هذا ـ تعودى على أن أجلس إلى موائد علية القوم . فمـا عرفت ـ بل ولا أزال بعيدا عن أن أعرف ـ ما هو أبهج من الطعام الريفى . وفى وسـع أى امرىء أن يطمئن إلى إكرامه لى إذا هو قدم لى بعض منتجات اللبن ، والبيض ، والخضر ، والجبن ، والخبز الأسمر ، وبعض النبيذ المقبـول .. إذ أن شهيتى تتكفل بما يبقى بعد ذلك . هذا فى الوقت الذى لا أرتاح فيه إلى وجود كبير للسقاة وعدد من الخدم حولى ، يحيطوننى

بتكلفهم المزعج ! وقد كنت فى ذلك العهد أحظى بوجبات تتكلف ستة أو سبعة « سو » ، وتفضل ما اعتدت بعد ذلك أن أحظى به لقاء ستة أو سبعة فرنكات !.. كنت معتدلا ، لأننى لم أتعرض لاغراء يبعدنى عن الاعتدال ، ومع ذلك فاننى اخطىء حين أقول إننى كنت معتدلا ، إذ أننى كنت أحظى فى الوقت ذاته بكل الملاذ الحسية الممكنة . كانت الكمثرى ، والجيونكا ، وشرائح الخبز ، وبضعة أقداح من نبيذ «مونفيرا» الكثيف الذى يستطيع المرء أن يقطعه إلى شرائح ، تجعلنى أسعد أكول ! ومع ذلك ، فقد دنت نهاية فرنكاتى العشرين ، وكنت ازداد شعورا بهذا يوما بعد يوم ، ومع ما كانت تتسم به سنى من خلو البال، فان قلقى من المستقبل سرعان ما أصبح جزعا حقيقيا ! ولم يبق لى من كل القصور التى كنت أشيدها فى الهواء سوى ضرورة البحث عن وسيلة للعيش، وهذا ما لم يكن سهلا ميسورا . وفكرت فى حرفتى القديمة ، ولكننى لم أكن أعرف منها ما يكفينى لأن يغرى أى معلم على أن يستخدمنى ، فضلا عن أنه لم يكن ثمة كثير من المعلمين فى ( تورين ) . وأخذت أتنقل من حانوت إلى آخر ، عارضا خدماتى لحفر الشعارات والرموز على الفضة ، راجيا أن أغرى بعض العملاء برخص أجرى ـ ريثما يتاح لى عمل أفضل ـ بل أننى تركت لهم تقدير الأجر . ومع ذلك فان هذا المشروع لم يسفر عن نجاح يذكر ، بل كنت أطرد عادة ، فكان العمل الذى أظفر به من القلة بحيث أننى نادرا ما كسبت ما يكفى لثمن وجبتين أو ثلاث ! على أننى لمحت ذات يوم ، وأنا أسير فى ( كونترادا نوفا ) فى ساعة مبكرة ، امرأة شابة بدت لى ـ

خلال نافذة أحد الحوانيت ـ موفورة اللطف ، جذابة المنظر إلى درجة أننى ـ برغم حيائى من النساء ـ دخلت الحانوت دون تردد ، ووضعت مواهبى المتواضعة رهن إشارتها ! ولم تصدنى فى جفاء ، بل اجلستنى وسألتنى أن أروى لها سيرتى القصيرة ، فلما فعلت أشفقت على ، وسألتنى أن لا أبتئس ، لأن المسيحيين الصالحين ما كانو ليتخلوا عنى بالتأكيد . وبعد أن أرسلت إلى صائغ يجاورها فى طلب الأدوات التى انبأتها بأنها تعوزنى ، ذهبت إلى المطبخ فأعدت لى بيديها فطورا .

ولاح لى أن البداية تبشر بالخير ، فلم تكذب النتيجة حدسى ، إذ بدا على المرأة انها رضيت عن العمل الذى انجزته ، وكانت أكثر رضاء عن ثرثرتى المتواضعة ، عندما اطمأننت قليلا إليها ، فقد كانت ذكية ، أنيقة الملبس . وعلى الرغم من مسلكها الرحيم المتلطف ، فان مظهرها أوحى لى بالهيبة والوقار . على أن كرم حفاوتها ، وصوتها الشفوق ، واخلاقها اللطيفة الدمثة ، لم تلبث أن سرت عنى كل تحفظ ، فتبينت مدى توفيقى ، مما ضاعف من هذا التوفيق !.. وكانت المرأة إيطالية ، ذات إغراء ودلال إلى حد ما ، لكنها كانت فى الوقت نفسه ذات حياء . وكنت من ناحيتى خجولا ، حتى أنه كان من العسير أن يؤدى الموقف إلى اى شىء أبعد مما جرى بيننا ! كما أن الوقت لم يتح لنا كى نمضى فى المغامرة . وإنى لأذكر فى أقصى نشوة تلك اللحظات الوجيزة التى قضيتها إلى جوارها ، وبوسعى أن اقول إننى ـ فى بدايتها ـ تذوقت أحلى وأنقى مباهج الحب !

وكانت تلك الإيطالية الحسناء سمراء البشرة ، بالغة الفتنة، يزيد من تأثير حسنها ما كان يحمله وجهها الجميل من مخايل طيبة النفس . وكان اسمها مدام « بازيل » ، تركها زوجها ـ الذى كان اكبر منها سنا ، وكان غيورا بعض الشىء ـ فى رعاية كاتب(١) بدا أبغض من أن يكون ذا غواية أو إغراء ؛ ومع ذلك فانه لم يكن خلوا من خلال مميزة كان يبديها مقترنة بطبعه السيىء الذى آثرنى به ، برغم اننى كنت مولعا بأن أسمع عزفه على القيثارة التى كان يجيد استعمالها .. وكان « اله الدمامة » الجديد يزمجر كلما رآنى الج المكان ، ويعاملنى فى ازدراء أخذت مخدومته ترده إليه كاملا ! بل لقد بدا لى انها كانت تستعذب التلطف فى وجوده ، لكى تثير غيظه ، وكان هذا النوع من الانتقام ـ برغم مجافاته لذوقى ـ خليقا بأن يكون أكثر استساغة ، لو انه كان فى خلوة . ولكنها لم تدفع الأمور قط إلى هذا الحد ، أو ـ بالاحرى ـ دفعتها ، ولكن بشكل آخر ! وسواء كانت قد الفتنى جد صغير ، أو انها لم تكن تعرف كيف تقدم على المراودة ، أو كانت تعتزم حقا أن تظل عاقلة ، فانها أخذت تبدى فى ذلك الحين نوعا من التحفظ لم يكن يصدنى عنها ، ولكنه كان يجعلنى اهابها دون أن أدرى السر فى ذلك ! ومع اننى لم أحس نحوها بذلك الاحترام الحقيقى ، العاطفى ، الذى أحسست به نحو السيدة دى فاران ، إلا اننى كنت أشد خجلا وأقل الفة مع مدام بازيل منى مع السيدة المذكورة . كنت أجدنى محرجا ، مرتبكا ،

---

(١) « كاتب » هنا بمعنى موظف كتابى ، اى CLERK

لا أجرؤ على أن أتطلع إليها ، أو أتنفس بالقرب منها ، ومع ذلك فقد كنت أشد كرها للبعد عنها منى للموت . كنت ألتهم بعين نهمة كل ما أستطيع أن أتطلع إليه فيها دون أن يلمحنى أحد : الزهور التى تزين ثوبها ، وأطراف قدميها الرشيقتين ، ولمحة من ذراع بيضاء ، ملتفة ، كنت أراها بين قفازها وكمها .. وجزءا من صدرها كان يتجلى أحيانا بين طرف ثوبها والمنديل المحيط بعنقها . وكان كل شيء من هذه يعزز تأثير بقية الأشياء الأخرى !.. وكانت عيناى تضطربان من النظر إلى ما كنت أراد ـ بل وما وراء ما كنت أراه ـ ويضيق صدرى ، فتزداد أنفاسى تهدجا فى كل لحظة ، حتى لا أكاد أقوى على التنفس ، بل يغدو كل ما أستطيعه هو أن أصعد زفرات متلاحقة غير محسوسة ، كانت شديدة الاحراج لى فى غمرة السكون الشامل الذى كثيرا ما كنا نلفى نفسينا فيه !.. على أن مدام بازيل لم تكن ـ لحسن الحظ ـ تلاحظ ذلك ، على ما كان يبدو لى ، لانهماكها فى عملها . ومع ذلك فاننى كنت أرى صدر ثوبها يخفق أحيانا ، وكأنها تشفق على. وكان هذا المنظر الخطر يفقدنى رشدى تماما ، حتى إذا أوشكت أن أطلق العنان لانفعالاتى ، قالت لى ـ بصوت هادىء ـ عبارة ما ، ترد إلى إدراكى فى الحال !

* * *

ولقد رأيتها عدة مرات فى هذه الحال ـ ونحن وحيدان ـ دون ما كلمة أو إشارة أو نظرة تحمل من المعانى أكثر مما ينبغى ، أو ما يوحى بأننا نتفاهم بيننا . وكان هذا الجو ـ

على ما فيه من تعذيب لى ـ جد مستعذب ، حتى أننى كنت لا اكاد لسذاجة قلبى أجد سببا لما كنت أحسن به من لوعة ! وكان يبدو أن هذه الخلوات القصيرة كانت مستطابة لديها هى الأخرى ، فانها ـ على أية حال ـ كانت تتيح الفرص لهـا بكثرة !.. وإذا تساءلنـا عن النفع الذى كان هذا المسلك يحققه لها ، أو لى ، فمن المؤكد انه كان على الأقـل مسلكا خاليا من أى ضرر !

.. إلى أن كان ذات يـوم ، سئمت فيـه المرأة الحديث السخيف الذى انطلق فيـه الـكاتب الدميم ، فصعدت إلى غرفتها . وأسرعت أنا أتم المهمة البسيطة التى كنت أؤديها فى الحجرة الخلفية بالحانوت ، ثم تبعتهـا . وكان باب حجرتها مواربا ، فدخلت دون أن يرانى أحـد . وكانت عاكفة على التطريز بجوار إحدى النوافذ ، وظهرها نحو الباب ، فلم يكن بوسعها أن ترانى ، ولا أن تسمعنى ـ نظرا لجلبة العربات فى الطريق ـ وكانت تحرص دائما على أناقة ملبسها ، لكنها فى ذلك اليوم بالذات كانت قد افتنت فى زينة وجهها إلى درجة مغرية ! وكان وضعها بديعا ، إذ كان رأسها ـ فى انحناءته البسيطة ـ يكشف بياض عنقها .. وكان شعرها معقوصا إلى أعلى فى رشاقة ، وقد ازدان بالزهـور . وبالاختصار ، كان يزين على قوامها بأسره سحر أخذت أطيل تأمله حتى أخرجنى عن تجلدى ، فاذا بى أجثو على ركبتى لدى الباب ، وأبسط ذراعى نحوها فى حركات ملتاعة ، وأنا واثق من أنها لم تكن تسمعنى ، ودون أن يخطر ببالى أن من المحتمل أن ترانى ..

بيد أنه كانت ثمة مرآة على رف المدفأة وشت بى إليها ! ولست أدرى أى أثر أحدثته نوبة جنونى فى نفسها ، فانها لم تنظر نحوى ، ولم تنبس بكلمة وإنما لفتت رأسها لفتة صغيرة ، وبحركة بسيطة أشارت بأصابعها إلى الحصيرة التى كانت عند قدميها . وكانت اللحظة تتطلب أن أرتجف ، أو أصرخ أو أرمى بنفسى حيث أشارت ، ولكن من العسير أن يصدق أحد أننى فى ذلك الموقف لم أجسر على أن أحاول أكثر من الاستلقاء عند قدميها ، فلم أنبس بكلمة واحدة ، ولا رفعت عينى إليها ، بل ولا مسستها فى محاولتى المضنية كى أستند إلى ركبتيها لحظة .. ومع أننى عجزت عن الكلام أو الحركة ، إلا أننى كنت بعيدا عن الهدوء والسكينة ، بل كان كل شىء يشى بانفعالى ، وفرحى ، وعرفانى ، ورغباتى الجامحة التى لم يكن لها هدف معين ، والتى كان يكبحها الخوف من استياء السيدة ، وهو أمر ما كان قلبى الشاب ليرتاح إليه !

وبدا أنها لم تكن أقل تأثرا ولا أقل خجلا منى .. وازعجها أن ترانى هناك ، وحيرها أن تكون قد اجتذبتنى إلى ذلك المكان ، وبدأت تشعر بعواقب الإشارة التى صدرت عنها دون أن تفكر فيها التفكير الواجب !.. ولكنها لم تقربنى إليها ، ولا هى صدتنى عنها ، فانها لم ترفع رأسها عن الرقعة التى تطرزها ، بل حاولت أن تتصرف كما لو لم تكن تراني عند قدميها ! على أن كل ما أوتيت من غباء ما كان ليمنعنى من أن استنتج أنها كانت تشاطرنى ارتباكى ، وربما رغباتى ، وأنها كانت تكبح عواطفها بنفس الحياء الذى كان يدفعنى إلى أن اكبح عواطفى ، وإن لم يساعدنى ذلك على أن أتغلب على هذا الحياء !.. وإذ

كانت تكبرني بخمس سنوات أو ست ، فقد رأيت أنها كانت خليقة بأن تكون أكثر جرأة ، وقلت لنفسي إنها إذا كانت لم تفعل ما يوقظ جرأتي ، فلابد أنها غير راغبة في أن أبدي أية جرأة من ناحيتي ! ولا أزال حتى اليوم أرى أنني كنت مصيبا ، وأنها كانت ـ بالتأكيد ـ من الذكاء بحيث فطنت إلى أن ناشئا مثلي كان بحاجة لا إلى تشجيع فحسب ، وإنما إلى « تدريب » أيضا !

ولست أدري كيف كان لينتهي هذا المشهد الحافل الصامت، ولا إلى أي وقت كنت سأظل دون حراك في وضعي المستهجن المستغرب ، لولا أننا فوجئنا بما قطع علينا الموقف ! غفي اللحظة التي بلغ فيها انفعالي عنفوانه ، سمعت باب المطبخ ـ الذي كان ملاصقا للحجرة التي كنا فيها ـ يفتح ، فاستولى على مدام بازيل ذعر جائح تجلى في كلماتها وإشاراتها وهي تقول : « انهض !.. ها هي ذي روزينا قادمة ! » . وأسرعت بالنهوض ، ممسكا باليد التي بسطتها لي ، طابعا عليها قبلتين ملتهبتين ، شعرت عند ثانيتهما أن هذه اليد الفاتنة تضغط شفتي ضغطا خفيفا !.. ولست أغالي إذا قلت إنني لم استمتع في حياتي بلحظة في مثل حلاوة تلك اللحظة . وغير أن الفرصة التي فقدتها لم تسنح قط مرة أخرى ، وكف غرامنا الوليد عن النمو عند ذلك الحد ! ولعل هذا هو عين السبب في أن صورة تلك المرأة اللطيفة ظلت مطبوعة في أعماق قلبي بهذا الشكل الفاتن ، بل إنها ازدادت جمالا بازدياد معرفتي بالدنيا والنساء . ولو أنها كانت قد أوتيت مجرد قدر بسيط من

الخبرة ؛ لأقدمت على تصرف مخالف ؛ كى تشجع فتى مثل الذى كنته !.. ولكن ؛ لئن كان قلبها قد أوشك أن يضعف فى تلك اللحظة ، فانه كان فى الواقع مستقيما ، وما انساقت للميل الذى جرئها إلا على غير إرادة منها ، فكانت هذه ـ على ضوء كل المظاهر ـ أول خيانة تفكر فيها ، ولعلنى كنت خليقا بأن أجد فى مغالبة خجلها عناء يفوق ما كنت ألقاه فى مغالبة حيائى ! على اننى ؛ دون أن أذهب إلى ذلك المدى ، كنت أجد فى وجودها سعادة لا توصف ، وما عادل شيء من المشاعر التى يخلقها نيل النساء ، تلكما الدقيقتين اللتين قضيتهما عند قدمى هذه المرأة دون أن أجسر على مجرد لمس ثوبها !.. لا ، ليست هناك متعة تعدل تلك التى تستطيع أن تتيحها امرأة فاضلة يحبها المرء !.. إن كل شيء يغدو جميلا فى صحبتها .. ولقد كانت إشارة من أصبع ، ويد التصقت خفيفا بفمى ، وهما كل النعم التى حظيت بهما من مدام بازيل ، ولا تزال ذكرى هذين الرمزين البسيطين تفتننى كلما فكرت فيهما !

وعبثا حاولت ـ فى اليومين التاليين ـ أن انتهز فرصة لخلوة أخرى ، فقد استحال على أن أجد هذه الفرصة ، ولم الاحظ أى حرص من جانب مدام بازيل على أن تتيحها . ومع أن مسلكها لم يصبح أقل فتورا عن ذى قبل ، إلا أنها صارت أكثر تحفظا من المعتاد ، وأعتقد أنها كانت تتفادى نظراتى خشية أن تعجز عن أن تسيطر على نفسها سيطرة كافية ! وغدا كاتبها اللعين أثقل ظلا من أى وقت مضى ، سيما وقد مضى يمزح ويداعبنى قائلا إننى خليق بأن أجد حظا لدى

السيدات ! وكنت أرتجف كلما فكرت فى أننى ربمـــا كنت قد ارتكبت حماقة . ولما كنت قبل ذلك أعتبر ان ثمة تفاهما بينى وبين مدام بازيل ، فقد رغبت الآن فى أن أتكتم الميل الذى لم يكن بحاجة إلى التكتم من قبل ، فجلعنى ذلك أزداد حذرا فى تحينى الفرص لإرضاء هـــذا الميل . ومن فرط حرصى على أن تكون هذه الفرص مأمونة ، تعذر على أن أعثر عليها إطلاقا !

وكانت هذه نزوة غرامية أخرى ، لم يقدر لى قط أن ابرأ منها ، وقد استطاعت باقترانهـــا بحيائى الطبيعى أن تكذب نبوءة الكاتب الدميم بدرجة تبعث على العجب !.. فقد كنت من الصدق فى حبى بدرجة أجرؤ معها على القول بأنها لم تكن لتمكننى من أن أسعد بسهولة . فما كانت العواطف يوما أشد توثبا وأطهر طبيعة مما كانت لدى ، ولا كان الحب يوما أرق ، وأصدق ، وأبعد عن المصلحة مما كان عندى !.. كنت على استعداد لأن اضحى بسعادتى الف مرة من أجل سعادة المرأة التى أحبها . كانت سمعتها أعز لدى من حيـــاتى ، وما كنت لأرجو البتة أن أعرض طمأنينتها لحظة واحـــدة لأى خطر ، فى مقابل كل المباهج والمتع ! وقد حملنى هذا الشعور على أن أسرف فى الحذر والتكتم والحيطة فى مغامراتى ، إلى الحد الذى لم يقدر عنده لأى منها أن تنجح !.. وما كانت حاجتى إلى أن أوفق مع النساء إلا ناجمة دائما عن حبى العارم لهن !

* * *

ولنعد الآن إلى ذلك الدميم ، عازف القيثارة : كان الغريب فى أمر هذا الغادر أنه كلمـــا ازداد ثقل ظل ، بدا أكثر لطفا

وإيناسا ! . . وكانت مخدومته ـ منذ اليوم الأول الذى مالت فيه إلى ـ قد فكرت فى أن تجعلنى نافعا فى الحانوت . وكنت أجيد الحساب ، فاقترحت عليه أن يعلمنى كيف أمسك الدفاتر التجارية ، ولكن الجلف تلقى الاقتراح فى امتعاض ، لعل مبعثه أنه خشى أن يزحزح عن عمله ! ومن ثم فقد كان كل عملى ـ إلى جانب حفر المعادن ـ يقتصر على نسخ بضعة حسابات ومذكرات ، وتصحيح بعض الدفاتر ، وترجمة بضع رسائل تجارية من الإيطالية إلى الفرنسية . وفجأة ، عن لصاحبى أن يعود إلى الاقتراح الذى سبق له أن رفضه ، فتطوع لتعليمى القيد المزدوج(١) ، وقال إنه بات راغبا فى أن يجعلنى كفئا لأن أتقدم بخدماتى إلى السيد بازيل عند عودته . وكان فى صوته ومسلكه شىء من الزيف والحقد والسخرية ، لم يوح إلى بالطمأنينة ! ولم تنتظر مدام بازيل حتى أجيبه ، بل قالت له فى برود إننى شاكر له تطوعه ، وإنها تأمل أن يجازينى القدر فى النهاية عن طيب صفائى ، وإنه لأمر جدير بأعظم الرثاء لو أننى لم أغد ـ برغم كل مواهبى ـ أكثر من « كاتب » مثله !

وكانت السيدة قد أخبرتنى ، فى عدة مناسبات ، بأنها راغبة فى أن تقدمنى إلى شخص قد يستطيع أن يساعدنى . وكانت من الحكمة بحيث أدركت أن الوقت قد حان كى نفترق ، إذ أن اعترافاتنا الصامتة بالحب وقعت فى يوم الخميس ، فلما

---

(١) طريقة قيد الحسابات التجارية ، بتسجيل كل عملية فى الجانب الدائن والجانب المدين : « منه » و « له » .

كان يوم الأحد التالى ، أقامت مأدبة عشاء كنت من حضروها. وكان بين الضيوف راهب من المذهب « اليعقوبى » ، حسن الطلعة ، تدمتنى إليه السيدة ، فعاملنى بحفاوة بالغة ، وهنانى بانضوائى تحت لواء الكثلكة ، وحدثنى عن حياتى بطريقة نمت لى عن أن السيدة قد أفضت إليه بتفصيلاتها .. ثم نصحنى ـ وهو يربت على خدى بظهر يده فى ود ـ بأن أتصرف بما يليق بكرامتى ، وبأن أكون قوى الجلد وشجاعا ، وبأن أذهب لزيارته ليتاح لنا أن نتبسط فى الحديث معا . وأدركت من الاحترام الذى كان كل امرىء يبديه له ، أنه رجل ذو مكانة . كما أدركت من اللهجة الأبوية التى كان يوجه بها حديثه إلى مدام بازيل ، أنه الراهب الذى تفضى إليه باعترافاتها ! كذلك أذكر أن الألفة البالغة التى كان يبديها نحو تائبته(١) كانت مشوبة بمظاهر التقدير ، بل والاحترام ، الأمر الذى لم يدهشنى إذ ذاك قدر ما يدهشنى الآن . ولو أننى كنت أذكى مما كنت إذ ذاك ، لكنت خليقا بأن آتيه فخرا لمجرد التفكير فى أننى استطعت أن أمس أحاسيس شابة كانت تلقى كل هذا الاحترام من الراهب الذى كان يتلقى اعترافاتها !

ولم تتسع المائدة لنا جميعا ، فرؤى إضافة مائدة أخرى صغيرة ، كان من حظى أن جلست إليها ، مواجها للكاتب ..

---

(١) تقضى التقاليد الدينية لدى الكاثوليك بأن يعترف الشخص الى قس الكنيسة التى يتبعها ، فيعظه القس ويصلى من أجله ، ويكون اعترافه دليل التوبة ، فهو بهذا الوضع تائب .

ولم اخسر بهذا التنظيم شيئا من الرعاية او التلطف ، فقد نقلت عدة صحاف من الطعام إلى المائدة الصغيرة ، لم يكن صاحبى هو المقصود بها بالتأكيد ! وكان كل شيء يسير كما ينبغى حتى ذلك الوقت ، فكانت السيدات جد طروبات ، والرجال مرهفى الانتباه . وكانت مدام بازيل تدعو إلى الانخاب فى مهابة فاتنة . وفى منتصف العشاء ، وقفت عربة بالباب ، واقبل شخص يصعد السلم .. وكان القادم هو السيد بازيل . وانى لأتمثله الآن بنفس صورته حين دخل علينا ، مرتديا معطفا قرمزيا ذا ازرار مذهبة ، وهو لون اعتدت منذ ذلك اليوم أن أنفر منه ! وكان طويلا ، مليحا ، حسن المظهر . وأقبل فى جلبة ، شأن الرجل الذى يفاجيء ضيوفه ، برغم ان الحضور جميعا كانوا أصدقاء له . والقت زوجته ذراعيها حول عنقه ، وراحت تضغط يديه ، وتضفى عليه الوان الغزل والملاطفة ، فتقبلها جميعا دون أن يلتفت ، وحيا الجماعة ، وجلس ليتناول الطعام .

ولم يكد الضيوف يشرعون فى الحديث عن رحلته ، حتى وجه عينيه نحو المائدة الصغيرة ، وتساءل فى صوت جاف عمن يكون الفتى اليافع الذى رآه جالسا إليها ، فروت له مدام بازيل كل شيء فى بساطة ساذجة . فتساءل عما إذا كنت أقيم فى الدار ، فأجبت بالنفى ، وإذ ذاك قال بصوت أجش ! « ولم لا ؟.. مادام يقضى سحابة النهار هنا ، فمن المستحسن ان يمكث خلال الليل » . وأمسك الراهب بزمام الحديث ، وبعد أن تحدث عن مدام بازيل بعبارات الإطراء المخلص الصادق ،

ذكر بضع كلمات فى امتداحى ، وأضـــاف قائلا للزوج إن من الجدير به أن يتوق إلى المساهمة فى العمل الخيرى الذى أدته زوجته الصالحة ، بدلا من أن يلومها عليه ، فليس فى هـــذا العمل ما يجاوز حدود الحكمة والكرامة . وأجاب السيد بازيل فى لهجة غاضبة حاول إخفاءها بعض الشىء ، احتراما لوجود الراهب ، ولكنها كانت كافية لأن تجعلنى أشـــعر بأنه تلقى أنباء عنى ، وأن الكاتب قد دس لى لديه !

وما أن انتهت المـــأدبة ، حتى أقبل الكاتب مزهوا ، وقـــد أوفده مخدومه ليدعونى ـ بأمره ـ إلى أن أبارح البيت فورا ، تلا أضع فيه قدمى بعد ذلك ! وحشا رسالته بكل ما كان كفيلا بأن يجعلها قاسية مهينة . فانصرفت بدون أن أنبس بكلمة ، ولكن بقلب طعين ، لم تكن تعذبه فـــكرة مفـــارقة تلك المراة اللطفية ، بقدر ما كانت تضنيه فكرة تركها وحيدة لزوجهـــا المتوحش !.. ولا مـــراء فى أنه كان على حق فى رغبتـــه أن لا تخونه زوجته ، ولكنها كانت ـ برغم ذكائها وحسن تربيتها ـ إيطالية الأصل ، أعنى أنها كانت مفطورة على الحس المرهف وحب الثأر . ويلوح لى أنه كان مخطئا إذ عاملها بأكثر الطرق قابلية لأن تجلب عليه ما كان يخشاه من نحس !

هكذا كانت نتيجة مغامرتى الغرامية الأولى . ولم أغفل أن أمر بالشارع مرتين أو ثلاثا ، على أمل أن أرى ـ على الأقل ـ المـــراة التى لم يكن قلبى يكف عن التحسر عليهـــا . ولكنى رأيت ـ بدلا منها ـ الزوج والكاتب المتربص الذى لم يكـــد يلمحنى حتى أشار نحـــوى بالشريط الخشبى الذى يستخدم لقياس الياردة ، إشارة كانت تنطوى على أكثـــر من مجـــرد

التهديد ! وإذ تبينت أن الرقابة شديدة ، فترت عزيمتى ، ولم أمر بالحانوت مرة أخرى . ولقد رغبت فى أن أسعى إلى الراهب الذى كانت مدام بازيل قد هدتنى إليه ، ولكنى لم أكن أعرف اسمه ، لسوء الحظ ، فطوفت عدة مرات بالدير آملا فى أن أصادفه ، ولكن دون ما توفيق . وأخيرا ، عدت أحداث أخرى على ذكريات مدام بازيل البهيجة ، فلم ألبث أن نسيتها تماما بعد وقت قصير .. لن إننى ـ لسذاجتى وحداثتى ـ لم أعد أحس بميل إلى الجميلات !

على أن كرم مدام بازيل زود صوان ثيابى إلى حد ما ، وإن كانت قد راعت التواضع وبعد النظر الذى تتصف به المرأة العاقلة التى تفكر فى نظافة الملبس أكثر مما تفكر فى زينته ، مما نم عن أنها كانت تبغى أن تصوننى من الهوان ، لا أن تزيننى . وكانت الثياب التى حملتها معى من جنيف لا تزال صالحة للارتداء ، ومن ثم فانها لم تضف إليها سوى قبعة وبعض الثياب الداخلية . ولم تكن عندى قفازات ، ولكنها أبت أن تمنحنى شيئا منها ، برغم أننى كنت جد تواق لذلك ، فقد كانت قانعة بأن تجعلنى فى وضع يمكننى من أن أحتفظ بنفسى نظيف الملبس والمظهر ، وهو أمر لم تكن بحاجة إلى أن توصينى بالاهتمام به ، عندما كنت معها !

وبعد أيام قلائل من طردى من الحانوت ، أنبأتنى صاحبة البيت الذى كنت أقيم فيه ـ وقد ذكرت أنها مالت إلى ـ بأن من المحتمل أن تكون قد وجدت لى عملا ، فان سيدة ذات مكانة قد رغبت فى أن ترانى . وعند هذه الكلمات ، ظننت أننى أصبحت فعلا وسط مغامرات راقية ، إذ كان ذهنى يدور دائما

حول ذلك . على أن المغامرة فى هذه المرة لم تكن من البهـاء كما صورتها لنفسى ، فقد ذهبت لمقابلة السيدة مع الخـادم الذى حدثها عنى ، فسألتنى وامتحنتنى ، ولم أخيب رجاءها ، فالتحقت بخدمتها لفورى ، لا فى مركز مقرب لديها ، وإنمـا كخادم يرتدى الزى الخاص بخدمها ! وكان الفـارق الوحيد بينى وبين هؤلاء أنهم كانوا يلبسون أنشوطات على أكتافهم(١) ، أما أنا فلم أكن أفعل .. ولما كانت ثياب خدمها لا تزدان بشىء من الوشى ، فانها كانت تبدو كالأزياء العادية .. وهكذا كانت النهاية غير المرتقبة لآمالى العظام !

وكانت « الكونتة دى فيرسيللى » ـ التى التحقت إذ ذاك بخدمتهـا ـ أرملة بلا ولـد ، وقد كان زوجهـا من أبنـاء ( بييمونت ) . وكنت دائما أخالها من إقليم ( ساغوا ) ، فمـا كنت لأصدق أن بين أهل ( بييمونت ) من يجيد الفرنسية إلى درجة الكلام بلهجة خالية من أية لكنة . وكانت فى أواسـط العمر ، ذات منظر ممتاز ، وقد أوتيت ذهنا مثقفـا . وكانت مولعة بالأدب الفرنسى الذى كانت على دراية واسعة به . كما كانت تكثر من الكتابة ، وبالفرنسية دائما . وكانت لرسائلها روح ، بل وروعة ، رسائل « مدام دى سيفينييه » ، حتى أن بعضها يخاله المرء من قلم هذه الأخيرة . وكان عملى الرئيسى من نوع لم أكن أكرهه ، إذ كنت اكتب لها ما تمليه على من هذه الرسائل ، فقد كانت مصابة بسرطان فى المعدة ، يكبدها آلاما عظيمة تجعل من المستحيل عليها أن تكتب بنفسها !

---

(١) حبال مجدولة (اسبلايت) أو شارات مما يوجد على أكتاف بعض السعاة.

ولم تكن مدام دى فيرسيللى ذات ذكاء عظيم ، ولكنها أوتيت روحا قوية عالية . وكنت معها أثناء مرضها الأخير ، فشهدتها تتعذب وتموت دون أن تبدى بادرة من بوادر الضعف ، ولـو لحظة واحدة ، دون أن تبذل أقل جهد فى السيطرة على نفسها ، أو تفعل شيئا لا يليق بامرأة ، بل ودون أن يخطر ببالهـا أن مسلكها كان مثالا للفلسفة ، وهى كلمـة لم تكن قد أصبحت شائعة ، ولم تكن السيدة تعرفها بمعناها المألوف اليوم .

وكانت قوة شخصيتها هذه ، تطغى فى بعض الأحيان حتى تصبح برودا !.. كانت تبدو لى دائما وكأنها لا تكن من المشاعر لسواها قدر ما تكن لنفسها . وعندما كانت تبدى كرما لأى تعس ، فانما كانت تصدر فى ذلك عن رغبـة فى اتيان الخير والعمل الصالح ، أكثر منها عن شعور حقيقى بالصدقة . لقد خبرت هذا القصور فى شعورها ـ إلى حد ما ـ خلال الأشهر الثلاثة التى قضيتها معها . ولقد كان الأمر يبدو طبيعيا لو أنها قدرت شابا ذا مواهب ، كانت تراه أمامها باستمرار ، فاذا ما شعرت بنهايتها تدنو فكرت فى أنه قد يصبح بعدها فى حاجة إلى المعونة والمساعدة .. ولكنها لم تفعل شـيئا من ذلك ، إما لأنها لم تعتبرنى أهلا لرعاية خاصـة ، أو لأن الذين كانوا يحيطون بها لم يتيحوا لها أن تفكر فى سواهم !

على أننى أتذكر جيدا أنها أبدت بعض فضول إلى تعرف قصتى ، فكانت أحيانا توجه إلى أسئلة ، وتحب أن اريهـا الخطابات التى كنت أكتبها إلى مدام دى فاران ، وأصف لها مشاعرى . على أنها لم تسلك ـ بالتأكيد ـ الطريق الصحيحة

للتعرف على هذه المشاعر ، إذ أنهـا لم تبح لى قط بشىء من مشاعرها الخاصة ! وكان قلبى يحب أن يكشف عن دخيلته على شريطة ان يطمئن إلى انه إنما يفضى بسريرته إلى قلب آخر . أما الأسئلة الباردة الجافة ، التى لا تنطوى على بادرة من رضاء أو لوم إزاء إجاباتى ، فلم تكن توحى إلى بشىء من الثقة . وعندما كنت لا أرى ما ينم عما إذا كان حديثى يرضيها او يضايقها ، كنت اشعر دائما بجزع !.. على أننى لاحظت ، منذ ذلك الحين ، أن هذه الطريقة الجافة فى توجيه الأسئلة إلى الناس للتعرف على شخصيتهم ، حيلة كثيرا ما تعمد إليهـا النساء اللواتى يرغبن فى أن يبدون ذكيات بارعـات . فهن يظن أنهن بإخفاء مشاعرهن يكن أكثر توفيقا فى الكشف عن مشاعرك أنت ! ولكنهن يخفقن فى أن يرين انهن بهـذا العمل يجردنك من الجراة على هذا الكشف !.. والرجل إذا ما سئل، بادر إلى التحفظ من أجل ذلك السبب وحده ، وإذا اعتقد ان سائله إنما يريد أن يحمله على الكلام فحسب ، دون أى اهتمام حقيقى بأمره ، فانه إما أن يعمـد إلى الكذب ، أو إلى حبس لسانه ، أو يضاعف من حيطته ، مفضلا ان يظن انه أحمق عن ان يكون تسلية للفضول ! وقصارى القول ، إن المرء إذا رغب فى قراءة قلوب الآخرين ، فان من سوء السياسة ان يظهر انه يخفى ما فى قلبه !

ولم يحدث لمدام دى فيرسيللى أن باحت لى قط بكلمة تعبر عن ود ، أو شفقة ، أو عطف . وإنما كانت توجه إلى أسئلة بلهجة باردة ، فأجيب عليها بتحفظ . ولا بد أن إجاباتى كانت

تبدو لها تافهة مضـــجرة . وما لبثت فى النهـــاية أن كفت عن الأسئلة ، ولم تعد تكلمنى إلا لتصدر لى أوامرها ! كانت تحكم على فى ضوء ما دفعتنى إليه بمسلكها ، وليس فى ضوء ما كنته .. وما رأت فى قط سوى مجرد خادم ، فكانت تمنعنى من أن ابدو فى غير شخصية الخادم !.. واعتقد أننى منذ ذلك الوقت أعانى من خبث هوايـــة التآمر فى الخفـــاء التى تدفعنى إلى الانحراف ، والتى أوحت إلى بنفور طبيعى جدا من الأوضاع التى خلقت هذه الهواية . وكان وريث مدام دى فيرسيللى ـــ التى كانت بلا ولد ـــ هو ابن أخيهـــا الكونت « ديلا روك » الذى كان مثابرا على التقرب إليها . وفضـــلا عن ذلك ، فان رؤساء خدمهـــا ـــ الذين رأوا نهايتهـــا تدنو ـــ لم يغفلـــوا مصالحهم ، ومن ثم فقد كان يحيط بهـــا كثيرون ممن يظهرون الوفاء لخدمتها ، فكان من العسير عليها أن تفكر فى شخصى .

وكان على رأس قصرها رجل ماهر يدعى الســـيد لورنزى ، استطاعت زوجته ـ التى كانت تفوقه ذكاء ـ أن تتملق مولاتها وأن تكسب رضاها إلى درجة أنها صارت منها بمثابة الصديقة أكثر منها الخادم الأجيرة . وقد استطاعت بذلك أن تظفر لابنة أخيها بمنصب وصـــيفة السيدة ! وكانت ابنـــة الأخ مخلوقة ماكرة ، تدعى الآنسة بونتال ، تجيد الظهـــور بمظهر وصيفة الشرف ، وبذلك وفقت إلى مساعدة عمتهـــا فى التقـــرب إلى السيدة ، فلم تعد هـــذه ترى إلا بعيون الاثنتين ، أو تعمل إلا بأيديهما ! ولم يكن لى حظ إرضاء هؤلاء الأشخاص الثلاثة ـــ السيد لورنزى وزوجته وابنة أخيها ـــ فقد كنت أطيعهم ولكنى

لم أخدمهم ، إذ لم أفطن إلى أننى — بجانب خدمة مخدومتنا المشتركة — كنت مضطرا إلى أن أكون خادما لخدمها !.. فضلا عن أننى كنت من ذلك النوع من الخدم الذى يثير قلقهم ، إذ رأوا بوضوح أننى كنت فى غير المكان الذى أستحقه ، فكانوا يخشون أن ترى السيدة ذلك بدورها ، وأن تعمد — كى تضعنى فى المركز اللائق بى — إلى إجراء قد يقلل من حظهم من مالها !.. ذلك أن أبناء هذه الطبقة هم فى العادة أشد جشعا من أن يكونوا منصفين ، وتراهم ينظرون إلى أية منحة لسواهم وكأنها حق استلب من مالهم الخاص ! ومن ثم فانهم تآمروا على إقصائى عن بصر السيدة . ولما كان غرامها بكتابة الرسائل قد صار بمثابة تسلية لها فى ضعفها الصحى ، فانهم أوحوا إليها بما جعلها تكره هذه الهواية ، وصرفوها عن المضى فيها مستعينين بنصح طبيبها ، وبالتثبيط من عزيمتها بزعم أنها عملية جد مرهقة لها !.. ثم صوروا لها أننى لم أكن أفهم واجبى ، وبذلك أقنعوها بأن تعين فى مكانى خادمين لئيمين ، كى يحملا مقعدها ! وبإيجاز ، فانهم تعمدوا — ببراعة — أن لا ألج غرفتها طوال ثمانية أيام ، هى الفترة التى كانت أثناءها تعد وصيتها ! ومن الصحيح أننى بعد هذه المدة عدت أدخل غرفتها كعهدى من قبل ، وأخذت أبدى لها من الاهتمام فوق ما كان يبديه أى شخص سواى ، إذ أن الآلام التى كانت تعانيها المسكينة أخذت تمزق قلبى ، والجلد الذى كانت تتحملها به أوحى إلى بأن أوقرها وأعطف عليها إلى أقصى درجة .. حتى أنى كثيرا ما كنت أذرف دموع الأسى صادقا فى غرفتى ، دون أن يرانى أحد !

وأخيرا فقدناها .. ورأيتها تجود بآخر أنفاسها . وكما عاشت حياة امرأة موهوبة ذكية ، فانها ماتت ميتة الفلاسفة . ويوسعى أن أقول إنها الهمتنى تقديرا عاليا للعقيدة الكاثوليكية ، بفضل ما كانت تبديه من إقبال على اتباع تعاليمها ، دون إهمال أو تصنع . كانت فى الواقع ذات طبع حاد ، وقد أخذت تبدى ـ فى نهاية مرضها ـ نوعا من الانشراح الذى كان انتظامه يوحى بأنه غير حقيقى ، فما كان سوى رد فعل لحالتها الأليمة ، وسوى ثمرة من ثمار العقل . ومع أنها لم تلزم فراشها إلا فى اليومين الأخرين ، إلا انها ظلت تتحدث فى هدوء مع كل امرىء حتى النهاية . وأخيرا ، لم تعد تتكلم ، ولكنها فى نزعات الموت صاحت بصوت مرتفع : « حسنا !.. إن المرأة التى تستطيع أن تطلق الغازات من امعائها ، لا تموت » .. وتقلبت فى فراشها ، وكانت هذه آخر كلمات نطقت بها !

.. ولقد تركت لصغار خدمها أجور عام كامل ، أما أنا فلم أتلق شيئا ، لأننى لم أكن فى قائمتهم! على أن الكونت ديلا روك أمر باعطائى ثلاثين ليرة(١) ، كما ترك لى السترة الجديدة التى كنت أرتديها ، والتى أراد السيد لورنزى أن يأخذها منى ! بل إن الكونت تكرم فوعد بأن يحاول إيجاد عمل لى ، وأذن لى بأن أذهب لأراه ، وقد ذهبت مرتين أو ثلاثا ، دون أن أتمكن من

---

(١) الليرة : عملة قديمة كانت قيمتها تتباين بتباين الأزمان والأماكن ، وقد أطلق الاسم على « الفرنك » فى بعض الأوقات .

التحدث إليه . ولما كنت سريع القنوط ، فاننى لم أذهب بعد ذلك . ولسوف يتبدى ـ بعد قليل ـ اننى كنت مخطئا .

وليتنى كنت استطيع أن أنهى ، عند هذا القدر ، كل ما لدى من قول عن فترة إقامتى لدى مدام دى فيرسيللى !.. لكن الواقع أننى لم ابرح الدار كما دخلتها ، وإن ظلت حالى كما كانت . لقد حملت معى من الدار ذكريات باقية للجريمة ، وعبئا لا يطاق من الندم ، لا يزال يثقل ضميرى برغم مرور أربعين عاما ! وبدلا من أن تزداد مرارته ضعفا ووهنا ، إذا بها تقوى وتشتد كلما تقدمت بى السنون : فمنذا يصدق أن غلطة صبيانية تؤدى إلى مثل هذه التبعات القاسية ؟ التبعات التى كانت أفدح مما يخطر بالبال ، والتى لا يجد قلبى عزاء من أجلها ؟.. ذلك أننى تسببت فى دمار فتاة لطيفة ، شريفة ، جديرة بالتقدير ـ بل كان من المؤكد أنها تفوقنى جدارة ـ إذ دفعت بها إلى الخزى والتعاسة !

وإليك القصة : إن من الأمور التى لا مناص منها ، أن تغير نظام بيت من البيوت خليق بأن يحدث شيئا من الفوضى فى البيت ، فتضيع أشياء عديدة . ومع ذلك فان الخدم فى دار تلك السيدة كانوا من الأمانة ـ كما كان لورنزى من اليقظة ـ بحيث أن شيئا لم يفتقد من دار مدام دى فيرسيللى عندما أحصى ما كان فيها . ولكن حدث أن الآنسة « بونتال » فقدت قطعة من شريط قديم باللونين الأحمر والفضى . ولقد كانت تحت يدى أشياء كثيرة تفوق تلك القطعة فى القيمة ، غير أن هذه وحدها هى التى أغرتنى ، فسرقتها ! ولما كنت لم أجشم نفسى عناء

إخفائها ، فانها سرعان ما وجدت .. وشاعوا أن يعرفوا كيف آلت إلى حوزتى ، فـــاذا بى أرتبك ، واتلعثم ، وإذا بوجهى يتضرج .. ثم قلت ـــ فى النهاية ـــ إن « ماريون » أعطتنيها ! وكانت « ماريون » شابة من ( موريين ) اتخذتهـــا مدام دى فيرسيللى طاهية لهـــا عندما كفت عن إقامة الولائم فسرحت طاهيتها واصبحت تكتفى بالحساء الجيد عن الأطعمة الشهية.

ولم تكن « ماريون » هذه رشيقة فحسب ، بل كانت ذات لون حاضر ، لا يوجد إلا لدى اهل الجبال ، كما كانت تتصف ـ فوق كل شىء ـــ بنوع من اللطف والتواضع ، يستحيل معه على من يراها أن لا يحبها !.. ثم أنها كانت فتـــاة طيبـــة ، ورعة ، لا جدال فى أمانتها . لذلك دهشن الجميع عندما ذكرت اسمها ! وكان كل منا موضع ثقة ، لذلك كان من المهم أن يتبينوا من منا اللص الحقيقى ؟ ومن ثم استدعيت ، واجتمع نفر من أتقوم ، بينهم الكونت ديلا روك . وعندما قدمت ، عرض عليها الشريط .. واتهمتها فى جرأة ، فبهتت ، ولم تقو على أن تنبس ببنت شفة ، وإنما اكتفت بأن رمقتنى بنظرة كانت كفيلة بأن تجرد إبليس ذاتـــه من أسـلحته ، ولكن قلبى البهيمى كان منيعـــا دونها ! وأخيرا ، أنكرت الفتاة السرقة بلهجة جازمة ، ولكن دون غضـب ، وخاطبتنى فناشدتنى أن أفكر ، وألا أشـــوه سمعة فتاة بريئة لم تلحق بى أى أذى . ولكنى أصررت على قصتى ، فى قحة شيطانية ، واعلنت فى وجهها أنها هى التى أعطتنى الشريط !.. فشرعت المســكينة تبكى ، ولم تقـــل سوى : « آه ! كنت أظنك رجلا طيبا يا روسو . إنك تشقينى

كل الشقاء ، ولكنى لا أتمنى أن اكون فى موقفك ! » .. وكان هذا كل ما عندها لى ، فقد راحت تدافع عن نفسها فى بساطة وحزم ، دون أن تسمح لنفسها بأن توجه إلى أقل تأنيب أو لوم ! وأدى هذا الاعتدال ـ بالقياس إلى لهجتى الجازمة ـ إلى ضررها ، فما كان من الطبيعى أن تقابل مثل هذه القحة الشيطانية من جانبى ، بوداعة ملائكية من جانبها ! ومع أن المسألة لم تسو نهائيا ، إلا أنه بدا انهم جميعا مالوا إلى جانبى ، ولكنهم لم يضيعوا وقتهم فى التعمق فى المسألة ، فى غمرة الفوضى التى كانت تسود الدار ، واكتفى الكونت ديلا روك ـ وهو يفصلنا معا من الخدمة ـ بأن قال إن ضمير المذنب خليق بأن يثار للبرىء !.. ولقد تحققت نبوءته ، بل إنها لتتحقق فى كل يوم !

ولست أدرى ما جرى لضحية اتهامى الزائف ، ولكن من غير المحتمل أنها استطاعت العثور على مركز طيب بعد ذلك ، فقد حملت معها وصمة لطخت شرفها بقسوة من كل النواحى . لقد كانت السرقة طفيفة تافهة ، ولكنها كانت ـ برغم ذلك ـ سرقة ! ومما زاد الطين بلة انها ارتكبت لاغواء شاب .. ثم إن الكذب والعناد لم يخلفا شيئا يرتجى من شخص اجتمعت فى نفسه كل هذه الرذائل ! بل إننى لا أظن أن التعاسة والنبذ هما أعظم الأخطار التى تسببت بفعلتى فى تعريض الفتاة لها ، فان المرء لا يستطيع أن يدرى مدى ما قد يدفع إليه القنوط والشعور بالبراءة الجريحة ، فتاة فى مثل سنها !.. أواه ! إذا كان شعورى بالندم لا يطاق ، لمجرد احتمال اننى جعلتها

تعسة ، فغى وسع المرء أن يقدر ما يخالجنى من شعور إذ أتصور أننى قد أكون دفعت الفتاة إلى أسوأ من هذا المصير !

إن هذه الذكرى تقض راحتى وتمضنى فى بعض الأوقات ، إلى درجة تجعلنى أخال ـ فى ساعات السهاد ـ أن الفتاة المسكينة مقبلة لتلومنى على جرمى ، وكأننى ارتكبت هذا الجرم بالأمس القريب ! ويخف عذاب هذه الذكرى طالما كنت أعيش فى هدوء ودعة ، ولكنها فى غمرة الحياة الصاخبة تسلبنى لذة العزاء ، وتجعلنى أحس بما أنكر أننى قلته فى أحد كتبى من أن « الندم يهجع عندما تكون حظوظنا فى ازدهار ، ويجعل عذابه محسوسا فى أوقات النوائب » !.. ومع ذلك فاننى لم أقو البتة على أن أحمل نفسى على أن أفضفض عن صدرى ، بأن أعترف بالقصة لأحد من أصدقائى .. فان أوثق الود لم يصل بى يوما إلى هذا الحد مع أى امرىء ، حتى مع مدام دى فاران . كل ما استطعته هو أن اعترفت بأن على أن الوم نفسى على عمل فظيع ، ولكنى لم أفصح إطلاقا عن كنهه !. ولقد ظل هذا العبء يثقل ضميرى إلى اليوم ، دون أن تخف وطأته ، وإنى لأذهب إلى حد التأكيد بأن الرغبة فى الخلاص منه ـ إلى حد ما ـ ساهمت بدور كبير فى إقدامى على كتابة هذه « الاعترافات » !

لقد كنت صريحا أمينا فى الاعتراف الذى ذكرته ، ولسوف يتضح بالتأكيد أننى لم أحاول أن أخفف قتامة جرمى . ولكنى لا أحقق الهدف المرجو من هذا الكتاب إذا أنا لم أعرض ـ فى الوقت ذاته ـ أعمق مشاعرى الدفينة ، وإذا أنا ترددت فى

أن أبرز نفسى ، بحقائق محضة صادقة : فمـا كانت النيـة الخبيئة بمنأى عنى فى أية لحظة ، بقدر ما كانت فى تلك اللحظة القاسية . ولقد كان من الغريب ـ ولكن من الصحيح أيضا فى الوقت نفسه ـ أن صداقتى للفتاة التعسة كانت هى السبب فى أننى اتهمتها ! .. ذلك أنها كانت ماثلة فى خاطرى ، فلم أر بدا من أن ألقى اللوم على أول شخص قفـز إلى فـكرى ؛ فاتهمتها بفعل ما كنت أعتزم فعله .. اتهمتها بأنهـا أعطتنى الشريط ، لأنى كنت أعتزم أن أعطيها إياه ! فلما رأيتها أمامى ـ بعد ذلك ـ تمزق قلبى ، لكن وجـود كل ذلك العـدد من الناس كان أقـوى تأثيرا على نفسى من التوبة !.. وما كنت خائفا من العقاب ، وإنما كنت خائفا من العـار ، فقـد كنت أرهبه أكثر من الموت ، وأكثر من الجريمة ، وأكثر من أى شىء آخر فى الدنيا ! .. وكم كنت أغتبط لو أن الأرض انشقت فجأة فابتعلتنى وخنقتنى ! وهكذا تغلب الخوف الطاغى من العار على كل شىء ، فلم يزدنى إلا قحة .. إذ أن ازدياد إجرامى ، وازدياد نفورى من الاعتـراف ، أديا إلى انعـدام خوفى من الافتراء ، فما عدت أرى أمامى ـ إذ ذاك ـ سوى بشـاعة الفضيحة ، وهتك سترى للملأ ، فى حضورى ، باعتبار أننى لص .. وكاذب .. ومفتر !.. ذلك ما كان الارتباك الشامل يجردنى من كل شعور سواه . ولو أنهم أتاحوا لى فرصـة أسترد فيها رباطة جأشى ، لما كان ثمة ريب فى أننى كنت أعترف إذ ذاك بكل شىء !.. لو أن السيد ديلا روك انتحى بى جانبا ، وقال لى : « لا تفسد على هذه الفتاة المسكينة حياتها .. إذا كنت مذنبا فاعترف لى » ، لألقيت بنفسى فى الحال على قدميه .

إنى لموقن تماما من ذلك ! ولكنى حين انتقـــدت التشجيع ، لم ألق منهم سوى الارهاب !

ثم إن الانصاف يدعو إلى النظر بعين الاعتبار إلى سنى ، فقد كنت يومئذ اقرب إلى الطفولة منى إلى الرجولة . والجرائم الحقيقية تكون فى الصغر اكثر اتصافا بالإجرام منها فى الكبر ، اما الجرائم التى لا تعدو أن تكون نزوات مبعثها الضعف ، فلا تكون فى الواقع ناجمة ـ لدى الصغار ـ عن روح إجرامية . ومن ثم فان العمل الذى ارتكبته لم يكن ـ فى جوهره ـ اكثر من « مخالفة » !.. وهكذا فان ذكراها لا تكربنى لمـا فيها من شر ، ، بقدر ما تكربنى بسبب تبعاتها ونتائجها الشريرة . على أنها أحسنت فى الواقع ، إذ صانتنى بقية عمرى من كل عمل يميل إلى الإجرام .. واحسنت إلى بالأثر الرهيب الذى انطبع فى نفسى من جراء الذنب الوحيد الذى ارتكبته . وإنى لأومن بأن استبشاعى الكذب إنما يرجع بدرجة كبيرة إلى ندمى على أننى استطعت أن اقدم على مثل تلك الاكذوبة المخزية!.. إنه جرم يمكن التكفير عنه ، بل إننى لأجرؤ على القول بأننى قد كفرت عنه بكل الشقاء الذى طغى على السنوات الأخيرة من حياتى.. بأربعين عاما من الاســـتقامة فى أوعـــر الظـــروف !.. وإن « ماريون » المسكينة لتجد فى الدنيا كثيرا من المنتقمين لها ، بل إنهم لمن الكثرة بحيث أننى ـ مهما يكن عظم ذنبى ضـــدها ـ لم أعد أخاف أن أموت غير مستمتع بالغفران !

وهذا كل ما أود أن اقوله بهذا الصـــدد ، فاســـمحوا لى بألا اعود إلى الحديث قط فى هذا الموضوع !

# الكراسة الثالثة

## ٥ ـ من سنة ١٧٢٨ إلى سنة ١٧٣١

وإذ تركت دار مدام دى فيرسيللى فى حال قريبة من تلك التى كنت فيها حين دخلتها ، عدت إلى صاحبة النزل التى كنت أقيم عندها من قبل ، فقضيت معها خمسة أسابيع أو ستة ، عادت خلالها الصحة والشباب والكسل إلى إشاعة الاضطراب فى طباعى ، فأصبحت قلقا ، شارد الفكر ، خالما .. صرت أبكى ، وأتنهد ، وأتوق إلى سعادة لم تكن لدى عنها أية فكرة ، ولكنى ـ مع ذلك ـ كنت أشعر بأننى راغب فيها ! ولا سبيل إلى وصف هذه الحال ؛ بل إن الذين يستطيعون تصورها قليلون بين الناس ، يصبو معظمهم إلى حياة تجمع بين العذاب والعذوبة ، وتخلق الشعور باللذة فى عنفوان الشوق . وكان دمى الفائر يملأ مخى دائما بالنساء والفتيات . ولما كنت جاهلا بالعلاقات الجنسية ، فقد زحت أستغل تلك الرؤى وفقا لأفكارى المتخبطة ، دون أن أدرى طريقة أخرى للإفادة منها ! .. وقد استبقت هذه الأفكار مشاعرى فى حالة نشاط ممض ، دون أن ترشدنى ـ لحسن الحظ ـ إلى طريق الخلاص من هذه الحال .. ولقد كنت إذ ذاك على استعداد لأن أجود بكل حياتى مقابل العثور على « آنسة دى جوتون » أخرى ، ولو لربع ساعة ! ولكن الوقت الذى كان لهو الطفولة يتخذ فيه هذا الاتجاه ـ باعتباره الاتجاه الطبيعى ـ كان قد ولى !.. كان الشعور بالعار ـ وهو رفيق الضمير السيىء ـ قد شرع

يزداد ظهورا كلما تقدمت بى السنون ، مما ضاعف من خجلى الفطرى إلى الدرجة التى لم أعد عندها أقوى على مغالبة هذا الخجل .. فما عدت أقوى إذ ذاك ـــ ولا فيما بعد ـــ على أن أحمل نفسى على محاولة غير بريئـــة ، اللهم إلا إذا كانت تلك التى أحاولها معها ، هى التى تضطرنى ـــ بطريقة ما ـــ إلى الإقدام ، مهما أعرف أنها متهتكة ، ومهما أشعر عن شبه يقين بأنها ستتلقى محاولتى بالقبول !

ولقد اشتد اضطرابى حتى أننى ، لعجـــزى عن إشـــباع رغباتى ، أخذت استثير هذه الرغبات بأكثر التصرفات شذوذا .. فكنت أهيم فى الأزقة المظلمة والدروب المستخفية ، حيث يحتمل أن يتاح لى أن أعرض نفسى على التسوة بالشكل الذى كنت أرجو أن أكون عليه معهن !.. على أن ما كن يرينه منى لم يكن منكرا مستقبحا ، فما خطر ببالى قط مثل هذا ، وإنمـــا كان ما يرينه سخفا ونزقـــا . ولا سبيل إلى وصـــف السرور الأرعن الذى كنت استشعره من جراء عرضه عليهن !.. ولم يكن باقيا أمامى سوى خطـــوة ضرورية أخرى ، ثم اكتسب خبرة واقعية بالمعاملة التى كنت أشتهيها . ولو أننى أوتيت جلدا على الانتظار ، لما كان ثمة شك فى أن يمر بى شخص لديه من الجراة ما يكفى لأن ينيلنى المتعة المنشودة !.. ولقد أفضت بى حماقتى إلى ورطة كانت خليقة بأن تكون مضحكة لولا أنها لم تكن مما يلائمنى !

ففى ذات يوم ، اتخذت مكانى فى مؤخرة ساحة قصر ، كانت بها بئر اعتادت بنات الدار أن ينقلن منها المـــاء . وكان فى تلك

البقعة منحدر بسيط يقـود إلى مخزن ( كرار ) خـلال مداخل عدة ، ففحصت ـ فى الظـلام ـ هـذه الدروب الممتدة تحت مستوى الأرض ، حتى إذا وجدتها طويلة ومعتمة ، استنتجت عدم وجود منفذ منها إلى الخارج ، وأن بوسعى أن أجـد فيها مخبأ أمينا إذا أنا شوهدت وطوردت . وإذ اطمأننت ، أخذت أعرض على الفتيات ـ اللاتى كن يفدن إلى البئر ـ منظرا أدعى إلى الضحك منه إلى الاغواء فكان أكثرهن احتشاما يتظاهرن بأنهن لم يرين شيئا ، بينما شرعت بعض الفتيات فى الضحك ، واستاءت أخريات فأحدثن جلبة .. وهرعت إلى مخبئى ، وإذا بى أشعر بمن يتبعنى ، وسمعت صوت رجل ـ وهو أمر لم أكن أتوقعه ، وقد أفزعنى ـ فاندفعت فى المسارب الممتدة تحت الأرض ، معرضا نفسى لأن أضل السبيل ، ولكن الضجيج ، والأصوات ، وصوت الرجل بالذات ، ظلت تتبعنى .. وكنت أعول باستمرار على الظلمة ، وإذا بى أرى ضوءا ، فارتجفت ، وأمعنت فى الإيغال فى الظلام ، وإذا بجدار يستوقفنى ، حتى إذا عجزت عن التقدم ، اضطررت إلى أن أتبع فى انتظـار مصيرى . وإن هى إلا لحظة حتى أمسك بى رجل طويل ذو شاربين كثين وقبعة كبيرة وسيف طـويل ، تحف به أربع أو خمس نسوة عجوزات ، تسلحت كل منهن بيد مكنسة ، وبينهم جميعا لمحت الشقية الصغيرة التى كشفت أمرى ، والتى كانت تبغى ـ دون ريب ـ أن تتشفى فى وجها لوجه !

وسألنى الرجل ذو السيف بخشونة ، وهو ممسك بذراعى ، عما كنت أفعل فى ذلك المكان . ومن اليسير تصور أننى لم أجد

شونة ، وهو ممســـك
ا في ذلك المـــكان ☜

جوابا حاضرا ، على أننى ما لبثت أن تمالكت جأشى ، وفى غمرة اليأس الذى ألم بى فى تلك اللحظة الحرجة ، انتحلت عـذرا خياليا لقى نجاحا ، فقد توسلت إلى الرجل فى لهجة ضارعة أن يرحم سنى وحالى ، وقلت إننى كنت شابا غريبا ، من أصـل طيب ، وقد أصبت بلوثة ، واضطررت إلى الفـرار من أهلى لأنهم أرادوا أن يحبسونى ، وأننى ضائع لا محالة إذا هو وشى بى .. أما إذا تركنى أنصرف ، فقـد أستطيع يوما أن أجزيه لقاء كرمه . وعلى النقيض من كل ما توقعت ، أحدثت كلماتى ولهجتى أثرها ، فاذا بقلب الرجل الرهيب يلين ، وبعد أن وجه إلى توبيخا قصيرا ، تركنى أنصرف فى سلام ، دون أن يمضى فى سؤالى ! وأدركت من مسلك الفتاة والعجوزات ـ حين رأيننى أنصرف ـ أن الرجل الذى خفت منـه كل ذلك الخوف ، كان عظيم النفع لى ، وأننى ما كنت لأفلت بهذه السهولة لو تركت للنسوة وحدهن ! فقد سمعتهن يتمتمن بحديث لم أكـد ألقى إليه بالا ، فقد كنت أشعر ـ ما دام الرجل وسيفه لم يتدخلا فى الأمر ـ باعتداد ، ونشاط ، وقوة تمكننى من الإفلات منهن ومن هراواتهن !

وبعد أيام قلائل ، بينما كنت أسير فى إحدى الطرقات ، مع رئيس أحد الأديرة المجـاورة ، كدت أصـطدم بالرجل ذى السيف !.. وعرفنى الرجل ، فقال يقلدنى بلهجة ساخرة : « إننى أمير ، إننى أمير ، وإنى لجبان .. ولكن ، حذار من أن يعود صاحب السمو مرة أخـرى ! » . ولم يزد على ذلك ،

بينما نكست أنا رأسى ومضيت فى طريقى دون أن أجسر على التطلع إليه ، وأنا أحمد له ـ فى قرارة قلبى ـ حكمته وتسامحه. وحدست أن العجوزات اللعينات قد عيرنه بسذاجته إذ صدق روايتى ! وكيفما كان الأمر ، فانه كان رجلا طيبا ، برغم أنه من (بييمونت) ، وما تذكرته قط إلا وشكرت له صنيعه، لأن قصتى كانت ساذجة ، وكان أى امرىء فى مكانه خليقا بأن يعيرنى بها ، ولو رغبة فى إثارة الضحك . ومع أن هذه المغامرة لم تنته إلى العواقب التى كنت أخشاها ، إلا أنها جعلتنى ألزم الحذر وقتا طويلا !

وكانت إقامتى لدى مدام دى فيرسيللى قد اكسبتنى بعض المعارف الذين وثقت صلاتى بهم أملا فى أن يستطيعوا لى نفعا. وكان بين الذين أخذت أزورهم منهم ، راهب من أبناء (سافوا) يدعى السيد «جايم» كان معلما لأبناء « الكونت دى ميللاريد ». وكان لا يزال شابا ، وقد اعتاد أن يختلط قليلا بالمجتمع ، ولكنه كان مفعما بالإدراك السليم ، والأمانة ، والذكاء ، كما كان من أشرف الرجال الذين عرفتهم . ولم يكن ذا نفع لى فى الغرض الذى حملنى على زيارته ، إذ لم يكن لديه أى اهتمام يدفعه إلى أن يبحث لى عن منصب . بيد أننى اكتسبت منه منافع أكثر قيمة من ذلك . إذ ظل نفعها يلازمنى طيلة حياتى .. اكتسبت منه دروسا فى الأخلاق القويمة ومبادىء الإدراك السليم . فلقد كنت ، فى ميولى وأفكارى المتقلبة ، أسرف فى الارتفاع أو أسف

فى الانحدار .. فأنا إما « أخيل » أو « ثيرسايتز »(١) .. كنت بطلا فى بعض الأحيان ، وتافها ـ امعة ـ فى أحيان أخرى ؛ وقد آلى السيد «جايم» على نفسه أن يردنى إلى مكانى اللائق بى ، وأن يطلعنى على نفسى فى ألوانها الحقيقية ، دون ما إسراف أو تثبيط . كان يحدثنى عن مواهبى فيوليهـا ما كانت جديرة به من تقدير ، ولكنه كان يضيف إلى ذلك انه كان يرى عقبات تنبعث منها وتحول بينى وبين الإفادة منها على خير وجـوه الإفادة ، ومن ثم فانها خليقة بأن تكون أقل نفعـا لى ، كسلم ارقى عليها إلى الثروة والحظ ، منها كأداة تغنينى عن هـذا الحظ وهذه الثروة !.. وبسط الراهب أمامى صورة صادقة للحياة الإنسانية ، التى لم تكن لدى عنها سوى أفكار زائفة ، فأرانى كيف يستطيع الرجل العاقل أن يكافح من أجل السعادة ـ وسط تيارات القدر المعاكسة ـ وأن يدفع زورق حيـاته برغم الرياح المضـادة ، لكى يصل إليها . وبين لى كيف انه لا وجود للسعادة الحقة بدون الفطنة والدراية ، وأن هـذه

---

(١) « اخيل » بطل اغريقى ، هو الشخصـية الرئيسية فى « اليـاذة » هوميروس . وكان من اشجع وأجمل ابطال الاغريق ، وقد اشترك فى حرب طروادة . أما « ثيرسايتز » فكان أقبح أبطال هذه الحرب وأكثرهم شراسة وجدالا ، وقد قتله أخيل . والذى يقصده « روسو » من عبارته هنا أنه كان لا يعرف اعتدالا فى تلك الفترة من حياته ، فهو اما مسرف فى الشجاعة ونبل النفس ، واما مسرف فى بشاعة الروح وشراسة الخلق والرغبة فى الجدال عن حق أو عن باطل !

الفطنة أو الدراية تتعلق بكل ظروف الحيـــاة . وبدد محدثى إعجابى بالعظمة والأبهة الظـــاهرتين ، إذ أثبت لى أن اولئك الذين يتبواون الحكم بين الناس ليسوا أسعد ولا أوفر حكمة وعقلا من المحكومين .. كذلك انبأنى بشىء ، كثيرا ما تذكرته منذ ذلك الحين : لو أتيح لكل امرىء أن يطلع على قلوب غيره من البشر جميعا ، لاتضح أن عدد الراغبين فى الهبـــوط يفوق عدد الراغبين فى الصعود فى هذه الحياة ! وهذا الخاطر ـــ الذى يذهل صدقه العقل ، والذى لا ينطوى على مغالاة ـــ ظل ذا نفع كبير لى خلال مجرد حياتى ، إذ ساعدنى على أن أعيش راضيا بمكانى فى الحياة ! .. لقد أطلعنى هـــذا الراهب على أول الأفكار الصحيحة عما هو مشرف ، ممـــا لم يتح لذكائى المتضخم أن يلم به إلا فى أكثر صوره مغالاة ومبالغة . فجعلنى أشعر بأن حب الفضائل السامية نادرا ما يرى فى المجتمع .. وأن المرء إذ يحاول أن يسرف فى العلو ، يغدو معرضا لخطر السقوط .. وأن تعود أداء الواجبات الضـــئيلة باستمرار ، وعلى خير وجه ، لا يتطلب مجهودا اقل من ذاك الذى تتطلبه أعمال البطولة ، ولكن المرء يكسب من الأولى تبجيلا وهنـــاء يفوقان ما يكسبه من الأخيرة .. وأن استمتاع المرء بتقدير أبناء جلدته فى جميع الأوقات ، يفوق على طول الخط استمتاعه بإعجابهم فى مناسبات عابرة !

وفى سبيل تحديد واجبات الإنســـان ، كان لابد من العودة إلى أصول تلك الواجبات .. كما أن الخطوة التى اتخذتها قبل ذلك مباشرة ، والتى كانت حالى الراهنة من نتائجها ، أفضت

بنا إلى الحديث فى الدين . ومن الممكن أن يتصور القارىء عند هذا الحد أن السيد جايم الفاضل ، هو ـ إلى حد كبير على الأقل ـ الأصل الذى قبست عنه شخصية « أسقف سافوا » (١)

ولم يكن يقتصد فى صراحته وانطلاقه فى الحديث ، إلا فى نقاط معينة كانت الحكمة تلزمه فيها بأن يكون أكثر تحفظا فى كلامه . وفيما عدا ذلك ، كانت عظاته وأحاسيسه وآراؤه هى هى لا تتبدل ، وكان كل شىء ـ حتى نصحه لى بالعودة إلى أهلى ـ يتسم بما صورته به للرأى العام منذ ذلك الحين . لذلك ، فلا حاجة إلى التوسع فى سرد محادثاتنا ، إذ أن مادتها فى متناول كل امرىء ، وإنما أكتفى بأن أقول إن دروسه ـ التى لم يؤت ما فيها من حكمة ثماره فى البداية ـ أصبحت من بذور الفضيلة والدين التى لم تذو قط فى فؤادى ، والتى لم تحتج إلى أكثر من رعاية يد أخرى عزيزة حبيبة ، كى تثمر وتزدهر !

ومع أن تحولى إلى العقيدة الكاثوليكية لم يكن ـ فى ذلك الحين ـ تحولا كاملا ، إلا أن هذا لم يحرجنى فى شىء . وبدلا من أن أشعر بالملل من أحاديث السيد جايم ، وجدتنى أشغف بها لوضوحها وبساطتها ، ولذلك القدر من حرارة القلب التى كنت أحس أنها تزخر بها .. ولقد أوتيت طبعا ودودا ، وكان تعلقى بالناس دائما ، بسبب الخير الذى أدوه لى ، أقل من تعلقى بهم من جراء الخير الذى كانوا يرجونه لى . ونادرا ما أخطأ شعورى تقدير هذا الأخير . وكذلك كنت صادق الميل

---

(١) أسقف سافوا هو أحد شخصيات كتاب روسو المعروف : « اميل » .

للسيد جايم ، فكنت فى الواقع تلميذه الثانى ، وكان لهذا الأمر ـ فى تلك الفترة ـ فائدة لا تقدر ، إذ حال بينى وبين الميل إلى الرذيلة التى كان تعطلى عن العمل يجتذبنى إليها !

وفى ذات يوم ، تلقيت استدعاء من الكونت ديلا روك ، وكان هذا آخر ما أتوقعه . فان الزيارات العديدة التى قمت بها دون أن أتمكن من الحديث إليه ايأستنى منه ، فكففت عن الذهاب إلى داره ، وظننت أنه نسينى ، أو أنه احتفظ بفكرة سيئة عنى . ولكنى كنت مخطئا ، فانه كان قد شهد ـ أكثر من مرة ـ السرور الذى كنت أؤدى به واجباتى لعمته .. بل إنه ذهب إلى حد أن حدثها عن هذا السرور ، كما أنه تكلم معى بشأنه فى وقت كنت قد نسيته فيه !.. ولقد تلقانى فى رفق ، وانبأنى بأنه رأى أن يدبر لى بالفعل منصبا ـ بدلا من أن يمنينى بوعود لا تقترن بتنفيذ ـ وأنه قد وفق فى مسعاه ، وسيعيننى فى منصب يمكننى من أن أغدو إنسانا ذا قيمة ، وأن ما بقى بعد ذلك رهن باجتهادى . فان الأسرة التى سعى لى عندها كانت ذات نفوذ ومكانة ، ولن أحتاج إلى وساطة أخرى لديها. ثم أضاف أننى ـ وإن كنت سأعامل فى البداية كخادم ، كما كان شأنى من قبل ـ إلا أننى خليق بأن أطمئن إلى أنهم على أتم استعداد لأن لا يستبقونى فى هذا المركز إذا ما استطاع خلقى وسلوكى أن يحملاهم على أن يروا أننى أصلح لعمل أفضل . وخيبت خاتمة الحديث بقسوة ما أوحت إلى به بدايته من آمال مشرقة ، فقلت لنفسى : « ماذا ؟.. أظل خادما دائما ؟! » ، وخامرنى إحساس بسخط مرير ، لم تلبث الثقة

أن محته ، فقد شعرت بانني أقل صلاحية لمثل هذا المركز من أن أخشى أن أظل فيه ! (١)

واصطحبني محدثي إلى الكونت دي جوفون رئيس ركائب الملكة ، وكبير بيت «سولار» الباذخ ، فاذا الروح الشماء التي اتصف بها هذا الرجل الوقور تضاعف من أثر حفاوته. وسألني في اهتمام ، فأجبته في إخلاص صادق . وقال للكونت ديلا روك أن لي ملامح تروق للعين ، وتبشر بالذكاء ، وأنه ـ في الواقع ـ لا يرى أنني تنقصني هذه الموهبة ، ولكنها ليست كل شيء ، ومن ثم فقد كان من اللازم أن يرى ما كنت عليه في كافة النواحي الأخرى . ثم التفت نحوي وقال : « إن البداية شاقة في كل الأمور تقريبا يا صغيري ، على أن مشقتها لن تذهب ـ في حالتك ـ إلى مدى بعيد . كن أريبا ، واسع إلى إرضاء كل واحد هنا ، وهذا كل ما عليك أن تفعله في الوقت الحاضر . وفيما عدا هذا ، كن مقداما ، تجد رعاية ! » .. وذهب بعد ذلك مباشرة إلى المركيزة « دي بريي » ـ زوجة ابنه ـ فقدمني إليها ، ثم قدمني إلى الأب دي جوفون ، ابنه .. ولاحت لي هذه البداية مؤذنة بالخير ، فقد كنت من التجربة بحيث أدرك أن الخدم لا يلقون كل هذه الحفاوة . والواقع أنني لم أعامل كواحد من الخدم ، بل كنت أتناول وجباتي على مائدة وكيل

---

(١) يقصد أن قلة صلاحيته لمنصب الخادم كانت كفيلة بأن لا يتقن مهامه اتقانا يرضي مخدوميه ، وهذا يؤدي إلى احدى نتيجتين : اما أن يسرحوه ، واما أن يقدروا أن مواهبه تؤهله لمنصب أرقى .

اعمال الكونت ، ولم أكن أرتدى الزى المخصص للخدم . وعندما أرادنى الكونت دى فارفريا ـ وهو شاب أحمق خاوى الرأس ـ على أن أركب فى مؤخرة عربته ، حرم جده ركوبى خلف عربة أى فرد ، أو قيامى بخدمة أحد خارج الدار ! على أننى كنت ـ فى الدار ـ اتكفل بالخدمة على المائدة ، وأمارس كافة واجبات الخدم تقريبا ، بيد أننى كنت أقوم بذلك متطوعا إلى حد كبير ، دون أن أكون ملحقا بخدمة فرد معين . وفيما عدا كتابة بعض الخطابات التى كانت تملى على ، وتسجيل بعض الحسابات للكونت دى فارفريا ، فاننى كنت حر التصرف فى وقتى طيلة اليوم تقريبا . وكان هذا ( الامتحان ) الذى لم أفطن إليه ، عظيم الخطورة فى الحقيقة ، بل إنه كان بعيدا عن الرحمة ، لأن هذا الفراغ الطويل كان خليقا بأن يقودنى إلى رذائل ما كان لى أن أقارفها . على أن هذا لم يحدث ، لحسن حظى ، إذ أن دروس السيد جايم كانت قد خلفت أثرا مطبوعا على قلبى ، وقد تولانى ميل إليها كان يدفعنى ـ فى بعض الأوقات ـ إلى أن أتسلل فأذهب للاصغاء إليها ثانية . واعتقد أن أولئك الذين كانوا يرونني أبارح الدار سرا ، لم تكن لتخطر ببالهم أقل فكرة عن المكان الذى كنت أذهب إليه . وما كان ثمة ما هو أحكم من النصيحة التى أزجاها الراهب إلى بصدد مسلكى : فلقد بدأت عملى بداية تدعو إلى الاعجاب ، وابديت من الاجتهاد ، واليقظة والتحمس ، ما سحر كل امرىء . فنصحنى الراهب ـ عن فطنة ـ بأن أخفف من اندفاع الشباب ، خشية أن يخف من تلقاء نفسه تدريجا ، مما قد

يسترعى الانتباه . وقال : « إن القاعدة بأن يقاس تصرفك بالقـــدر الذى بدأت به ، فحـــاول أن تدبر أمرك بحيث يزداد جهدك بمضى الزمن ، ولكن حذار من أن يقل مجهودك يوما عنه فى اليوم الذى سبقه ! » .

وإذ لم يتجشم أحد عنـــاء اكتشاف مواهبى المسكينة ، ولما لم أكن قد اعتبرت ذا مواهب ســـوى تلك التى أضفتها على الطبيعة ، لذلك لم يبد لى أن أحدا قد فكر فى أن يفيد منى ، برغم ما كان السيد جوفون قد أنبأنى به . وما لبثت أن جدت أمور جعلتنى منسيا تقريبـــا .. وفى ذلك الحين كان « المركيز دى بريى » ، ابن « الكونت دى جوفون » ، سفيرا فى فينا . وقد وقعت أحداث فى البلاط تركت آثارا محسوسة فى الأسرة ، فاذا بكل فرد يظل فى حالة انفعال لبضعة أسابيع ، مما لم يدع لأحد وقتا لأن يفكر فى شأنى . على أننى لم أكن قد خففت من حميتى فى العمل ـــ حتى ذلك الحين ـــ إلا قليلا . وكان ثمـــة أمر أفادنى وأضر بى فى آن واحـــد : أفادنى فى أنه حفظنى من المغريات الخارجية .. وأضر بى فى أنه جعلنى أقل انتباها إلى واجباتى بعض الشىء !

كانت الآنسة « دى بريى » شابة فى مثل سنى ، بديعـــة التكوين ، مليحة المنظر إلى حد كبير ، نضرة المحيا ، ذات شعر حالك السواد .. ومع أنها كانت سمراء ، إلا أنها أوتيت مظهرا رقيقا تمتاز به الشقراوات عادة ، ولم يكن قلبى يقـــوى على مقاومته إطلاقا ! وكان الزى الذى ترتديه كعضو فى البـــلاط الملكى يلائم الشباب تمامـــا ، ويبدى قوامها الجميل فى أبهى

مظاهره ، ويترك صدرها وكتفيها عارية ، ويجعل بشرتها أكثر فتنة ، نظرا للحداد الذى كانت تتسم به ثياب الحاشية فى ذلك الوقت . وقد يقال إنه ليس من شأن الخادم أن يلاحظ هـذه الأشياء ، وقد كنت مخطئا بلا ريب ، ولكنى لاحظتها جميعـا مع ذلك ،و لم أكن الوحيد الذى لاحظها . فقد كان كبير الخدم، والوصفاء ، يتحدثون عنها على المائدة أحيانا ، فى لهجة خشنة كانت تؤذى شعورى بدرجة قاسية . ومع ذلك فان عقلى لم يفقد اتزانه فيوقعنى فى الحب بكل سهولة ، بل اننى لم أنس نفسى ، ولم أنس مكانى ومركزى ، كما أن رغباتى لم تكن تلقى من الحرية أكثر مما ينبغى !.. وإنما كنت أحب أن أرى الآنسة دى بريى ، وأن أسمعها تنطق ببضع كلمات تكشف عن ذكائها وحسن إدراكها وتواضعها . ولقد اقتصر طموحى على متعة القيام بخدمتها ، فلم أتجـاوز حدودى . وكنت انتهز الفرص دائما ـ عندما تجتمع الأسرة حول المـائدة ـ لتعزيز هـذه الحدود ، فاذا بارح خادمها الخاص مكانه خلف مقعدها لحظة ، بادرت لفورى إلى شغل مكانه . وفيما عدا ذلك كنت اتخـذ موقفى فى مواجهتها ، وأحدق فى عينيهـا لأرى ما توشك أن تطلبه ، وأرقب اللحظـة المناسبة لابدال طبقها .. وأى شىء كنت أحجم عن اتيـانه لو أنهـا تنازلت فالقت على امرا ، أو نظرت إلى ، أو وجهت إلى كلمة واحدة ؟!.. ولكن ، لا ! كان مقضيا على بألا أكون شيئا يذكر لديها ! بل إنها لم تكن تلاحظ وجودى ! ومع ذلك فقد حدث فى إحدى المناسبات أن وجـه أخوها ـ الذى اعتاد أن يكلمنى أحيانا وهو جالس إلى المائدة

ـ عبارة غير مهذبة إلى ، فرددت عليه بكلمات منتقاة ، دقيقة التعبير ، إلى درجة جعلت الآنسة تنتبه فتحول بصرها نحوى . ومع أن هذه النظرة كانت خاطفة ، إلا أنها سحرتنى !.. وفى اليوم التالى ، سنحت فرصة للفوز بنظرة ثانية ، فسارعت إلى استغلالها : فلقد أقيمت وليمة عشاء كبرى لمناسبة معينة ، فرأيت أثناءها ـ لأول مرة ـ أن رئيس الخدم كان يرتدى قبعته على رأسه ، وسيفه إلى جانبه ، مما أدهشنى ! وتحول الحديث مصادفة إلى العبارة التى كان بيت « سولار » يتخذها شعارا ، والتى كانت منقوشة على الرسم الذى تألف منه رمز الأسرة وهى عبارة :

. Tel fiert qui ne tue pas

ولما كان أهل ( بييمونت ) غير متفقهين فى اللغة الفرنسية ، فقد أشار واحد من الحضور إلى وجود غلطة هجائية فى الشعار ، وأعلن أنت يجب ألا يكون ثمة (T) فى كلمة fiert . وهم كونت دى جوفون الشيخ بأن يجيب ، لولا أن لاحت منه نظرة نحوى ، فرآنى أبتسم دون أن أجسر على أن أقول شيئا ، فأمرنى بأن أتكلم . ومن ثم قلت إننى لا أعتقد أن حرف (T) لم يكن ضروريا ، إذ أن الكلمة من الفرنسية القديمة ، وليست مشتقة من ferus ، ( ومعناها متكبر أو متوعد ) ، وإنما كانت مشتقة من ferit ، ومعناها يضرب أو يجرح . ومن ثم فإن معنى الشعار ـ كما بدا لى ـ لم يكن : كم من رجال توعدوا ، وإنما .. كم من رجال ضربوا ولم يقتلوا !

والتفت أفراد الجماعة بأسرهم نحوى ، ثم التفتوا إلى أنفسهم ،دون أن ينبسوا ببنت شفة . أبدا ما رأيت فى حياتى مثل هذه الدهشة ! ولكن أكثر ما استخف زهوى ، هو انى رأيت من أسارير الآنسة« دى بريى » أنها كانت جد مسرورة. وتنازلت هذه السيدة الشابة المترفعة فرمقتنى بنظرة ثانية كانت مساوية ـ على الأقل ـ للأولى ، ثم أدارت عينيها نحو جدها . وبدا أنها كانت تنتظر ، فى شىء من عدم الصبر ، المجاملة التى كنت أستحقها ، والتى قدمها الجد إلى ـ فى الحق ـ كاملة وافية ، وفى مظهر من الرضى جعل الحضور يسارعون جميعا إلى الانضمام إليه . وكانت اللحظة وجيزة ، ولكنها كانت من أعذب اللحظات من جميع الاعتبارات . كانت من تلك اللحظات التى لاتسنح إلا نادرا جدا ، والتى تضع الأمور فى نصابها الطبيعى وتعوض إهانات القدر ، وتثأر للكفاءة التى لم تكن تلقى تقديرا . وبعد دقائق معدودة ، سألتنى الآنسة دى بريى فى صوت واهن مستحى ـ وهى ترفع عينيها نحوى مرة أخرى ـ أن أناولها بعض الشراب . ولست بحاجة إلى أن أقول إننى لم أدعها تنتظر ، ولكنى ارتجفت بعنف وأنا أقترب منها ، حتى أننى أرقت بعض الماء على طبقها ، بل وعليها . وسألنى شقيقها ـ فى غباء ـ عن السر فى ارتجافى. ولم يفلح هذا السؤال فى أن يرد إلى جلدى ، بينما تضرج وجه الآنسة دى بريى حتى طغى الاحمرار على بياض عينيها !

وعند هذا انتهت هذه المغامرة الغرامية التى يلاحظ منها

ـ كما كان الأمر فى حالة مدام بازيل وخلال بقية حياتى ـ أنى لم أكن سعيدا فى ختام غرامياتى ! .. وعبثا صرت أبدى اهتماما بالحجرة الملحقة بمخدع مدام دى بريى ـ الأم ـ فاننى لم أحظ بأية بادرة اخرى تنم عن انتباه ابنتهـا إلى ! فقـد كانت تلج الحجرة وتغادرها دون ان تنظـر إلى .. كمـا اننى ـ من ناحيتى ـ كنت لا أكاد أجسر على أن اتجـه بعينى نحوها . بل لقد بلغ من غبائى وارتباكى اننى عنـدما وقع منها قفازها وهى تمر بى ذات يوم ، لم أجسر على مبارحة مكانى ، بدلا من أن اندفع لالتقاط هـذا القفاز الذى كنت أتمنى أن أكسـوه بقبلاتى ، وتركت وصيفا فضوليا ـ كنت على استعداد لأن أخنقه بكل سرور ـ يلتقطه !.. وممـا ضاعف انفعالى ، أن تبينت اننى لم أحظ بارضاء مدام دى بريى ، فلم تقتصر على عدم إصدار أوامر إلى ، بل انها لم تعد تتقبل خدماتى البتة ، وسألتنى بلهجة فاترة إذ وجدتنى فى الحجرة الملحقة بمخدعها ـ فى مناسبتين ـ عما إذا كنت لا أجد عملا آخر يشغلنى ؟ ومن ثم اضطررت إلى تجنب هذه الحجرة . وقد تحسرت على ذلك فى البداية ، ولكن الشواغل تدخلت فسرعان ما كففت عن التفكير فيها !

وسرى عنى برود «مدام دى بريى» كرم حميها ، الذى انتبه أخيرا إلى وجودى : ففى ليلة المأدبة التى ذكرتها ، تبادل معى حديثا عقب العشاء لنصف ساعة . وبدا أن الحديث أرضاه ، فطربت لذلك . كان هذا الشيخ الطيب أرق قلبا من مدام دى فيرسيللى ـ وإن لم يكن موهوبا مثلها ـ وقد كنت معه أحسن حالا مما كنت معها ، وقد طلب إلى أن أكون خادما خاصا للأب

دى جوفون ـ الذى كان يولينى بعض الاعتبار ـ عسى أن يفيدنى ذلك إذا أنا أحسنت استغلاله، فيساعدنى على اكتساب ما كان ينقصنى حتى يهيئنى لما كانوا يعتزمونه لى . ومن ثم أسرعت ـ فى الصباح التالى ـ إلى الراهب ، فلم يستقبلنى كخادم ، وإنما حملنى على الجلوس إلى جانب المدفأة ، وأخذ يسألنى بأعظم لطف ، فسرعان ما تبين أن تعلمى ـ الذى كنت قد بدأته فى كثير من الأمور ـ لم يكن مكتملا فى أى شىء . وحين وجد أننى كنت ـ بوجه خاص ـ على إلمام قليل باللغة اللاتينية ، تكفل بتلقينى مزيدا منها . واتفقنا على أن أذهب إليه فى كل صباح ، فبدأت من الصباح التالى مباشرة وهكذا كنت ـ باحدى تلك المصادفات الغريبة التى ستظهر كثيرا فى مجرى حياتى ـ فوق مكانتى وتحتها فى آن واحد ! كنت تلميذا ووصيفا فى بيت واحد ! وبينما ظللت خادما ، حظيت بمدرس كان نبل محتدة خليقا بأن يجعله أستاذا لأبناء الملوك ، ولا أقل منهم !

كان الأب دى جوفون ابنا أصغر فى أسرته ، أعده أهله ليكون أسقفا ، ولهذا السبب فان دراساته لم تذهب إلى أبعد من القدر المعتاد لدى أبناء علية القوم . فقد أوفد إلى جامعة ( سيينا ) ، حيث مكث عدة سنوات ، عاد بعدها بجرعة قوية من العناية الدقيقة بانتقاء الألفاظ ، ومن ثم فانه كان يؤدى فى ( تورين ) نفس الدور الذى كان يؤديه الأب دى دانجو(١) فى

---

(١) الأب دى دانجو كان من أعضاء المجمع اللغوى الفرنسى ـ الاكاديمى فرانسيز ـ فى منتصف القرن السابق على تلك الفترة ، وقد ألف رسائل فى قواعد اللغة الفرنسية .

باريس . وقد دفعه كرهه لعلوم اللاهوت إلى دراسة الآداب، وهو أمر جد مألوف فى إيطاليا لدى أولئك الذين يتعلمون ليشغلوا مناصب دينية . وقد قرأ إنتاج الشعراء فى اهتمام ووعى ، وكتب أشعارا لاتينية وإيطالية مقبولة . وبإيجاز ، كان لديه ذوق كاف لأن يشكل ذوقى ، ويدخل شيئا من التنظيم على الركام المهوشى الذى كان رأسى محشوا به . على أنه ـ اما لأن ثرثرتى أعطته فكرة زائفة عن درايتى ، أو لأنه لم يكن يطيق مبادىء اللاتينية المضجرة ـ قد جعلنى أبدأ بداية تفوق المستوى الذى كنت فيه بكثير ، وما أن جعلنى أترجم بضع أساطير عن « فيدروس » ، حتى زج بى فى أشعار «فيرجيل» التى لم أكد أفقه منها شيئا ! ولقد كان مقدورا على دائما ـ كما سيتجلى فيما بعد ـ أن أشرع فى تعلم اللاتينية من جديد ، أكثر من مرة ، دون أن أسير فى الشوط إلى غايته . على أننى ، فى هذه المرة ، اجتهدت فى حمية ، فأخذ الراهب يسبغ اهتمامه على فى عطف لا أستطيع ـ حتى اليوم ـ أن اذكره دون أن يخفق قلبى تأثرا !.. صرت أقضى شطرا كبيرا من فترة الصباح معه لأتلقى العلم ولأؤدى للسيد الخدمات . ولم تكن هذه الخدمات شخصية ، فما سمح لى البتة بأن أؤدى هذا النوع ، وإنما كنت اكتب ما يمليه على وانسخ ما يعهد به إلى ، فكانت واجباتى كسكرتير أكثر نفعا لى من دراساتى كتلميذ !.. فاننى ـ بهذه الطريقة ـ لم أتعلم الإيطالية فى أرقى أساليب بلاغتها فحسب ، وإنما اقتبست ذوقا أدبيا ، واكتسبت بعض المعرفة بالكتب الجيدة التى كان من المستحيل

الحصول عليها من مكتبة « لاتريبو » ، والتى كانت عظيمة النفع لى فيما بعد ، عندما شرعت فى الاعتماد على نفسى فى التاليف !

تلك كانت الفترة الوحيدة فى حياتى التى كان من المعقول أن أطمع فيها فى النجاح ، دون ما مشروعات خيالية ! .. واخذ الراهب ـ الذى كان جد راض عنى ـ يحدث كل شخص عن ذكائى . وأولانى أبوه تقديرا خاصا ، حتى لقد ذكر لى الكونت دى فاغريا انه تحدث عنى إلى الملك !.. حتى « مدام دى بربى » تخلت عن مسلكها المهين نحوى . وبإيجاز ، أصبحت ذا حظوة فى الدار ، مما أثار غيرة الخدم الآخرين ، الذين أدركوا ـ إذ رأونى أتشرف بتلقى الدروس على يدى ابن مولاهم ـ أنه لم يعد مقدرا لى أن أبقى واحدا منهم !

وبقدر ما أمكننى أن أحدس عن وجهات النظر التى كانت تعالج أمرى ـ من بضع كلمات كانت تلقى إلى فى عجلة ، ولم افكر فيها مليا إلا فيما بعد ـ يبدو لى أن آل « سولار » كانوا تواقين إلى مناصب السفارات ، وربما إلى المناصب الوزارية فى المستقبل ، ومن ثم فقد كانوا على استعداد لأن يتولوا ـ بكل سرور ـ تعليم شخص موهوب ، جدير بالثقة ، يصبح فيما بعد ـ لاعتماده المطلق على أسرتهم فى معاشه ـ مستودع ثقتها ، ويستطيع أن يخدمها باخلاص . وكان هذا المشروع من الكونت دى جونون مشروعا نبيلا حكيما كريما ، جديرا حقا بأن يصدر عن رجل نبيل عظيم كريم بعيد النظر . وغنى عن الذكر أننى ـ إذ ذاك ـ لم أستطع أن أحيط بكل نطاقه ، فقد

كان فوق مستوى إدراكى ، كما أنه كان يتطلب فترة طويلة من التبعيـــة والانصـــياع . وكان طموحى الأرعن لا يرى الحظ الحسن إلا فى وسط المغامرات ! ولما لم يكن لأية امرأة شـــأن بهذا المشروع ، فقد بدت لى هذه الوسيلة من وسائل النجاح بطيئة ومضنية ، وكئيبـــة .. فى حين أنه كان خليقـــا بى أن اعتبرها آمن وأشرف من أية وسيلة أخـــرى ، لنفس السبب الذى ذكرته ، عن عدم تدخل النساء فيها ، فان ذلك النوع من الجدارة الذى تقبل النساء على بسط حمايتهن عليه ، لا يتسم بالطابع الشريف الرفيع الذى يتســـم به النـــوع الذى كان مفترضا أننى أمتلكه !

ومضى كل شىء على أبدع حال ، فاكتسبت احترام الجميع أو بالأحرى انتزعته تقريبا ! وانقضت فترة الاختبار ، وأصبحت مرموقا فى الدار ـــ بوجه عام ـــ كشاب يبشر مستقبله بخير عظيم . ولئن كان قد قدر له الا يشـــغل المركز الجدير به ، فان كل امرىء كان يتوقع أن يرقى إلى هذا المركز . بيد أن مكانتى لم يكن ذاك الذى قدره لى الجميع ، وقد كتب على أن لا أبلغه إلا عن طريق جد وعرة .. وهذا يفضى بى إلى خلة من تلك الخلال الشخصية التى امتزت بها ، والتى لا أحتاج إلى أكثر من أن أبسطها للقارىء دون مزيد من الإسهاب .

ذلك أنه بالرغم من أن ( تورين ) كانت تضم كثيرين سواى ممن اعتنقوا الكثلكة حديثا ، إلا أننى لم أكن أميل إليهم ، ولم أسع قط إلى لقاء أحد منهم . على أننى كنت قد عرفت ـــ فيمن تعرفت إليهم ـــ شخصـــا من أهل ( جنيف ) يدعى الســـيد

« موسار » ، ويلقب بـ « ذى الفم الأعوج » ، وكان من رسامى التحف الدقيقة ، وذا صلة بى . وقد تبين أننى كنت أقيم لدى الكونت دى جوفون ، فجاء ليراتى مع شخص آخر من (جنيف) يدعى «باكل» ، كنت زميلا له حين كنت أتدرب على الحرفة . وكان « باكل » هـــذا مسليا ، شديد المرح ، راوية للفكاهات والنوادر التى كانت تبدو مستملحة لمن فى مثل سنه . ومن ثم ، فان لكم أن تتصـــوروا كيف افتتنت فجأة بالســـيد باكل إلى درجة لم أعد معها أقوى على أن أفارقه !.. وكان قد اعتزم الرحيل عائدا إلى ( جنيف ) بعد وقت قصير ، فيا للخســـارة التى خيل إلى اننى سأمنى بها !.. وإذ تبينت مداها ، رأيت أن أفيد إلى أقصى حد ـ على الأقل ـ من الوقت الباقى قبل رحيله ، فلم أكن أفارق جواره اطلاقا ، أو بالأحرى أنه هو الذى لم يكن يفارقنى ، لأننى ـ فى البداية ـ لم أبلغ من الطيش الحد الذى كان يجعلنى أقضى اليوم كله معه خارج القصر دون إذن . على أنهم سرعان ما تبينوا أنه كان يشغل كل وقتى ، فحرموا عليـــه ولوج الدار ، مما أثار حنقى فنسيت كل شىء عدا صديقى باكل ، ولم أعد أقترب من الراهب أو الكونت ، ولم أعد أشاهد فى الدار ! بل إننى لم أكترث للوم والتأنيب ، فأنذرت بالطرد .. وكان فى ذلك دمارى ، إذ أغرانى بأن من الممكن ألا يرحل « باكل » دون رفيق ! ومنـــذ تلك اللحظة لم أعد أرى مسرة ، ولا مصيرا ، ولا سعادة تفوق القيام بمثل تلك الرحلة ! ومما ضاعف هناءتى المرتقبة ، أن مدام دى فاران لاحت لى فى نهايتها ، ولكن .. على بعد سحيق ، إذ لم يكن

ليخطر ببالى قط أن أعود إلى جنيف بالذات !.. وأخذت رؤى الجبال والمروج والغابات والجداول والقرى تمر أمام ناظرى فى تتابع لا نهاية له ، وقد تجددت مفاتنها !.. وبدا أن هـذه الرحلة قد ابتلعت كل حياتى ، فرحت أتذكر فى ابتهـاج كيف سحرتنى هذه الرحلة وأنا قادم إلى ( تورين ) ، فما بالك إذا ما استمتعت ـ إلى جانب كل سـحر الاسـتقلال ـ ببهجة جديدة ، تتمثل فى صحبة صديق فى مثل سنى وميولى ، أوتى روحا طروبا .. لا سيما وأنه لن تكون ثمة قيود ، ولا واجبات، ولا رقابة ، ولا اضطرار إلى الذهاب او البقاء فى اى مكان ، ما لم يرق لنا ذلك !.. وخيل إلى أن المرء يكون أحمق ولا ريب إذا ما ضحى بمثل هذا الحظ الطيب من أجل خطط طموحه ، بطيئة ، شاقة ، غير مؤكدة التحقق !.. خطط لم تكن ـ حتى إذا سلمنا بأنهـا قد تتحقق يومـا ما ، وبرغم كل اشراقهـا ووميضها ـ لتعادل ربع سـاعة من السرور الحقيقى ومن حرية الشباب !

وإذ تملكتنى هـذه الفكرة الحكيمة ! اقبلت على التصرف بطريقة افلحت فى حمل القوم على فصلى من خدمتهم ، وإن كان هذا لم يتم فى الواقع دون كثير من العنـاء . وهـكذا ، ذات مساء ، أسلمنى رئيس الخدم عند عودتى إلى الدار أمرا من الكونت بفصلى ، وكان هذا هو عين ما رجوت !.. غير اننى كنت ـ بالرغم من نفسى ـ أدرك جموح مسلكى ، وقد اضفت إليه جورا وعقوقا حين خيل إلى اننى بحمل القوم على طردى أستطيع ان القى اللوم على سواى ، وأن أنصف نفسى وأبرئ

مصيرى ، وكأننى كنت مضطرا — بالرغم منى — إلى انتهاج المسلك الذى كنت فى الواقع المسئول الوحيد عنه !

وقبل أن أرحل فى الصباح التالى ، أرسل « الكونت دى فافريا » يدعونى لمقابلته . ولما كانوا يرون أننى فقدت كل تعقل ، وأننى قد لا ألبى الدعوة ، فقد ذكر لى رئيس الخدم أنه سيعطينى بعد تلك المقابلة مبلغا من المال خصص لى ، برغم أننى كنت لا أستحقه بالتأكيد ، وذلك لأنهم لم يكونوا قد قرروا لى أجرا ، نظرا لأنهم لم يكونوا يعتزمون استبقائى فى منصب الخادم !

ومع ما كان عليه الكونت دي فافريا من صغر السن وضآلة التفكير ، فانه تحدث إلى فى هذه المناسبة بما ينم عن وعى وعطف ، بل إننى لأكاد أقول إنه تحدث بحنان بالغ ، وإخلاص صادق ، وفى تلطف يهفو بالقلب ، فأطلعنى على عطف عمه الراهب على ، وعلى نوايا جده بشأنى . وأخيرا .. وبعد أن عرض على بأوضح ما كان فى وسعه ، كل الميزات التى كنت أضحى بها لأندفع نحو هلاكى ، عرض أن يتوسط لى فى البقاء على شريطة أن أتخلى عن ذلك الشاب الشقى الذى أفسدنى. وكان من الجلى أنه لم يقل كل هذا من تلقاء نفسه ، فقد كنت — برغم حماقتى العمياء — شديد الشعور بكل ما كان مخدومى الشيخ يكنه لى من إشفاق ، وقد تأثرت به ، ولكن رحلتى الحبيبة كانت منقوشة بخطوط غائرة على صفحة خيالى ، فلم يكن فى وسع أية مغريات أن تمحوها ! كنت قد فقدت رشدى تماما ، فاشتد عنادى وصلابة رأيى ، وتذرعت بكرامتى ،

وأجبت ـ فى صلف ـ بأننى قد تلقيت أمر فصلى من الخدمة ، وأننى تقبلته ، وأن أوان سحبه قد فات ، وأننى قد عقدت العزم على الا أسمح لنفسى بأن أطرد مرتين من بيت واحد ، مهما تكن العواقب !. وإذ ذاك رمانى الشاب بما استحق من القاب ، وقد ثار عن حق ، وأمسك بكتفى فألقى بى خارج غرفته وأوصد الباب خلفى !.. فانطلقت مزهوا وكأننى أحرزت نصرا باهرا ! وخوفا من أن أضطر إلى احتمال صراع ثان ، تركت للخسة أن تحملنى على الرحيل بدون أن أشكر للراهب كرمه !

ولتكوين فكرة عن مدى ما كان جنونى يسوقنى إليه فى تلك اللحظة ، يجدر بالمرء أن يعرف إلى أية درجة يثور فؤادى بسبب التفاهات البسيطة ، وبأى عنف يندفع وراء الشىء الذى يستهويه ، مهما يكن هذا الشىء خلوا من أية قيمة !.. ذلك أن أغرب الخطط ، وأكثرها طيشا صبيانيا ، وأشدها حماقة ، تتمشى مع الفكرة التى تحلو وتعززها ، حتى اقتنع بحكمة الإقبال على تنفيذها !.. أفهناك من يصدق أن إنسانا ما ـ لم يكد يبلغ التاسعة عشرة من عمره ـ يستطيع أن يشيد آماله فى العيش ، ما بقى من عمره ، على زجاجة فارغة ؟.. إذن فاسمعوا : كان الأب دى جوفون قد أهدانى ـ قبل ذلك بأسابيع قلائل ـ نافورة صغيرة من نافورات هيرو(١) ، اغتبطت بها . وإذ كنا لا نكف عن اللعب بهذه

---

(١) نافورات صغيرة الحجم ، كاللعب ، اخترعها مهندس من أبناء الاسكندرية يدعى « هيرو » .

النافورة ، أثنـــاء حديثنا عن رحلتنـــا خطر لباكل العاقل ، ولى ، أن فى وسع النافورة أن تنفعنا فى إطالة الرحلة ، فأى شىء فى الدنيا أغرب وأدعى لإثارة الفضـــول من نافـــورة هيرو ؟.. وكانت هذه الفكرة هى الأساس الذى بنينا عليـــه صرح خطتنا المقبلة ، فلم يبق علينا سوى أن نجمع فلاحى كل قرية حول نافورتنا ، فينهال علينا الطعام وكل المشتهيات فى وفرة عارمة ـــ فقد كنا نوقن بأن المؤن لا تكلف منتجيها شيئا ، وأن عدم تزويدهم المرتحلين بها ليس سوى شر من ناحيتهم ! ـــ ومن ثم رحنا نتوقع أن نجد أعراسا ومهرجانات فى كل مكان مما يمكننا ـــ دون أن ننفق شـــيئا اللهم إلا أنفاسنا ومياـــه نافورتنا ـــ من أن نكسب نفقات رحلتنا خـــلال ( بييمونت ) و ( سافوا ) وفرنسا .. بل العالم كله فى الواقع !.. وعلى أثر ذلك أخذنا نرسم خططا لا حصر لها لرحلتنا ، ثم رأينا أن نتجه أولا نحو الشمال ، للاستمتاع بعبور الألب !

## ٦ ـــ من سنة ١٧٣١ إلى سنة ١٧٣٢

وهكذا كانت الخطـــة التى شرعت فيها ، هاجرا ـــ دون ما ندم ـــ راعى ، وأستاذى ، ودراساتى ، وآمالى ومستقبلا كان شـــبه مؤكد ، لأبدأ حيـــاة التشرد المنتظم !.. وودعت العاصمة (١) ، والقصر الملكى ، والطموح ، والزهو ، والحب ، والنساء الحسان ، وكل المغامرات المثيرة ، التى حملنى الأمل فى

---

(١) كانت ( تورين ) يومئذ عاصمة امارة ( بييمونت ) .

العثور عليها إلى ( تورين ) قبل ذلك بعـــام .. وانطلقت مع نافـــورتى وصـــديقى « باكل » ، بكيس خفيف ، ولكن بقلب ملىء بالغبطة ، وبال لا يفكر فى شىء سوى استمرار سعادة التجوال التى قصرت عليها بغتة مشروعاتى البراقة . ولقد جعلت هـــذه الرحلة الشـــاذة ملائمـــة بالقـــدر الذى كنت أتوقعـــه ، وإن لم يكن ذلك بنفس الطريقـــة التى اردتهـــا تماما ، ذلك لأنه بالرغم من أن نافورتنا كانت ملهاة لصاحبات الفنادق الريفية وخدمهن لبضع لحظات ، إلا اننا كنا نضطر ـــ مع ذلك ـــ إلى أن ندفع نفقـــات إقامتنـــا إذا ما هممنـــا باستئناف الرحيل . بيد أن هذا لم يزعجنا إلا قليلا ، ولم نفكر فى استغلال النافورة كمورد جدى للدخل ، إلا عنـــدما بدأت نقودنا تنفد . على أن ثمة حادثا أعفانا من العناء ، فقد انكسرت النافورة ونحن على مقربة من ( برامان ) ، والواقع أن الوقت كان قد حان ، إذ كنا قد شعرنا ـــ دون أن نجرؤ على المصارحة ـــ بأن التعب قد بدأ يدب فينا . وقد جعلنا هذا النحس أكثر ابتهاجا من ذى قبل ، فضحكنا كثيرا من غبائنـــا ، إذ نسينا أن ثيابنا واحذيتنا لن تلبث أن تبلى ، وإذ اعتقدنا أن بوسعنا أن نبتاع جديدا غيرها بعرض نافورتنا على الانظار !.. وهكذا تابعنا رحلتنا ونحن فى مثل ما بدأناها فيه من حبور ، وإن يممنا ـــ فى اتجاه مباشر أكثر من ذى قبل ـــ شطر الغاية التى كانت مواردنا المطردة النضوب تحتم علينا بلوغها .

وفى (شامبيرى) بدأت أطيل التفكير ، لا بسبب الطيش الذى أقدمت عليه ـــ فليس من إنسان أقدر منى على تعزية نفســـه

سريعا ، وبشكل كامل ، فيما يتعلق بالماضى — وإنما بسبب الاستقبال الذى كان يرتقبنى لدى مدام دى فاران ، فقد كنت أتطلع إلى منزلها كما لو كان منزلى الخاص . وكنت قد كتبت إليها أنبئها بالتحاقى بالخدمة فى دار الكونت دى جونون ، وقد عرفت مركزى هناك ، وعندما ، هنأتنى أزجت إلى بعض النصائح الجليلة فيما يتعلق بالسلوك الذى يجب أن انتهجه جزاء الكرم الذى أبدى نحوى . ولقد اعتبرت السيدة ان مستقبلى بات مضمونا ، اللهم إلا إذا أفسدته أنا بخطأ منى .. ترى ما الذى ستقوله حين ترانى عند وصولى !.. أبدا لم يخطر ببالى احتمال أنها قد توصد الباب دونى ، ولكنى كنت أرهب الحزن الذى كنت موشكا على أن أسببه لها ، وكنت فى خوف من تأنيباتها ، التى كانت أقسى على نفسى من أعظم شقاء ! فاعتزمت أن أتحمل كل هذا فى صمت ، وأن أبذل كل ما فى وسعى لأهدىء من أساها ، فما كنت أرى لى فى الحياة ملاذا سواها ، وكان احتمال العيش فى خزى منها أمرا مستحيلا !

على أن الشطر الأكبر من قلقى كان بسبب زميلى فى السفر ، فما كنت راغبا فى أن أثقل كاهلها به إلى جانبى ، كما كنت أخشى الا يسهل على التخلص منه ! وقد هيأته للفراق بأن أخذت أعامله — فى اليوم الأخير — بشىء من الفتور ، ففهم الوغد أمرى — فقد كان طائشا أكثر منه غبيا ! — وقد ظننت أن تقلبى سيخز قلبه ، فاذا بى مخطىء ، إذ كان اللعين لا يسمح لشىء بأن يتغلغل إلى قلبه .. فما أن أرسينا أقدامنا

على أرض ( أنيسى ) ، حتى قال لى : « ها أنتذا فى بلدك » ، وعانقنى مودعـــا ، ثم نكص على قدميـــه ، واختفى .. فلم أسمع عنه بعد ذلك البتة ! وقد دام تعارفنا وصداقتنا ستة أشهر فى مجموعهما ، ولكن تبعاتهما ستبقى ما حييت !

* * *

ولشد ما يخفق قلبى وأنا أقترب من دارها ! .. لقد أخذت ساقاى ترتجفان تحتى ، ورانت غشـــاوة على عينى ، فلم أر شيئا ، ولا سمعت شيئا ، وما كان بوسعى أن أعرف شخصا ! .. واضطررت إلى أن أتوقف عـــدة مرات لأتمالك أنفاسى وأسيطر على نفسى . فكان الخـــوف من ألا أحظى بالمعونة التى كنت بحاجة إليها هو الذى أزعجنى بهذا القدر ؟.. وهل يبعث الخوف من الجوع مثل هذا الجزع فى شخص فى مثـــل سنى ؟.. لا ! هذا ما أعلنه فى صدق وكبرياء ، فما استطاع الاهتمام بالنفس ولا استطاعت الحاجة قط ـــ فى أية لحظـــة من حياتى ـــ أن يفتحا قلبى أو يغلقاه !.. ففى مجرى حياتى ـــ غير المستقيم ، والذى تقترن ذكراه بكثرة تعرجاته وانحناءاته ، وبكثرة ما كنت خلاله بلا مأوى ولا خبز ـــ ظللت دائمـــا أنظر إلى الثراء والفقر نظرة سواء ! ولقد كان بوسعى فى أوقات الحاجة أن أتسول أو أسرق ـــ كما يفعل أى امرىء آخر ـــ ولكنى لم أكرب نفسى قط من جراء انحدارى إلى هذا الدرك . وأعتقـــد أن قليلين هم الذين صـــعدوا من الزفرات قـــدر ما صعدت ، وذرفوا من الدموع فى حياتهم مقدار ما ذرفت ، ولكن الفقر أو خوف الانحطاط إليـــه لم يقويـــا قط على أن

أنفث زفرة ، أو أذرف دمعة ! .. إن نفسى ـ التى خلقت فى حصانة ضد الحظ ، فهى لا تتأثر به ـ لم تعرف قط استكانة إلى نعمة .. وعندما لا أفتقر إلى شىء يمكن أن تمس إليه الحاجة ، فذاك هو الوقت الذى أشعر فيه بأننى أشقى المخلوقات ! .

* * *

ما أن مثلت امام مدام دى فاران ، حتى طمأننى مسلكها ! وقد ارتجفت لأول نبرة من صوتها ، وارتميت على قدميهـا . وفى اختلاجات تنم عن أقوى غبطة جياشة ، الصقت شفتى بيدها ! ولست أدرى هل كانت قد سمعت أى نبأ عنى ، ولكن وجهها لم ينم عن كثير دهشة أو استياء ، بل قالت فى صوت حنون : « يا صغيرى المسكين ! أهذا أنت مرة أخرى ؟ كنت أعرف أنك أصغر من أن تقوم بهذه الرحلة . اننى مغتبطة على أية حال لأنها لم تنته إلى ما كنت أخشـــاه ! » .. ثم حملتنى على أن أروى لها قصتى ، التى لم تكن طويلة ، والتى رويتها بأمانة ، وإن كتمت بعض تفصيلات قليلة ، دون أن أتستر على نفسى أو أستميح لها الاعذار !

وكان تدبير المكان الذى أنام فيـــه مشكلة ، فاستشارت وصيفتها . ولم أجسر على أن أتبس ببنت شفة خلال الحديث، ولكنى لم أكد اسمع أن بوسعى أن أنام فى الدار ، حتى كنت أعجز عن تمالك نفسى !.. ورأيت متاعى القليـــل يحمل إلى الغرفة التى عينت لى ، بمثل المشاعر التى رأى بها «سان برو»

محفته تنقل إلى مأوى عربات مدام « دى ولمار »(١) . ومما ضاعف اغتباطى أننى علمت أن هذه الخطوة لم تكن أمرا عابرا ، ففى اللحظة التى كان يبدو على فيها أننى أفكر فى شىء آخر ، سمعت السيدة تقول : « دعيهم يقولون ما يشاءون » ، فقد عقدت العزم ـ مذ ردته العناية الالهية إلى ـ على أن لا أفارقه ! » .

وهكذا استقر بى المقام أخيرا فى دراهما . على أن هذا الاستقرار لم يكن بعد هو ذاك الذى أتخذه بداية لتاريخ الأيام السعيدة فى حياتى ، ولكنه ساعد على تعبيد الطريق إلى ذلك اليوم . فبالرغم من أن هذا الشعور المرهف فى القلب ـ الذى يجعلنا نغتبط بأنفسنا غبطة صادقة ـ هو من صنع الطبيعة ، وربما كان من نتاج نظامها ، فانه يتطلب مواقف معينة تنميه. وبدون الأسباب التى تحدث هذه التنمية ، فان الرجل الذى ولد بحساسية قوية قد لا يشعر أو يحس بشىء ، وربما مات دون أن يعرف قط حقيقة نفسه !.. ولقد كان هذا هو الشأن معى ـ أو ما يقرب منه ـ حتى ذلك الحين . وربما كنت مسوقا إلى أن ابقى كذلك دائما ، لو لم يقدر لى أن أعرف مدام دى فاران، أو لو أننى ـ بعد أن عرفتها ـ لم أقم معها وقتا كافيا لأن استمرىء حلاوة المشاعر الرقيقة الحانية التى الهمتنيها . بل إننى لأجرؤ على القول بأن ذاك الذى لا يشعر بغير الحب

---

(١) « سان برو » و « مدام دى ولمار » من شخصيات قصة روسو الطويلة : « هيلويز الجديدة » .

وحده ، لا يحس بأحلى ما فى الحياة . فأنا أعرف شعورا آخر ربما كان أقل سورة وحرارة ، ولكنه أكثر من الحب متعة الف مرة !.. وهو قد يقترن أحيانا بالحب ، ولكنه كثيرا ما يكون منفصلا عنه . وليس هذا الشعور هو الصداقة البسيطة ، وإنما هو أشد منها عنفا فى غوايته ، وأكثر حنانا فى رقته . ولست أعتقد أن من الممكن الشعور به نحو شخص من جنسك .. وعلى كل حال ، فاننى عرفت الصداقة كما لم يعرفها اى رجل آخر ، ومع ذلك فاننى لم أحس بهذا الشعور فى حضور اى شخص من أصدقائى. وهو شعور غامض خفى إلى حد ما ، ولكنه لا يلبث أن يتضح فيما بعد ، وفيما ينجم عنه ـ فالواقع أنه ليس من سبيل إلى وصف المشاعر بدرجة مرضية ، إلا عن طريق آثارها ونتائجها !

كانت مدام دى فاران تقيم فى بيت عتيق ، بالغ الاتساع بحيث يحتوى على غرفة بديعة تزيد عن حاجة السيدة ، فكانت تتخذ منها حجرة للجلوس . وفى هذه الحجرة أنزلتنى . وكانت تفضى إلى الدرب الذى سبق أن تكلمت عنه ، والذى تم فيه أول لقاء بيننا . وعلى ضفة الجدول المقابلة ، كانت البساتين والريف تبدو للعين . ولم يكن هذا المنظر قليل الشأن بالنسبة للشاب الذى شغل الحجرة ، فقد كانت هذه هى المرة الأولى ـ منذ كنت أقيم فى ( بوسى ) ـ التى رأيت فيها أية خضرة أمام نافذتى ! كنت دائما محوطا بالجدران ، وليس أمام عينى سوى سقوف الدور ، أو سمرة الطرقات الكالحة .. فبأى طرب شعرت بسحر التجديد الذى عزز ميلى إلى المشاعر الرقيقة

الحانية !.. لقد اعتبرت هـذا المنظر الفاتن كلون آخـر من الوان كرم ربة نعمتى العزيزة ، ولاح لى أنها هى التى وضعت كل شىء هناك ، خصيصا من أجلى ، فغرست نفسى هنـاك إلى جوارها ، وقد امتلأت بهناءة وادعـة .. وصرت أرى راعيتى فى كل مكان ، وسط الزهور والخضرة . كانت مفاتنها تمتزج بمفاتن الربيع أمام عينى بطريقة لا يلم بها ادراكى !.. وانتفخ قلبى ـ الذى كان مكبوتا حتى ذلك الحين ـ وامتد فى هذا الفضاء غير المحدود ، وأصبحت زفراتى تجد متنفسـا طليقا وسط البساتين !

ولم أجد لدى مدام دى فاران الأبهة التى رأيتها فى (تورين) ، ولكنى وجدت نظافة ، وأناقة ، وخيرا فياضا ، لا تقترن بهـا الفطرسة والكبرياء قط !.. كانت تمتلك أطباقا قليلة العدد ، فلا صينى ولا خزف ، ولا لحوم فى مخزن المئونة ، ولا خمور أجنبية فى أقبية القصر ! .. ولكن المطبخ وقبـو الدار كانا مزودين بما يكفى أى امرىء ، وكانت السيدة تقدم فى الأقداح الدلفية(١) قهوة رائعـة . وكان كل من يزورهـا يدعى إلى العشاء على مائدتها . وما من عامل ، أو رسـول ، أو عابر طريق مر بالدار دون أن يأكل ويشرب. وكان خدمها يتألفون من وصيفة ـ على قسط من الجمال ـ من بلدة ( فريبور ) تدعى « ميرسيريه » ، ووصيف من وطنها يدعى « كلود آنيه » ـ سأذكر عنه مزيدا فيما بعد ـ وطاهية ، واثنين من الحمالين

(١) الاقداح الدلفية : أقداح من خزف مصنوع فى هولندا .

كانا يستأجران لحمل المحفة « السيدان »(١) فى المناسبات النادرة التى كانت السيدة تؤدى فيها الزيارات . وكان هذا العدد من الخدم عبئا على معاش سنوى قدره ألفا « ليبرة » ، لولا أن دخل السيدة الضئيل كان ـ إذا أحسن تدبير انفاقه ـ كافيا فى بلد كانت الأرض فيه سخية جدا ، والنقود شحيحة جدا ! ولكن الاقتصاد لم يكن لسوء الحظ من الصفات الحببية لدى السيدة ، فكانت تستدين ، ثم تدفع بقدر ما تستطيع . كانت النقود تذهب فى كل ناحية ، والأمور تسير على خير ما يمكن أن تسير !

وكانت الطريقة التى نظمت بها دارها هى عين ملكانت أوثره لو عهد إلى اختيار هذا التنظيم ، ومن ثم فمن الميسور تصور مبلغ سرورى بالحياة معها ، والإفادة منها . أما الأمر الذى كان أقل مدعاة للسرور ، فهو أننى كنت مضطرا إلى أن أبقى جالسا إلى المائدة وقتا طويلا ، فقد كانت السيدة لا تكاد تحتمل أن تشم الغبير المتصاعد من الحساء وأصناف الطعام الأخرى عندما تحمل إلى المائدة ، إذ كانت الرائحة تسلمها إلى الإغماء ! وقد دام هذا النفور بعض الوقت ، ولكنها لم تلبث أن تمالكت نفسها تدريجا . وكانت إذا جلست إلى المائدة انصرفت إلى الكلام ، دون أن تأكل شيئا ، فلم يكن ينقضى أقل من نصف ساعة قبل أن تتناول قطعة لحم ! وكان بوسعى ـ

---

(١) « السيدان » هى محفة مؤلفة من مقعد ذى مظلة ، يحمله رجلان ، وكانت من مركبات ذلك العصر .

فى هذه الفترة ـــ أن أتناول ثلاث وجبات ، ومن ثم فاننى كنت دائما أفرغ من طعامى قبل أن تشرع هى فى الأكل بوقت طويل. وقد اعتدت ـــ لكى أؤنسها ـــ أن أشرع فى الأكل مرة أخرى ! وبهذا الوضع كنت أتناول غذاء شخصين ، وما شعرت إطلاقا بضير من ذلك . وبعبارة موجزة : أسلمت نفسى للذة الشعور بالراحة ، التى كانت تخامرنى عندما أكون معها ، لا سيما وأن هذه اللذة التى كنت استمرئها كانت خلوا من أى قلق بشأن وسائل الاحتفاظ بها ! .. ولما لم أكن قد أشركت بعد ـــ بثقة تامة ـــ فى شئون السيدة ، فقد رحت أتصور أن الحال الراهنة قد تستمر على الدوام . ولقد وجدت نفسى هذه الرفاهية فى دارها فى أوقات أخرى بعد ذلك ، ولكنى كنت قد ألممت بحقيقة وضعها ، وتبينت أنها كانت تستنفد معاشها قبل أن تتسلمه ، ومن ثم فلم أكن أشعر بعين الغبطة التى شعرت بها فى ذلك الوقت ! .. إن التطلع إلى المستقبل يفسد دائما هنـــاءتى . فليس من المفيد لى فى شىء أن أتنبأ بالمســـتقبل ، إذ أننى لم أعرف البتة كيف اتفاداه !

ولقد توطد بينى وبين مدام دى فاران ـــ منذ اليوم الأول ـــ أكمل ود وألفة ، وقد دامـــا خـــلال ما بقى من عمرها . كان اسمى لديها « الصغير » ، وكان اسمها عندى « ماما » ، وقد ظللنا دائما «الصغير» و « ماما » ، حتى عندما محت السنون كل فارق بيننا تقريبا . وإنى لأرى أن هذين الاسمين يعطيان فكرة جد رائعة عن لهجة أحاديثنا ، وعن بســـاطة الأسلوب الذى كان مرعيا فى سلوكنا ، وعن العلاقة المتبادلة بين قلبينا

قبل كل شيء آخر !.. كانت ـ بالنسبة لى ـ أرق أم ، فلم تسع قط إلى ما فيه سرورها ، وإنما كانت تسعى دائمـا إلى ما فيه الخير لى . وإذا كانت الشهوة قد خالطت يوما تعلقها بى ، فانها لم تبدل من طابع هذا التعلق ، وإنما جعلته أكثر فتنة .. واسكرتنى ببهجة الظفر بأم شابة حسناء كنت أجد غبطة فى أن الاطفها (١) .. « الاطفها » بأدق ما فى الكلمة من معنى ، فما خطر لهـا قط أن تقتصد فى قبـلات الأم ، أو فى عناقاتها الرقيقة وملاطفاتها ، ومن المؤكد انه لم يخطر ببـالى اطلاقا أن أسيء استغلال ذلك . وقد يقال إننا ـ فى النهاية ـ ارتبطنا بعلاقة ذات طابع مختلف ، وإنى لأقر بهـذا ، ولكنى ارى ان اتريث قليلا ، فليس فى وسعى أن أروى كل شيء فى التو !

كانت لحظة لقائنا الأول ، هى اللحظة الوحيدة التى جعلتنى أشعر بها مليئة بالانفعال العاطفى الحقيقى . على أن هـذه اللحظة كانت من نتائج المفاجأة .. ولم تجسر نظراتى قط على أن تتسلل مستخفية إلى ما تحت المنديل الذى كان يحيط بعنق السيدة ، برغم أن سوء التستر على بدانة هـذا العنق كان خليقا بأن يجتذب النظر . ولم أكن أشعر فى حضـورها بأية نزوات أو شهوات، بل كنت فى حالة استجمام فاتن واستمتاع، وإن لم أدر فيم كان هـذا الاستمتاع !.. وكان بوسعى أن أقضى فى هذه الحال كل حياتى الدنيوية ، بل وحياتى الأخرى،

---

(١) الملاطفة هنا يقصد بها التحسس والقبلات والغزل .

دون ما لحظة من الملل والسـأم ، فان مدام دى فاران هى الشخص الوحيد الذى لم أشعر معه بذلك الفتور والنضوب اللذين يتطرقان إلى الحديث فيجعلان الاضطرار إلى المضى فيه ضربا من التضحية والاستشهاد !.. ولم يكن كلامنا الهامس فى خلواتنا حديثا بقدر ما كان ثرثرة لا ينضب لها معين ، ولم تحن لها نهاية اللهم إلا إذا طرأ ما يقطع استرسالها ! ولم تكن ثمة حاجة بها إلى أن تدعونى للكلام ، بل كانت الحاجة إلى فرض السكوت على أكثر لزوما . وكانت كثيرا ما تستغرق فى شرود حالم لفرط تفكيرها المستمر فى مشروعاتها ، فكنت أتركها لأفكارها ، وأمسك لسانى ، وأنظر إليهـا .. وإذ ذاك كنت أسعد الرجال ! .. وكنت لا أزال أحتفظ بخيـال فذ ، فكنت أسعى دائما إلى مسامرتها دون من ولا تظاهر بصنيع ، فقد كنت أستمرىء هذه الخلوات بشغف يتطور إلى جنون عندما كان الضيوف المزعجون يعكرون صفوها ! فما أن يغد أحد ـ سواء كان رجلا أو امرأة ـ حتى أغادر الحجرة وأنا أزمجر ، عاجزا عن أن أبقى فى حضـور طـرف ثالث ! وكنت أتبع فى حجرتها الداخلية ، أعد الدقائق ، والعن هؤلاء الضيوف ـ الذين يأبون الانصراف ـ ألف مرة ، وأنا لا أقـوى على أن أتصور كيف كان لديهم من الحديث ما يشغل كل هذا الوقت .. فقد كان لدى ما يفوته !

ولم أكن أشعر بقوة تعلقى بالسيدة إلا عندما كنت لا أراها .. ولا كنت هانىء البال إلا حين أراها ، فاذا غابت كان قلقى يصبح اليما . كانت حاجتى إلى العيش معها تسبب لى نوبات

عاطفية كثيرا ما انتهت بالدموع ! ولن انسى مطلقا أننى فى يوم عيد من الأعياد مضيت للنزهة خارج المدينة ، بينما كنت هى فى قداس المساء .. وشعرت أن قلبى قد امتلأ بصورتها ، وبرغبة متأججة فى أن أقضى حياتى معها ، وكنت من الإدراك والعقل بحيث أرى أن هـذا كان مستحيلا فى وقتى الراهن ، وأن السعادة التى كنت أستمتع بها كل الاستمتاع كانت قصيرة الأمد .. ولقد بعث هذا فى خواطرى مسحة من الأسى ، لم يكن فيها ـ مع ذلك ـ أى اكتئاب ، بل كانت تخفف منها آمال مراودة .. كان صوت الأجراس ـ الذى كان يهزنى دائما بوجه خاص ـ وشدو الطيور ، وبهاء ضوء النهار ، والمناظر الطبيعية الساحرة ، والمساكن القروية المتناثرة التى كان خيالى يتخذ منها مقاما لنا .. كل هـذه كانت تخلق فى نفسى تأثيرا قويا ، عاطفيا ، حزينا ، يهز أوتار قلبى إلى درجة أرى معها أننى أنتقل فى غيبوبة حالمة إلى ذينك الوقت والمكان السعيدين ، اللذين كان قلبى فيهما يمتلك كل ما كان يصبو إليه من سعادة ، فيقبل على تذوقها فى انتشاء لا سبيل إلى وصفه ، دون أدنى تفكير فى لذة شهوية . وما أذكر البتة أننى أوغلت يوما فى التفكير فى المستقبل بقوة وخيال يفوقان ما خامرنى فى تلك المناسبة . وكان أعظم ما أدهشنى من ذكرى هذا الحلم بعد أن تسنى له أن يتحقق ، هو أننى ألفيت الأمور تطابق تماما ما تصورته فى الخيال . وإذا قدر يوما لأحد أحلام اليقظة التى تراود ذهن إنسان ما أن يكون شبيها برؤى النبوة ، فهو حلمى هذا بالتأكيد . فما خدعنى خيالى إلا فى الأمد الذى

وما الذكر البته اننى أوغلت يوما فى التفكير فى المستقبل
بقوة وخيال يفوقان ما خامرنى فى تلك المناســـبة ..

تصورته ، فقد تمثلت فى الحلم أن حياتنا معـــا امتدت أياما وأعواما فى سكينة صافية سامية لا يعكرها شىء .. فى حين أن هذه الحال لم تدم ـــ فى واقع الحيـــاة سوى لحظـــة .. ويا لحسرتى !.. فإن أبقى سعادة ظفرت بها ، إنمـــا كانت حلما لم تلبث اليقظة أن أعقبت تحققه فى الحال !

ولن أفرغ من مهمتى إذا أنا خضت فى تفصيلات كل الحماقات التى كان تذكرى لهذه الأم العزيزة يحملنى على ارتكابها عندما لا أكون فى حضرتها : فكم كنت أقبل سريرى لأنها نامت فيـــه يوما ، وستائرى وكل أثاث حجرتى لأنها كانت ملكا لها ، ولأن يدها الجميلة كانت تمسها !.. حتى الأرض كنت أتقلب عليها ما دامت هى قد خطرت فوقها !.. وكنت أحيانا أرتكب ـــ فى وجودها ـ نزوات ما كان ليوحى بها سوى أعنف ألوان الحب ! وقد حدث ذات يوم أن كنا نجلس إلى المائدة ، وما أن وضعت قطعة من اللحم فى فمها ، حتى هتفت قائلا إننى لمحت شعرة فيها ، فردت القطعة إلى طبقها ، وإذ ذاك انقضضت عليها فى لهفة وابتلعتها ! وبريجـــاز : لم يكن بينى وبين أشد العشاق تدللها سوى فارق واحد ـــ ولكنه جوهرى ـــ يجعل حالتى فوق كل تصور وإدراك !

وكنت قد عدت من إيطاليا على غير ما ذهبت إليهـــا ، بل لعلنى عدت منها كما لم يعد قط أى امرىء فى سنى ، فقد حملت معى ـــ فى عودتى ـــ طهرى الجسدى ، وإن لم أحتفظ بطهرى العقلى والخلقى ! ولقد شعرت بحكم السنين ، وقدر أخيرا لطباعى القلقة غير المستقرة أن تغدو ملموسة محسوسة ، وقد

سبب لى تجليها لأول مرة ـ على غير إرادة منى ـ انزعاجا بشأن صحتى ، بدرجة تبين أكثر من أى شىء آخر مدى البراءة التى كنت أعيش فيها حتى ذلك الحين . وما ان اطمأننت ، حتى تعلمت تلك الوسائل الخطرة التى تعاون تلك الطباع ، والتى تغرر بالطبيعة وتوفر للشبان الذين أوتوا مثل مزاجى ، كثيرا من الاضطرابات وألوان الإفراط ، على حساب صحتهم وقوتهم و .. حياتهم أحيانا ! ولهذه الرذيلة ـ التى يرتاح إليها الخجل والجبن ـ إغراء عظيم يجتذب التخيلات : ذلك هو ـ كما ينبغى أن يقال ـ حشد الجنس بأسره لإرضائها ، واستغلال الجمال لذاتها ، دون ما حاجة إلى الحصول على موافقته أو رضاه !.. وتحت إغراء هذه الخلة المهلكة ، جهدت فى تدمير البنية البديعة التى منحتنيها الطبيعة ، والتى أتحت لها الوقت لتتسق فى تشكلها . اضف إلى هذه العادة ظروف مركزى الحالى ، إذ كنت أقيم فى دار امرأة جميلة ، أداعب طيفها فى قرارة قلبى ، وأراها باستمرار طوال النهار ، وأحاط فى الليل بأشياء تذكرنى بها ، وأنام فى سرير عرفت انها كانت تنام فيه !.. فأية مثيرات هذه ! إن القارىء الذى يتمثلها لنفسه يرى ولا ريب أننى كنت فى منتصف الطريق إلى الموت بالفعل ! ولكن الأمر كان على نقيض ذلك تماما ، فان الشىء الذى كان خليقا بأن يقضى على ، كان عين ما أتقننى ، ولو إلى حين : ففى انتشائى بسحر الإقامة معها ، وبالرغبة الجامحة فى أن أقضى أيامى بقربها ، كنت أرى فيها دائما ـ سواء كانت غائبة أو حاضرة ـ أما حنونا ، وأختا

حبيبة ، وصديقة لطيفة .. ولا أكثر من هذا !.. هكذا كنت أراها دائما ، وهكذا كانت دائما ، فلم أكن أرى سواها قط ! وكانت صورتها الماثلة فى قلبى دائما لا تدع مكانا لأحد البتة !.. كانت لى المرأة الوحيدة فى العـــالم ، وكانت العذوبة البالغة التى اتسم بها ما كانت تلهمنى من مشـــاعر ، لا تدع لحواسى وقتا تستيقظ فيه على غيرها ، بل كانت تعصمنى منها ومن كل جنسها ! ومجمل القول اننى كنت عفيفا ، لأننى كنت أحبها !.. فليقل من يستطع ـ على ضوء هـــذه النتائج التى لم أحسن وصفها ـ أى نوع كان تعلقى بها !.. أما أنا ، فكل ما املك أن أقول عنه هو أنه إذا كان يبدو جد غريب ، فانه سيبدو فى عواقبه أغرب !

وكنت اقضى وقتى على خير وجه ، وإن شغلت بأقل ما كان يروق لى من أشياء . كانت ثمـة مشروعات تدبر ، ومذكرات تنسخ مصححة ، ووصفات تنقل ، وأعشاب تنتقى ، وعقاقير تصحن وتسحق ، وأنابيق ( اجهزة للتقطير ) تراقب .. وفى غمرة هذا كله ، كان عابرو السبيل والمتسولون والزائرون ـ من كافة الطبقات ـ لا يكفون عن الوفود زرافات ، فكنا نضطر إلى أن نستضيف جنديا وصيدليا وكاهنـــا وســـيدة راقيـــة وطالب مأوى .. فى آن واحد ! وكنت اسب ، وازمجر ، والعن ، واتمنى ان يتخطف الشيطان كل هذه الشرذمة اللعينة . اما مدام دى فاران ـ التى كانت تتقبل ذلك بحسن نية ـ فكانت غضباتى تضحكها حتى تدمع عيناهـــا ، وكان يضـــاعف من ضحكها ان ترانى ازداد سخطا لأننى لم اكن املك أن اصـــد

نفسى عن الضحك !.. كانت الفترات القصار التى كنت أحظى فيها بالزمجرة ، لحظات ساحرة !.. ولو ان قادما جديدا من هؤلاء الضيوف الثقلاء أقبل خلال الجدال ، فان السيدة كانت تعرف كيف تنتزع لنفسها من ذلك تسلية ، وذلك بأن تطيل الزيارة فى تخابث ، وهى ترمينى بنظرات أود معها لو اضربها ! وكانت تتمالك نفسها بعناء حتى لا تنفجر مقهقهة ، إذ ترانى أتجلد وأكظم مشاعرى تأدبا ، وأرمقها كشخص مسلوب النهى ، فى حين اننى كنت فى قرارة فؤادى ـ بل ورغما عن نفسى ـ أرى الأمر كله داعيا للضحك !

ولئن لم يكن كل هذا يسرنى ، إلا انه كان يروق لى ، لانه كان يؤلف جزءا من نوع من الوجود كان يبهجنى . ولم يكن فى كل ما كان يجرى حولى ـ ولا فى كل ما كنت مضطرا إلى عمله ـ شىء يلائم ذوقى ، ومع ذلك فقد كان كل شىء يروق لفؤادى . واعتقد اننى كنت قمينا بان اميل إلى الطب ، لولا أن نفورى منه سبب تلك المناظر المضحكة التى أطربتنا كثيرا .. ولعل هذه هى المرة الأولى التى يخلق فيها هذا الفن اثرا كهذا . كنت ازعم أن بوسعى أن أعرف أى مركب طبى من رائحته ، وكان الطريف فى الأمر اننى نادرا ماكنت أخطىء ! ولقد حملتنى مدام دى فاران على أن أتذوق أفظع العقاقير ، ولم تكن ثمة جدوى من الفرار او محاولة الدفاع عن نفسى ، فبالرغم من مقاومتى ومن عبوسى ، وبالرغم من اصطكاك أسنانى ، كنت أضطر أخيرا إلى أن افتح فمى عند ما أرى أصابعها الجميلة ـ ملطخة بالعقار ـ بالقرب منه ، عامتصها !.. وعندما كان كل اهل

دارها يجتمعون فى حجرة واحدة ، يسمعون جرينا وصراخنا وضحكنا ، كان أى امرىء خليقا بأن يظن أننا كنا نمثل إحدى المسرحيات ، بدلا من تحضير البلاسم والاكاسير !

على أن وقتى لم يكن وقفا على هذه الحماقات . فقد وجدت فى الغرفة التى كنت أشغلها بضعة كتب : « المتفرج » ، و « بيفندروف » ، « سانت ايفريموند » ، والقصيدة «الهنرية» . ومع أننى لم أكن أحتفظ بجنونى القديم بالقراءة ، إلا أننى كنت أقرأ قليلا عندما لا أجد شيئا آخر أفعله . وكان كتاب « المتفرج » يلذ لى بوجه خاص ، وقد أثبت أنه كان ذا نفع لى . وكان الأب دى جوفون قد علمنى أن أقرأ فى غير إسراع ، وبمزيد من التأمل ، ولهذا أصبحت المطالعة أكثر فائدة لى . وعودت نفسى أن أفكر فى اللغة والأسلوب وبلاغة تركيب العبارات ، كما دربت نفسى على أن أميز الفرنسية الفصحى من التعبيرات الإقليمية . وتعلمت كيف أصحح الكثير من الاخطاء الهجائية التى كان يشاركنى فى ارتكابها جميع أهل ( جنيف ) !

وكنت أتحدث إلى « ماما » أحيانا عن مطالعاتى ، كما كنت أقرأ لها أحيانا ، فأحظى بسرور عظيم ، وأحاول أن أتقن القراءة ، وكان هذا ـ بدوره ـ مفيدا لى . ولقد ذكرت أنها كانت ذات عقل معقول ، كان ذلك الوقت بالذات فى عنفوانه . وقد أبدى عدد من رجال الأدب شوقا إلى الظفر بالحظوة لديها ، فعلموها كيفة تحكم على المؤلفات التى تنم عن عبقرية . وكان لها ذوق « بروتستانتى » بعض الشىء ـ إذا جاز لى أن

أقول هـــذا ـــ فلم تكن تتكلم إلا عن « بايل » ، وكانت تقـــدر القديس « ايغريموند » الذى مات فى فرنســـا قبل ذلك بوقت قصير . ولكن هذا لم يعقها عن أن تتعرف إلى أى أدب طيب ، وأن تناقشه فى فطنة. وكانت قد نشأت فى مجتمع رفيع، ووفدت على ( سافوا ) وهى بعد صغيرة . وفى الوســـط البهيج الذى يعيش فيه علية القوم فى هذه البلاد ، فقدت طريقة أهل إقليم ( فود ) فى الحديث، حيث تحرص النساء على التظاهر بالحصافة واللباقة ، ولا يعرفن الكلام إلا بالطرائف والحكم الشعرية !

ومع أنها لم تحظ إلا بمعرفة عابرة بالبلاط الملكى ، إلا انها ألقت عليه نظرة سريعة ، كانت كافية لأن تعرفه بها . وكانت تحتفظ لنفسها دائما بأصدقاء فيه ، وعلى الرغم من الدسائس الخفية المنبعثة عن الغيرة ، وبالرغم من الاستياء الذى كان مسلكها ودينها تثيره ، إلا انها لم تفقد قط معاشها . ولقـــد أوتيت خبـــرة بالدنيا ، ومقدرة فكرية على الإفادة من هـــذه الخبرة ، فكانت تؤلف أفضل موضوع فى أحاديثها . وكان هذا بالذات هو الموضوع الذى أجدنى فى حاجة ماسة إلى الإلمام به ، بالنسبة إلى آرائى الخيالية .. ولقد قرأنا كتاب « لابرويير »، فأعجبها أكثر من كتب « لاروشفوكو » الذى كان أديبا كئيبـــا ممضا ، لا سيما للشباب الذين لا يكترثون لرؤية النـــاس على حقيقتهـــم . وكانت إذا وعظت استغرقت أحيانـــا فى خطب طويلة ، ولكنى كنت أتزود لاحتمالهـــا بتقبيل فمها ويديها من وقت إلى آخر ، فلا يعود إسهابها يضجرنى !

* * *

وكانت هـذه الحياة أبهج من أن تدوم . وكنت أشـعر بذلك ، فكان اغتمامى بالإشفاق من أن أراها تنتهى هو الشىء الوحيد الذى عكر استمتاعى بها ! وكانت « ماما » فى وسط مداعباتها تدرسنى ، وتراقبنى ، وتسألنى ، وترسم ـ من أجل تقدمى ـ مشروعات كنت أتجاوزها بسهولة . ولحسن الحظ انه لم يكن كافيا أن تعلم ميولى وأذواقى وامكانياتى ، بل كان من الضرورى البحث عن فرص لاستخدامها على وجه نافع ، أو « خلق » هذه الفرص . ولم يكن هذا بالعمل الذى يتم فى يوم واحد . بل إن الأحكام الصادرة عن الهوى ، والتى كانت المسكينة تتخذهـا إزاء مواهبى ، كانت ـ فى الوقت ذاته ـ سببا فى تأجيل لحظات تطبيقها بالذات ، إذ كانت تجعلهـا تعنى عناية خاصة باختيار الوسائل . وبالإيجاز : سار كل شىء وفق رغباتى بفضل حسن رأيها فى . ولكن هذه الحياة كانت مسوقة إلى نهاية ، إن عاجـلا أو آجلا .. وإذ ذاك ، وداعا لكل أمل فى الطمأنينة !.. فقد جاء لزيارة مدام دى فاران قريب لها ـ يدعى السيد « دوبون » ـ كان رجلا عظيم الدهاء يجيد الدس، وذا عبقرية ـ مثل قريبته ـ فى رسم المشروعات، ولكنه كان أبرع من أن يدع مشروعاته تقضى عليه ، كان من المغامرين ! وكان قد اقترح على الكاردينال « دى فلرى » مشروعا لتنظيم « يانصيب » ، بلغ من تعقده أنه لم يلق قبولا. فجاء بعرضه على بلاط ( تورين )، حيث قبل ونفذ . وقد مكث هذا الرجل بعض الوقت فى (أنيسى) ، حيث عشق زوجة وكيل الحكومة ! وكانت امرأة جد لطيفة ، قريبة إلى ذوقى ، حتى

أنها كانت الوحيدة التى كنت أسر برؤيتها فى دار « ماما » . ولقد رآنى السيد « دوبون » ، وحدثته قريبته عنى ؛ فتكفل بامتحانى ليرى ما أصلح له ؛ فاذا ما وجدنى أهلا لشىء ؛ بحث لى عن منصب !

وارسلتنى مدام فاران إليه فى صباحين أو ثلاثة متعاقبة ، بحجة بعض مهام لها ، دون أن تبصرنى بشىء . وافلح الرجل فى حملى على الكلام ، وابدى لى الود ، وتبسط معى إلى اقصى ما أمكنه ، وتحدث معى فى مسائل غير ذات بال ، وفى كافة الموضوعات . . كل ذلك دون أن يشعرنى بأنه كان يراقبنى ، ودون ادنى كلفة ، وكأنه وجد فى صحبتى مسرة فرغب فى التسامر معى دون ما قيود . واعجبت به . . وكانت نتيجة ملاحظاته أننى ـ برغم مظهرى الجذاب وملامحى الدالة على الفطنة ـ كنت فتى قليل الذكاء ، عديم الأفكار ؛ عديم المعرفة تقريبا ، إن لم أكن غبيا !. . وبعبارة موجزة ، كنت محدود العقل من كل الاعتبارات ، وكان أرفع منصب بحق لى أن أصبو إليه ، هو أن أصبح يوما راعيا لكنيسة إحدى القرى ! هكذا كانت النتيجة التى قدمها عنى لمدام دى فاران ، وكانت هذه هى المرة الثانية أو الثالثة التى يحكم على فيها بمثل ذلك. بل إنها لم تكن المرة الأخيرة ؛ فكم من مرة عزز فيها رأى السيد « ماسيرون » .

وكانت أسباب هذه الأحكام ترتبط بخلقى ارتباطا وثيقا لا داعى معه إلى أى إيضاح هنا . ذلك لأنه من المفهوم ـ صراحة ـ أننى لا أستطيع أن أقر هذه الآراء دون تحفظ ،

وأننى ـــ بكل حيدة وتجرد عن الهوى ـــ لا أستطيع أن أتقبل كل ما قاله السيدان « ماسيرون » و « دوبون » وغيرهما على علاته !.. فلقد اتحد فى نفسى شيئان متنافران تقريبا ، بطريقة لا أملك ادراكها : طباع حادة ، وعواطف محتدمة صاخبة .. وفى الوقت ذاته ، أفكار بطيئة النمو ، مهوشة ، لا تكشف قط عن نفسها إلا بعد فوات الأوان . ومن الممكن أن يقال إن قلبى وعقلى لا يمتان إلى فرد واحد . فان الشعور يستحوذ على نفسى بأسرع من البـــرق الخاطف ، ولكنـــه يكوينى ويعشى بصرى ، بدلا من أن ينيرنى . فاذا بى أحس بكل شىء دون أن أرى شيئا ! إن العواطف تجرفنى ، ولكنى بطىء التفكير ، لابد لى من أن أسرى عن نفسى حدة الانفعالات لكى أستطيع أن أفكر . والعجيب فى الأمر هو أننى ـــ برغم ذلك ـــ أوتيت رأيا مؤكد الصواب ، وبصيرة نفاذة ، ودقة فى الحكم ، إذا ما أتيح لى الوقت الكافى .. وأننى لأصدر آراء عاجلة إذا تركت وشأنى ، ولكنى لم أنه يوما بشىء ذى قيمة فى اللحظـــة التى طلب إلى فيها ذلك ! وبوسعى أن أجيد النقاش عن طريق التراسل ، بنفس النهج الذى يقال عن الأسبان أنهم ينتهجونه فى لعب الشطرنج . وعندما قرأت عن أحد دوقات ( سافوا ) أنه قطع رحلته وعاد ليصيح : « سأنقض على عنقك أيهـــا التـــاجر البارىسى » ، لم أتمالك أن أقول : « هكذا أنا » !

هذا البطء فى التفكير مع فورة الشـــعور ، لا يلازمانى فى الحديث فحسب ، وإنما همـــا معى حتى فى وحدتى ، وعندما أعمل ! .. فان أفكارى تنسق نفسها فى رأسى بعناء لا يكاد يصدق ، إذ أنها تدور فيه على غير هدى ، ثم تتخمر وتفـــور

حتى تحركنى وتبعث الحرارة فى كيانى ، فيتسارع خفقان قلبى . وفى غمرة هذا الانفعال ، لا أعود أرى أى شىء بوضوح، ولا اقوى على أن أكتب كلمة واحدة ، واضطر إلى الانتظار والتريث .. ولا يلبث الانفعال العظيم أن يخف بطريقة لا أفقهها ، فينقشع الاضطراب ، ويستقر كل شىء فى مكانه ، ولكن .. فى بطء ، وبعد انفعال طويل مربك . أفما قدر لك يوما أن تشهد « الأوبرا » فى إيطاليا ؟.. ففى خلال تبديل المناظر ، تسود هذه المسارح العظيمة فوضى غير مستحبة ، تمتد فترات طويلة . إذ تختلط كافة الزخارف ( الديكورات ) بعضها ببعض ، وترى الأشياء تجذب فى كل ناحية بشكل مؤلم ، حتى ليخال للمرء أن كل شىء قد انقلب رأسا على عقب ! ثم لا يلبث كل شىء أن ينتظم شيئا فشيئا ، ولا يبقى أى نقص ، ويدهش المرء إذ يرى منظرا رائعا عقب هذه الفوضى الطويلة ! هذه العلمية تقرب من تلك التى تجرى فى مخى عندما أرغب فى الكتابة . ولو أننى تعلمت أن أتريث أولا ، ثم اجنى الأشياء التى ارتسمت فى ذهنى ، صاقلا جمالها ، لما تفوق على سوى قليل من الكتاب !

ومن هنا كانت الصعوبة البالغة التى أجدها فى الكتابة . وان مخطوطاتى بما فيها من كشط ومحو وسطور متداخلة ، وكتابة لا تكاد تقرأ ، لتشهد بالعناء الذى تكبدنيه . فليس بينها ما لم اضطر إلى نسخه أربع أو خمس مرات قبل أن أستطيع أن أدفع به إلى المطبعة ! وما استطعت قط أن أنتج وأنا جالس إلى منضدتى وأوراقى والقلم فى يدى ، وإنما اعتدت أن اكتب

على صفحة ذهنى بينما اتمشى وسط الصخور والغابات ، أو فى الليل وانا مستلق فى فراشى مستيقظا . وفى وسع المرء أن يقدر ذلك البطء ، سيما لدى إنسان حرم تماما من ذاكرة تحفظ الكلام ، وما قدر له فى حياته أن يحفظ ستة أبيات من الشعر عن ظهر قلب ! .. بل إن من عباراتى وجملى ما ظللت اقلبه وأديره فى راسى خمس أو ست ليال ، قبل أن يغـدو صالحا لأن يسجل على الورق ! وهنا ايضا السر فى اننى أكثر توفيقا فى اعمالى التى تتطلب جهدا ، منى فى تلك التى تتطلب خفـة أسلوب معينة ، كالرسائل .. وهى خفة لم يقدر لى قط أن اتمكن من الإلمام بها ، ومن ثم فان هذه المهمة ترهقنى . فلست اكتب رسالة فى أتفه موضوع ، إلا وتكبدنى ساعات من الضنى .. كمـا اننى إذا حاولت أن أكتب فورا ما يعن لى ، لا أدرى كيف أبدأ ولا كيف أنتهى . ومن ثم تكون رسالتى لغوا طويلا مهوشا ، يلقى المرء عناء فى فهمه إذا ما قراها !

ولا تكبدنى الأفكار عناء فى تسجيلها فحسب ، وإنما تكبدنى العناء ذاته فى تلقيها . لقد درست الناس ، واعتقد اننى قوى الملاحظة ، ومع ذلك فاننى لا املك أن ارى بوضوح شيئا مما أشهده ، وإنما أتمثل بوضوح ما اذكره ، ولا ابدى الفطنة إلا فى ذكرياتى .. فمن كل ما يقال ، ومن كل ما يعمل ، ومن كل ما يجرى فى حضورى ، لا اشعر بشىء ولا أتغلغل ببصيرتى فى شىء . وإنما الذى يؤثر فى هو الظاهر وحده !.. بيد أن كل شىء لا يلبث أن يرتد إلى ذهنى فيمـا بعـد ، فأذكر المكان ، والزمان ، والحال ، والنظرة ، والإشارة ، والظـروف ..

لا يفوتنى منها شيء . وعندئذ ، أتبين مما قاله القوم أو فعلوه ما كانوا يفكرون فيه ، ونادرا ما أخطىء !.. ولو أننى سيطرت على طاقتى الذهنية قليلا ، فيما بينى وبين نفسى ، ففى وسع المرء أن يحدس ما كنت أصبح عليه من براعة فى الحديث ، حيث يجب ـ من أجل الكلام فى الموضوع ـ أن أفكر فى ألف شيء فى نفس الوقت والمكان . ولكن مجرد التفكير فى التوفيق بين هذه الأشياء ـ التى اوقن من اننى لابد أن أنسى شيئا واحدا منها على الأقل ـ يكفى لكى يبث الخوف فى نفسى ! بل إننى لا أفهم كيف يجد اى امرىء الجراة على الكلام فى جماعة ، حيث لا غنى له عن أن يطوف ببصره مستعرضا الحاضرين ، مع كل كلمة .. وحيث لا بد له من أن يلم بشخصياتهم وسيرهم ، حتى يستوثق من تجنبه ذكر أى شيء قد يجرح شعور أحد منهم . ومن هذه الناحية ، يمتاز الذين يعيشون فى الدنيا(١) بميزة كبرى ، هى أنهم يكونون أكثر من سواهم دراية بما لا ينبغى أن يصمتوا عنه ، وأشد اطمئنانا إلى ما يقولون .. ومع ذلك ، فكثيرا ما تفلت منهم هفوات ، وهنات . فما بالك بمن يسقط فى وسطهم من بين السحب ؟!(٢) .. إنه ليستحيل عليه تقريبا أن يتكلم لدقيقة دون خوف من الزلل ! .. وهناك مضايقة أخرى فى المسارة ـ أى عندما

---

(١) يقصد الذين يختلطون بالناس ويغشون المجتمعات .

(٢) يقصد الذى يعيش بعيدا عن المجتمع ، فى أحلامه الخاصة ، ثم يقدر له أن يتكلم وسط الناس .

أتحدث مع شخص ما فى خلوة ـ أجدها أنكى مما سبق : تلك هى ضرورة الكلام باستمرار . فاذا وجه إليك الحديث ، كان عليك أن تجيب .. وإذا لم توجد كلمة تقال ، كان عليك أن تحيى الحديث من جديد . هذا الاضطرار الذى لا يطاق ، هو وحده الذى ينفرنى من المجتمع . ولست أجد ضيقا أفظع من الاضطرار إلى الحديث عفو الخاطر وباسترسال . ولا أدرى ما إذا كان لهذا أى شأن من كراهيتى المميتة لكل قهر ، من أى نوع . بيد أنه يكفينى أن أكون مضطرا إلى الكلام ، لكى أنطلق فى لغو لا محيص منه .

أما ما يفوق هذا شناعة ، فهو أننى بدلا من أن أستطيع أن أمسك لسانى عندما لا أجد شيئا يقال ، إذا بى أجد نفسى ـ فى هذا الوقت بالذات ـ أكاد أجن شوقا إلى الكلام ، لأرد الدين بأسرع ما أستطيع !.. فأبادر إلى إطلاق عبارات متلعثمة خالية من أية فكرة ، وتشتد سعادتى إذا كانت لا تعنى شيئا على الاطلاق . وإذ أحاول أن أغالب أو أن أخفى غبائى ، فاننى نادرا ما أخفق فى إظهاره ! ومن ألف مثال أستطيع ذكرها ، أختار واحدا لا يمت إلى أيام الصبا ، وإنما إلى وقت كان خليقا بى أن أكون قد اكتسبت عنده يسرا فى القول ـ إن كان هذا ممكنا ـ بعد أن عشت سنوات عديدة بين الناس . ففى ذات مساء ، كنت أجلس بين سيدتين عظيمتين ورجل يحق لى أن أنكر اسمه ، وهو السيد الدوق « دى جونتو » . ولم يكن ثمة سوانا فى الحجرة ، وقد رحت أجاهد فى سبيل ذكر بضع كلمات ـ يعلم الله ماذا كانت ـ

خلال حديث كان يدور بين أربعة أشخاص ، كان بينهم ثلاثة فى غير حاجة ـ بالتأكيد ـ إلى تعقيبى . وأمرت ربة البيت بإحضار دواء كانت تتناوله مرتين يوما لعلاج معدتها . وإذ رأت السيدة الأخرى وجهها يتغضن ـ اشمئزازا من الدواء ـ قالت ضاحكة : « أهذا الدواء من لدن السيد ترونشان » . فأجابتها الأولى بنفس اللهجة : « لا أظنه ! » .. وهنا عقب روسو الذكى فى تأدب : « أظن أنه لا يفوقه فى شىء ! »(١) . وبقى الجميع واجمين ، فلم يفه أحد بأتفه كلمة أو بأضأل ابتسامة . وبعد لحظة ، اتخذ الحديث اتجاها آخر . وما كانت هذه الفلتة لتبدو ـ فى أى مجلس آخر ـ سوى فكاهة ، أما وقد وجهت إلى امرأة كانت من رقة الشعور بحيث لا تحب أن تجعل نفسها مادة للحديث ، ولم تكن لدى ـ بكل تأكيد ـ أية رغبة فى مس شعورها ، فقد بدت شنيعة ، وأعتقد أن الشاهدين ـ الرجل والمرأة ـ عانيا كثيرا لكى يكبحا الضحك . هذا مثال لفلتات الذكاء التى تمنعنى من الرغبة فى الكلام عندما لا أجد شيئا يقال .. ولن أنسى بسهولة هذا الحادث ، لا لأنه ـ فى ذاته ـ مما يعلق بالذاكرة ، وإنما لأنه يجول بخاطرى أنه كانت له عواقب تدفعه إلى ذاكرتى كثيرا .

---

(١) كان الدواء حبوبا لتليين المعدة . ومن هنا ندرك أنه لم يكن من اللياقة أن يتدخل رجل فى حديث السيدتين اللتين لم تكونا سوى : مدام دى لوكسمبورج ـ وهى ربة البيت ـ ومدام دى ميربوا ، اللتين سيرد ذكرهما فى الكراسة العاشرة .

وأعتقد أن هذا يكفى لبيان كيف أننى وإن لم أكن غبيا ، إلا أننى كثيرا ما ظن بى ذلك ، حتى من جانب أناس لهم ما يمكنهم من الحكم الصحيح . ومما يضاعف سوء حظى أن ملامحى وعينى توحى بفكرة أفضل ، وأن خيبة هذا الحدس تبدى هذا الغباء للغير بشكل أبشع !.. وهذا الإسهاب فى شرح الفكرة ، الذى تولد عن مناسبة خاصة ، ليس خاليا من النفع بالنسبة لما سيأتى فيما بعد . فهو يتضمن ما يجلى غوامض كثير من الأمور الشاذة التى شوهدت منى ، والتى تعزى إلى طباع وحشية غير اجتماعية ، ليس لدى فى الواقع شىء منها ! فلقد كنت خليقا بأن أحب المجتمع كأى فرد آخر ، لو لم أكن متأكدا من أن ظهورى فيه ليس فى صالحى ، فضلا عن أننى أبدى نفسى شخصا آخر غير ما أنا حقيقة . ومن ثم فان الوضع الذى اتخذته وأنا أكتب وأعيش فى عزلة ، هو عين الوضع الذى يناسبنى تماما . وأينما أكون حاضرا لا سبيل إطلاقا إلى تقدير قيمتى ، ولو تخمينا . وهذا ما جرى لمدام « دوبان » ، برغم أنها كانت امرأة ذكية ، وبرغم أننى كنت أعيش فى دارها لسنوات عدة . ولقد صارحتنى ـ هى نفسها ـ بذلك كثيرا منذ ذلك الحين . ومع ذلك ، فان لهذه القاعدة استثناءات ، سأعود إليها فيما بعد(١) .

أما وقد استقر مجال مواهبى عند هذه الحدود ، فقد تعين الوضع المناسب لى واتضح للمرة الثانية ، ولم يبق من سؤال

---

(١) سنشهد أحد هذه الاستثناءات فيما سيذكره روسو فى الكراسة الرابعة عن زيارته لمجلس الشيوخ فى ( برن ) مع كبير الأساقفة .

سوى : كيف أملأ مكانى ؟.. وكانت الصعوبة تتمثل فى أننى لم أستكمل دراستى ، ولم اكن أعرف ـ كذلك ـ من اللاتينية ما يكفى لكى أصبح قسا . وكانت مدام دى فاران قد فكرت ـ فى بعض الأوقات ـ فى أن اتعلم فى المعهد الدينى ، وتحدثت إلى رئيسه ، وكان راهبا لازاريا(١) ـ يدعى السيد «جرو» ـ طيبا ، ضئيل الجسم ، أوشك أن يفقد ابصار إحدى عينيه ، كما كان هزيلا ، أشيب الشعر . وكان أعظم لازارى عرفته ذكاء ، واقلهم غطرسة .. وما هـذا القول بكثير عليـه فى الحقيقة !

وكان يتردد أحيانا على دار « ماما » ، فكانت تحتفى به ، وتداعبه ، وتعاكسه كذلك ، وتحمله احيانا على ان يربط لها مشداتها ( الكورسيه ) ، وهى مهمة كان يقبل عليها راضيا ! وبينما يكون منهمكا فيها ، تأخذ فى الجرى ـ فى الغرفة ـ من جانب إلى آخر ، لتفعل شيئا هنا ، وشيئا هنـاك ، والسيد الرئيس يتبعها ـ مشدودا إلى الخيط ـ وهو يزمجر ولا ينفك يقول : « ولكن ، اثبتى يا سيدتى ! » .. وكان هذا موضوعا طريفا جديرا بالتصوير !

وتقبل السيد « جرو » مشروع «ماما» بتحمس قلبى ، فقنع بأجر متواضع لإقامتى ، وتكفل بتعليمى ، ولم يشترط سوى موافقة الأسقف ، الذى لم يمنح هذه الموافقة فحسب ، وإنما

---

(١) من اتباع مذهب القديس لازار فى الرهبنة .

وتحمله أحيانا على أن يربط لها مشدتها ( الكورسيه ) ،
وهى مهمة كان يقبـــل عليهـــا راضـــيا !..

رغب فى دفع نفقات إقامتى ، كما سمح بأن أظل فى زيى المدنى إلى ان يقضى لى بالنجاح المنشود ، بعد امتحان !

* * *

اى تحول هذا !.. وكنت مضطرا إلى الانصياع ، فذهبت إلى المعهد الدينى وكأننى ذاهب إلى عقوبة اليمة ! فيا للمعهد من مأوى حزين كئيب ، لا سيما لمن بارح لتوه دار امرأة حبيبة .. ولم أحمل معى سوى كتاب واحد ، رجوت « ماما » ان تعيرنيه ، وكان مصدر عزاء كبير لى . ولن يتصور احد اى كتاب كان ذلك !.. لقد كان كتابا فى الموسيقى !.. فبين المواهب التى تعهدتها «ماما» فى نفسها ، لم تكن الموسيقى منسية . إذ كان لها صوت عذب ، وكانت تجيد الغناء ، وتعزف ـ إلى حد ما ـ على « البيانو » ، وقد تفضلت بتلقينى بعض دروس فى الغناء ، وكان لابد لها من أن تبدأ من الأصول الأولى ، إذ اننى كنت لا أكاد أدرى شيئا من موسيقى مزامرنا. وكانت ثمانية أو عشرة دروس على يدى امرأة ـ وهى دروس لم يكن سبيل إلى استمرارها دون ما يعكر جوها ويقطع استرسالها ـ أقل بكثير من أن تمكننى من السلم الموسيقى ، أو من الإلمام بالعلامات الموسيقية . على أننى كنت من الشغف بهذا الفن بحيث رغبت فى أن أحاول المران بنفسى . ولم يكن الكتاب الذى اصطحبته من الكتب السهلة ـ فى ذاته ـ فقد

تضمن اغانى « كليرامبو » . ومن الممكن تصور مدى إقبالى وعنادى ، عندما أقول إننى وفقت ـ دون دراية ولا تبديل ـ إلى أن أترجم وأغنى ، دون خطأ ، اللحن الأول من اغنية « الفيه واريئيز » وكلماتها .. وإن كان هذا اللحن ـ فى الواقع ـ موزونا بحيث لا يستلزم اكثر من إلقاء الشعر مع مراعاة المسافات والوحدة ، لكى يكسب وقع الحن !

وكان فى المعهد « لازارى » لعين تعهدنى ، فجعلنى اكره اللغة اللاتينية التى أراد أن يلقننى إياها . وكان له شعر ناعم، أسود ، ينضح بالدهن ، ووجه كرغيف من خبز الزنجبيل(١) ، وصوت كصوت الجاموس ، ونظرة كنظرة البومة ، ولحية كذقن التيس !.. وكانت ابتسامته ساخرة ، وأطرافه مخلخلة كأطراف الدمية !.. ولقد نسيت اسمه البغيض ، ولكن وجهه المخيف ، ذا اللطف المتكلف ، ظل باقيا فى ذاكرتى ، لا اكاد انكره دون أن أرتجف . ولا أزال أتصور أننى ألقاه فى الردهات ، رافعا فى جلال قلنسوته المربعة المتسخة ، مشيرا لى بدخول حجرته ، التى كانت أبغض لدى من غرفة السجن ! .. فتصور ـ على سبيل المقارنة ـ استاذا كهذا لتلميذ راهب كان ينتمى إلى البلاط الملكى !

---

(١) نوع من الخبز يخلط دقيقه بالزنجبيل .

ولو قدر لى أن أمكث شهرين تحت رحمة هـذا الوحش ؛ فاننى موقن من أن راسى ما كان ليحتمل ذلك . ولكن السـيد جرو الطيب لاحظ اننى كنت حزينا ، وأننى لم اكن اقبل على الاكل ، بل كنت ممعنا فى الهزال ، فأدرك سر أساى ـ إذ لم يكن هذا بالأمر العسير! ـ وأنقذنى من براثن هذا الحيوان!.. وبتناقض آخر ، شديد الغرابة هو الآخر ، اسلمنى إلى الطف الرجال : وكان راهبا شابا من ( فوسيينى )(١) - يدعى السيد « جاتييه » ، كان موشكا على الفراغ من الدراسة فى المعهد . وقد شاء ـ بدافع من الرغبة فى إرضاء السيد جرو ، وبدافع من الإنسانية على ما أعتقد ـ أن يسلب دراساته الوقت الذى وهبـه لتلقينى دروسى . والحق أننى أبدا ما رايت أسارير اكثر تأثيرا فى النفس من أسارير السيد جاتييه !.. فقد كان أشقر ، تميل لحيته إلى الحمرة ، وله الهيئة المألوفة لدى أهل إقليمه الذين يخفون تحت مظهرهم الثقيل ذكاء وافرا . على أن ما كان يميزه حقا هو روح لطيفة ، رحيمة ، مفعمة بالود . وكان فى عينيه الزرقاوين الواسعتين خليط من الرقة والحنان والأسى ، تجعل من المستحيل على أى شـخص أن يراه دون أن يميل إليه .. وكان من الممكن أن يقال ، من نظرات هذا

---

(١) مقاطعة صغيرة فى دوقية ( سافوا ) .

الشاب المسكين ومسلكه ، أنه كان على علم بمصيره ، وأنه كان يشعر بأنه ولد ليكون شقيا !

ولم تكذب شخصيته مظهره ، فقد كان يتميز بالصبر وحب الإرضاء ، مما جعله يبدو أقرب إلى الاستذكار معى منـــه إلى التدريس لى !.. وكان هذا وحده أكثر من أن يكفى لأن يحملنى على حبـــه .. ومع ذلك ، فعلى الرغم من كل الوقت الذى منحنيه ، وعلى الرغم من كل التحمس القلبى الذى وجهه كل منا إلى دراساتنا ، ومع أنه سار على خير نهج ، فاننى لم أحظ من اجتهاده الجم إلا بتقدم بسيط ! ومن الغريب اننى ، بمـــا أوتيت من إدراك واسع ، لم أتعلم شيئا من الأساتذة ـــ فيما عدا أبى والسيد لامبرسييه ـــ أما القليل الذى عرفتـــه فوق ما علمنيه هذان ، فقد حصلته بنفسى ، كما سيتجلى فيمـــا بعد . فان روحى التى لا تصبر على أى نوع من النير ، لا تقوى على الرضوخ لحكم اللحظة . بل إن الخوف من عدم التعلم يحول دون أن انتبه ، كما أننى ، خوفا من أن أجعل الشخص الذى يتحدث إلى يفقد صبره ؛ أتظاهر بالفهم ، ومن ثم يمضى قدما فى حديثه ؛ دون أن أعى شيئا ! فلا بد لعقلى من أن يحدد الوقت الذى يروق له للعمل ، ولا يستطيع أن يخضع للوقت الذى يحدده له الغير !

وحان وقت تنصيب معلمى « شمباسا » ، حسب الطقوس

الدينية المألوفة ، فعـــاد إلى إقليمه ، وحمل معه حسراتى ، ومحبتى ، وعرفانى . وقد قدمت من أجـــله نذورا لم تتقبـــل بأكثر مما تقبلت به النذور التى قدمتها من أجل نفسى . ولقد علمت بعد ذلك ببضع سنوات ، أنه بينما كان نائبا لأبرشية ، انجب طفلا من فتاة كانت هى الوحيدة التى أحبها ، برغم قلبه المسرف الرقة . وكانت هذه فضيحة شنيعة فى أبرشية كانت تخضع لأنظمة شديدة . فان القساوسة ـــ نظرا لخضوعهم لنظم طيبة ـ ينبغى لهم الا ينجبوا أطفالا إلا من نساء متزوجات!! .. ومن ثم فان القس الشاب سجن لانتهاكه قانون العفـــة هذا ، وفضح ، وجرد من رتبته . ولست أدرى ما إذا كان قد استرد مركزه فيما بعد ، ولكن الشعور بســـوء حظه نقش بخطوط عميقة على قلبى ، وقد عاودتنى قصته عندما كتبت « اميل » ، فمزجت شخصيتى السيد جاتييه والسيد جايم ، وجعلت من هذين القسين الفاضلين الشخصـــية الأصـــلية لأسقف سافوا ، وإنى لأغبط نفسى لأن الشـــخصية التى خلقتها لم تنل من قدر الشخصيتين الأصليتين !

وفى اثناء وجودى فى المعهد الدينى ، كان الســـيد دوبون قد اضطر إلى مبارحة (انيسى) .. فقد خطر للسيد «كورفيزى» وكيل الحكومة أن يستاء من غرامه بزوجته ! وكان هذا اشبه

بما جرى لكلب البستانى(١) .. ذلك لأنه بالرغم من أن مدام كورفيزى كانت ذات جمال يهفو بالقلوب ، إلا أن زوجهـا ـ الوكيل ـ كان يعيش معهـا على شقاق ، إذ أن الأهواء التى ورثها عن أهل الجبال النائية جعلت زوجته غير ذات نفع له ، فكان يعاملها بوحشية أثارت مسألة الانفصال بينهما . وكان السيد كورفيزى رجلا شريرا ، أسود كالفأر الجبلى ، خطافا كالحداة ، وقد انتهى به استغلاله سلطاته إلى طـرده من منصبه . ويقال إن أهل الريف يتشفون فى أعدائهم بالأغانى ، أما السيد دوبون فقد تشفى بمسرحية هزيلة . وقد أرسل هذه التمثيلية إلى مدام دى فاران ، التى اطلعتنى عليهـا فأعجبت بها ، وتولدت لدى نزوة تأليف مسرحية أخرى ، لأرى ما إذا كنت قد ظللت « بهيما » كما وصفنى يوما ! على أننى لم أحقق هذا المشروع إلا فى (شامبيرى) ، حيث كتبت «عاشق نفسه» ! ( ومن ثم فاننى عندما قلت فى مقدمة هذه المسرحية إننى كتبتها فى الثامنة عشرة من عمرى ، إنما كنت أكذب ، إذ أننى تجاوزت عن بضع سنوات ! ) .

* * *

(١) الظاهر أن روسو يشير بهذا الى قصة كانت شائعة بين ابناء عصره .

وفى حوالى ذلك الوقت ، وقع حادث كان قليل الأهمية فى حد ذاته ، ولكنه كان ذا عواقب بالنسبة لى، كما أنه أحدث ضجة فى العالم عندما نسيته . فلقد كنت أحرص على التماس الإذن بالخروج من المعهد مرة فى كل أسبوع ، ولست بحاجة إلى أن أذكر كيف كنت أفيد من ذلك . وفى يوم من أيام الآحاد ، كنت لدى «ماما» عندما شب حريق فى إحدى بنايات « الرهبان السمر » ، وكان ملاصقا لدار مدام دى فاران . وكان هذا المبنى ـ الذى أقيم فيه قرن الرهبان ـ مليئا بالوقود الجاف، فسرعان ما أصبح كله شعلة من النار ، وأصبحت دار السيدة فى خطر عظيم ، وقد لفها اللهب الذى حملته إليها الريح . وصار من الواجب نقل الأثاث بسرعة من الدار ، وحمله إلى الحديقة التى كانت مواجهة لنوافذ حجرتى القديمة ، حيث كان يجرى خلفها الجدول الذى تحدثت عنه . وكنت من الاضطراب بحيث رحت ألقى من النافذة بدون وعى كل ما كان يقع تحت يدى ، ولو كان حجرا كبيرا من أحجار الجدار كنت ـ فى الأوقات الأخرى ـ لا أكاد أقوى على رفعه .. بل إننى أوشكت أن ألقى كذلك سريرا كبيرة ، لو لم يردنى شخص ما عن ذلك ! ولم يقبع الأسقف الطيب ـ الذى كان فى زيارة «ماما» فى ذلك اليوم ـ خاملا ، بل إنه انتقل بها إلى الحديقة ، حيث شرع يصلى معها ، ومع كل من كانوا هناك .. حتى إذا وصلت إلى الحديقة بعد ذلك بقليل ، وجدت الجميع جاثين

على ركبهم ، فحنوت حذوهم . وفى أثناء صلاة الرجل التقى، تغير اتجاه الريح فجأة ، وفى اللحظة المناسبة ، فاذا السنة اللهب التى كانت تحوط الدار والتى أخذت تسعى إلى النوافذ ، تتجه إلى الجانب الآخر من الفناء ، فلم يصب البيت بأى سوء !

وبعد ذلك بعامين ـ وكان السيد دى برنيكس ، الأسقف ، قد توفى ـ شرع الرهبان الانطونيون ، وهم زملاؤه السابقون، فى جمع الأنباء التى يمكن استغلالها فى تطويبه(١) . واستجابة لرجاء الأب « بوديه » أضفت إلى تلك الأنباء شهادة بالواقعة التى ذكرتها ، والتى كنت فيها على صواب . ولكنى أخطأت إذ قدمتها على أنها معجزة ! فلقد رأيت الأسقف وهو يصلى ، ورأيت الريح تتبدل أثناء صلاته ، وفى اللحظة المناسبة تماما .. وكان ينبغى أن أذكر هذا وأشهد به . أما أى الأمرين كان سببا للآخر ، فهذا ما لم يكن ينبغى لى أن أشهد به ، لأننى لم أكن أملك أن أعرفه . ومع ذلك فاننى ـ بقدر ما استطيع أن أذكر آرائى يومئذ ـ كنت كاثوليكيا مخلصا ، ومن ثم فقد كنت صادق الإيمان ، ولكن حب الغرائب الخارقة ـ وهو طبيعى فى فؤاد البشر ـ وتوقيرى لهذا الراهب الوقور ،

---

(١) التطويب فى المسيحية هو أن يعلن البابا ـ أو البطريرك لدى الارثوذكس ـ بأن شخصا قد حظى بالتمجيد فى السماء ، فأصبح فى عداد القديسين ـ اذا كان ميتا ـ أو اقترب من القداسة، اذا كان على قيد الحياة.

والزهو المستتر بأننى ربما كنت قد ساهمت بنفسى فى المعجزة ، ساعدت على تضليلى . أما الشىء المؤكد فهو انه إذا كانت تلك المعجزة نتيجة للصـــلاة الحارة ، فقد كان من حقى أن أطالب لنفسى بنصيب فيها !

وعندما نشرت « رسائل الجبل » ـــ بعـــد ذلك بأكثر من ثلاثين عاما ـــ نقب السيد « فريرون » بطريقة ما عن هـــذه الشـهادة ، واستغلها فى تعليقاته . وجدير بى أن أعترف بأن هذا الكشف كان موفقا ، وقد بدا لى إذ ذاك أن إعلانه فى تلك المناسبة كان أمرا سارا .

وكان مقدرا لى أن أكون طريد كل المهن . فمع أن السيد دى جاتييه رفع عن تقدمى فى الدراسة تقريرا اعتبرته أقـــل ما كان بوسعه أن يقدمه ، من حيث إساءته إلى ، إلا أنه رؤى أن تقدمى لم يكن متناسبا مع مجهوداتى ، وأن هذا لم يكن مشجعا على المضى فى دراستى . ومن ثم فان الأسقف ورئيس المعهد فصلانى وردانى إلى مدام دى فاران كشخص لا يصلح ولو لأن يكون مجرد قس ، وإن كان ـ فيما عدا ذلك ـ فتى طيبا ، وخلوا من أية رذيلة ، كما قالا . وكان هذا هو السبب فى أنها لم تتبننى ، برغم تعدد الأحكام المثبطة ضدى !

وأعدت إليها ـــ مزهوا ـــ كتابهـــا الموسيقى الذى أفدت منه . وكان لحن « الفيه واريثيز » هو كل ما تعلمت ـ تقريبا ـ

فى المعهد الدينى . ولقد أوحى إليها ميلى الملحوظ إلى هـذا الفن ، بأن تجعل منى موسيقيا ! وكانت الفرصـة مواتية ، فقد كانت الموسيقى تعزف فى دارها مـرة فى الأسـبوع على الأقل . وكان رئيس فريق الكاتدرائية الموسيقى يدير هـذه الحفلات الصغيرة ، وقد اعتاد أن يتردد كثيرا على الدار . وكان باريسيا يدعى السيد « لوميتر » ، بارعا فى التلحين ، كثير النشاط ، مرحا جدا ، لا يزال شابا ، على قسط كبير من الملاحة ، ونصيب قليل من الذكاء . . لكنه كان ـ فى مجموعه ـ طيبا . وقد عرفتنى به « ماما » ، فملت إليه ، كما أنه لم ينفر منى . وبحث أمر الأجر ، وتم الاتفاق . وبإيجاز ، ذهبت إلى داره ، حيث قضيت أحب شتاء لدى ، إذ أن الدار لم تكن تبعد أكثر من عشرين ياردة عن منزل « ماما » ، فكان بوسعنا أن نكون إلى جانبها فى أية لحظة ، وكثيرا ما تناولنا عشاءنا معها .

ولابد أنكم أدركتم أن الحياة فى دار « لوميتر » ـ بما فيها من غناء دائم ، ومن صحبة الموسيقيين والأطفـال المنشدين «الكورس» ـ قد راقت لى أكثر من حياة المعهد الدينى مع رهبان القديس لازار . على أن هذه الحياة ، وإن كانت أكثر حرية ، إلا أنها لم تكن أقل نظاما . فقد روضت على حب الاستقلال دون أن أنسى استغلاله البتة . ففى ستة أشهر كاملة ، لم أخرج مرة واحدة إلا لأذهب إلى بيت « ماما » أو إلى الكنيسة ، ومع

ذلك فاننى لم أشعر بشوق إلى الخروج . كانت تلك إحدى فترات حياتى التى عشت خلالها فى أعظم دعة ، والتى أنكرها بأعظم اغتباط . فمن بين الأوضاع المتباينة التى وجدت نفسى فيها ، أوضاع امتازت بشعور من السكينة والدعة يجعلنى ـ حين اذكرها ـ اتأثر بهـا وكأننى ما أزال فيهـا . فلسـت أنكر الأوقات والأماكن والأشخاص فحسب ، وإنما أنكر كل الأشياء التى كانت تحيط بى ، وحرارة الجو ، وعبير الوسط ، ولونه ، وأى طابع محلى لا يوجـد إلا هنـاك ، بحيث تردنى ذكراه الحية إلى هناك من جديد !.. مثال ذلك أن كل ما كان يتردد فى دار رئيس الفريق الموسيقى ، وكل ما كان الفـريق يترنم به ، وكل ما كان يحدث هناك ، وزى انشمامسة الجميل، ومسوح القساوسة ، وتيجان المرتلين ، ووجوه الموسيقيين ، ونجار أعرج طاعن فى السن كان يعـزف على الكمان الكبير « الكونترباس » ، وراهب صغير أشقر يعزف على الكمـان العادى ، والرداء الكنسى المهلهل الذى كان السيد « لوميتر » يرتديه فوق لباسه المدنى بعد أن ينزع عنه سيفه ، والقميص الاكليروسى البـديع ، الرقيـق النسـيج ، الذى كـان يستر به الرداء البالى عندما يسعى إلى فرقة المرتلين ، والزهو الذى كنت أسير به ـ وأنا ممسك بصافرتى الصغيرة ـ لأتخذ مكانى مع العازفين على المنصة ، لأشترك فى ختام مقطوعة صغيرة لحنها السـيد « لوميتر » خصيصـا من أجلى .. ثم

الغداء الطيب الذى كان ينتظرنا بعد ذلك ، والشهية الملحوظة التى كنا نقبل بها عليه .. هذا التتابع الحافل ، الذى اتمثله ، قد فتننى ـ فى ذكره ـ أكثر مما فتننى فى الحقيقة مائة مرة ! ولقد احتفظت دائما بميل عاطفى للحن معين من «كونديتور آلمى سيديرم» يرافق شعرا من بحر الغمب(١) ، لأننى سمعته مرة ـ فى يوم أحد الصوم الكبير ـ وأنا مستلق فى فراشى ، وكان يرتل على درج الكاتدرائية قبيل انبثاق النهار ، وفقا لعادات تلك الكنيسة . ولقد كانت الآنسة « ميرسيريه » ـ وصيفة « ماما » ـ على دراية بقسط من الموسيقى . ولن أنسى البتة أرجوزة دينية صغيرة كان السيد « لوميتر » يحملنى على أن أغنيها معها ، فكانت سيدتها تصغى إليها فى طرب عظيم . وقصارى القول أن الجميع ، حتى الخادم الطيبة « بيرين » ـ وهى فتاة ساذجة اعتاد الفتية المرتلون أن يثيروا غيظها ـ هؤلاء جميعا يمثلون للخاطر من بين ذكريات تلك الأيام الهنيئة البريئة ، التى كثيرا ما تتراءى لى لتطربنى وتحزننى !

وعشت فى ( أنيسى ) زهاء عام دون ما لوم ولا تثريب ، فقد كان الناس كلهم راضين عنى ، فأننى ـ مذ غادرت تورين ـ لم أرتكب حماقة ، وما كان لى أن أرتكب ما دمت تحت بصر

---

(١) بحر من الشعر الاعجمى تكون القافية فيه مؤلفة من كلمات ذات مقطعين .

« ماما » ، فقد كانت ترشدنى ، وكانت دائما تحسن إرشادى ، وأصبح تعلقى بها هو عاطفتى المشبوبة الوحيدة . ومما يدل على أنهـا لم تكن عاطفة رعنـاء ، أن قلبى كان يكون عقلى وإدراكى . ومن الصحيح أن ثمة إحساسا واحدا كان يبقلع ـ كما ينبغى أن يقال ـ كل مقدراتى وكفاءاتى ، فجعل فى غير استطاعتى أن أتعلم شيئا ، حتى الموسيقى ، بالرغم من أننى بذلت كل جهـدى . على أنه لم يكن ذنبى !.. فقـد كانت العزيمة الطيبة متوفرة على أتم وجه ، كمـا كانت المثـابرة موجودة . ولكنى كنت شارد الذهن ، حالما .. فكنت أتنهد : ما الذى أملك أن أفعله ؟ لم يكن ينقص تقدمى شىء من الأشياء المتوقفة على أنا ، ولم أكن أحتاج ـ لكى أرتكب حمـاقات جديدة ـ إلى غير موضوع أو شخص « ملهم » يوحى إلى بهذه الحماقات !.. ولقد ظهر هذا الموضوع ، إذ تولت المصادفة تدبير الأمور ، وعرف رأسى الغبى كيف يستغل ذلك ، كمـا سترى مما يلى :

ففى إحدى أمسيات شهر فبراير البارد ، سمعنا طرقا على الباب الخارجى ، بينما كنا نحيط بالمدفأة . وحملت « بيرين » مصباحها ، وهبطت ففتحت البـاب ، وإذا بشـاب يدخل ، ويصعد معها ، ويقدم نفسه فى غير كلفة ، ويوجه إلى السيد « لوميتر » تحية قصيرة ، لبقة ، ويعلن أنه موسيقى فرنسى

دفعه سوء حالته المـالية إلى أن يعرض خدماته على كنائس الابرشيات ليحصل على ما يمكنه من مواصلة الانطـلاق فى طريقه . وإزاء هذه الكلمات من « الموسيقى الفرنسى » ، خفق قلب « لوميتر » الطيب ، فقد كان يتدله فى حب بلده وفنه . واحتفى بالمسافر الشاب ، وعرض عليه مأوى لليلته ، وهو ما كان يبدو فى أمس الحاجة إليه ، ومن ثم فقد قبله دون كثير كلفة . واخذت اتفحصه وهو يتدفأ ويسمر فى انتظار العشاء . كان قصير القامة ، عريض المنكبين . وكان ثمة عيب ـ لم أدر كنهه ـ فى قوامه ، دون ما نقص معين أو تشويه محدد . كان ـ إذا صح التعبير ـ ذا ظهر محدودب ، مع استواء لوحى الكتفين ، كما أظن أنه كان يعرج قليلا فى مشيته . وكان فى ثوب أسود أبلاه الاستعمال المستمر أكثر ممـا أبلاه القدم ، فتهلهل .. وقميص من نسيج ثمين ولكنه جد متسخ ، به زوائد ذات حواف دقيقة الوشي تزين صـدره ، وطماقين (١) كان بوسعه أن يدس ساقيه معا فى أى منهما !.. كمـا كان يتقى الصقيع بقبعة صغيرة يستطيع أن يدسها تحت إبطه !.. ومع هذا الزى المضحك ، فانه كان على شىء من النبل لم تكن هيئته تكذبه . كانت طلعته رقيقة بشوشة ، وكان يتـكلم بطلاقة

---

(١) الطماق : وقاء يعلو الحذاء وبعض الساق ، وقد اشتهر باسـمه الأعجمى « جيتر » أو « طزلك » .

ولباقة ، ولكن فى تواضع جم .. كان كل شىء فيه ينم عن شاب ماجن — وإن كان طيب التربية — لم يكن يستجدى كالمتسولين ، وإنما كالمجانين ! ولقد أنبأنا بأنه يدعى « فينتور دى فيينيف » ، وقد وفد من باريس ، وضل الطريق .. وأنه نسى ، إلى حد ما ، دوره كموسيقى . وأضاف أنه كان ذاهبا إلى ( جرينوبل ) ليقابل قريبا له عضوا فى البرلمان .

وأثناء العشاء دار الحديث حول الموسيقى ، فأجاد الكلام عنها . كان يعرف كبار العازفين جميعا ، وكافة المؤلفين الذائعى الصيت ، وكل الممثلين ، وجميع الممثلات ، وحسان النساء طرا ، والسادة العظماء بأسرهم ! كان يبدو ملما بكل شىء يقال ، ولكن ما أن يثار موضوع ، حتى يحول عنه الانتباه ببعض الفكاهات التى تبعث على الضحك وعلى نسيان ما يقال !.. وكنا فى يوم السبت ، ومن المقرر أن نعزف فى الكاتدرائية فى اليوم التالى ، فاقترح عليه البيد لوميتر أن يشترك فى الغناء هناك .. « عن طيب خاطر ! » ، فسأله عن طبقة الصوت .. « الطبقة العليا » ، ثم مضى يتحدث عن شىء آخر !.. وقبل الذهاب إلى الكنيسة ، قدم إليه دوره ليطلع عليه ، فلم يلق عليه نظرة . وأذهل تصرفه هذا « لوميتر » ، فهمس فى أذنى : « لسوف ترى أنه لا يعرف علامة واحدة من العلامات الموسيقية ! » ، فأجبت : « شد

ما أخشى أن يكون كذلك » . ورحت أرقبه فى قلق ، حتى إذا بدىء الغناء ، خفق قلبى فى قوة كبيرة ، فقد كنت شديد الاهتمام به . وسرعان ما تبينت ما طمأننى ، إذ أنه غنى قطعتيه بأداء صحيح وبكل ذوق سليم يمكن تصورهما ، وفوق ذلك ، بصوت بالغ الجمال . أبدا لم ألق مثل هذه المفاجأة المستحبة ! وبعد القداس ، تلقى السيد فينتور التهانى ، جزافا من الكهنة والموسيقيين ، فكان يجيب عنها متفكها ، ولكن فى كثير من الكياسة دائما . وعانقه السيد لوميتر بحرارة ، وكذلك فعلت أنا ، وقد أبصر أننى كنت مغتبطا ، فبدا أن هذا سره !

وإنى لواثق من أن القارىء سيقرنى على أننى وقد أولعت بالسيد باكل ـ الذى لم يكن برغم كل شىء سوى قروى جلف ـ كنت حريا بأن أشغف بالسيد فينتور الذى أوتى ثقافة وتربية ومواهب وذكاء وخبرة بالدنيا ، والذى كان من الممكن أن يوصف بأنه ماجن مستحب ! . . وكان هذا عين ما حدث لى ، وما أظن أنه كان حريا بأن يحدث لأى شاب آخر فى مكانى . بل إن سهولة حدوثه كانت خليقة بأن تزداد كلما كان المرء أسلم رأيا فى إدراك الكفاءة ، وكلما كان أشد استعدادا لأن يفتتن بها . فليس من شك فى أن « فينتور » قد أوتى كفاءة ، وكفاءة نادرة فى مثل سنه ، تلك هى عدم الاندفاع إلى الكشف عن كل ما اكتسب من معرفة وتجربة وخبرة . ومن الصحيح أنه كان

يتمشدق بأشياء كثيرة لم يكن على علم بها ، ولكنـــه لم يكن يقول شيئا عن الأشياء التى كان على إلمام طيب بها ، والتى كانت كثيرة العدد .. وإنمـــا كان ينتظر حتى تحين مناســـبة لعرضها ، فاذا ما حانت انتهزها دون تلهف وانسفاع ، فكان هذا يحدث أكبر الأثر . ولما كان يقف عقب كل موضوع ، فلا يحدث عما عداه ، لذلك لم يكن من سبيل إلى التكهن بالوقت الذى يفرغ عنده من عرض كل ما كان لديه .. كان فى حديثه مداعبا ، مرحا ، لا ينضـــب له معين ، ذا جانبية خلابة .. يبتسم دائما ولا يضحك أبدا ، ويتكلم بأرق لهجة عن أشـــد الموضوعات جفافا ، فيجعلهـــا مستســـاغة !.. حتى أشد النساء حياء كن يذهلن لما يتحملنه منه ، وكم شعرن بأن من الخليق بهن أن يظهرن له الغضب ، فلم يجدن القـــدرة على ذلك !.. ولم يكن ينشد من النساء سوى المومسات . ولست اعتقد أنه خلق ليكون ذا ثروة وجاه ، ولكنه خلق ليثير إيناسا ومرحا لا حد لهما فى مجالس أولئك الذين أوتوا الجاه والثراء ! وكان من العسير أن يبقى محصورا فى وسط الموسيقيين طويلا وهو الذى يملك مثل هذه المواهب المستحبة ، فى بلاد تقدرها وتحبها !

ولقد كان ميلى إلى السيد «فينتور» أكثر رشدا فى أسبابه ، وأقل انحرافا عن الصواب فى نتائجه ، بل وأكثر حرارة وأطول بقاء من حبى للســـيد باكل !.. فلقـــد احببت ان اراه ، وان

اسمعه ، وكان كل ما يفعله يبدو لى رائعا ، وكل ما يقوله يبدو لى آيات منزلة ، ولكن افتتانى به لم يذهب إلى الدرجة التى لا أطيق معها فراقه . فلقد كان لى فى الجيرة وقاء عاصم من هذا الشطط (١) . وإلى جانب ذلك شعرت بأن مبادئه ، وإن كانت جد صالحة له ، إلا أنها لم تكن تصلح لى ، فلقد كنت اهفو إلى نوع آخر من المتع لم تكن لديه أية فكرة عنه ، بل انه كان حريا بأن يسخر منى من أجله ! ومع ذلك ، فلقد وددت أن أربط هذا الود ، بذاك الذى كان يسيطر على . فتحدثت عنه إلى « ماما » فى وجد وحرارة ، كما أن « لوميتر » حدثها عنه فى إطناب ، فرضيت بأن يحضر إلى دارها . ولكن هذا اللقاء لم يكن موفقا على الاطلاق ، إذ أنه وجد « ماما » متحذلقة ، بينما وجدته هى ماجنا ، وخشيت على من مثل هذه المعرفة السيئة ، فلم تكتف بأن حرمت على إحضاره إلى الدار مرة أخرى ، بل انها راحت تبين لى ـ بوضوح قوى ـ الأخطار التى أتعرض لها مع هذا الشاب ، حتى أننى ازددت تحفظا فى اندفاعى نحوه ، ولحسن حظ أخلاقى وإدراكى ، لم نلبث أن افترقنا بعد قليل !

* * *

كان للسيد « لوميتر » ما لأبناء فنه من ميول ، فكان يحب النبيذ .. على أنه كان يزهده إذا ما جلس إلى المائدة ، اما اثناء عكوفه على العمل فى مكتبه ، فقد كان لابد له من أن

---

(١) يقصد مدام دى فاران ، اذ كان بيتها مجاورا لدار السيد لوميتر .

يشرب . وكانت خادمته تعرف ذلك تماما ، فكان إذا ما أعد ورقه للتأليف ، وحمل كمانه ، لحقت به قنينة الشراب والكأس بعد لحظة !.. وكانت تستبدل بها قنينة اخرى مليئة بين آن وآخر ، فقد كان يكثر من النبيذ دون أن يثمل . وكان هذا فى الحق شيئا يدعو للرثاء ، إذ أن « لوميتر » كان فتى طيبا بفطرته ، وطروبا ، حتى أن « ماما » لم تكن تدعوه إلا بـ « قطى الصغير » !.. وكان ـ لسوء الحظ ـ مشغوفا بموهبته الموسيقية ، فكان يسرف فى العمل ، وبالتالى فى الشراب. وقد اثر هذا على صحته ، ثم على طباعه فى النهاية ، فكان فى بعض الأوقات كثير الهواجس ، سهل الاستثارة . وكان عاجزا عن اية خشونة او غلظة ، عاجزا عن ان يقصر فى منح كل إنسان حقه من الاحترام ، فما قال يوما سبة ، ولو لصبى من المرتلين. وكذلك لم يكن أحد ليقصر فى احترامه وتقديره ، وكان هذا عدلا !.. ولكن سوء حظه تمثل فى أنه كان قليل الذكاء ، لا يميز بين التصرفات ولا بين الشخصيات ، ومن ثم فكثيرا ما كان يتوهم الإساءة لغير ما سبب !

ولقد فقد مجمع أساقفة جنيف القديم ـ الذى كان كثير من الامراء والأساقفة يتشرفون بدخوله ـ بهاءه القديم ، فى مهجره ، ولكنه احتفظ بكرامته وكبريائه . فلابد دائما ـ للانضمام إليه ـ من أن يكون المرء من السادة ، او من حاملى درجة الدكتوراه من « السربون » ، وإذا كان ثمة فخر مباح بعد ذاك المستمد من الكفاءة الشخصية ، فذاك هو الفخر المستمد من المولد . هذا إلى جانب أن كل القساوسة الذين

أوتوا رجالا مدنيين فى خدمتهم ، كانوا يعاملونهم عادة بكثير من الترفع والتعالى. وهكذا كان رجال الكنيسة يعاملون «لوميتر» المسكين فى كثير من الأحيان ، لا سيما المرتل الذى كان يدعى السيد الأب دى فيدون ، والذى كان فى كافة النواحى الأخرى موفور الأدب ولكنه شديد الزهو بنبل أصله ، فقد كان لا يولى « لوميتر » دائما حقه من التقدير الذى تؤهله له مواهبه ، ولم يكن هذا ليحتمل راضيا الغض من شأنه . ولقد وقع بينهما فى « أسبوع الآلام » ـ من ذلك العام ـ نزاع أشد احتداما من ذى قبل ، بسبب ترتيب الحضور فى مأدبة عشاء اعتاد الأسقف أن يقيمها لرجال الكنيسة ، وكان « لوميتر » يدعى إليها دواما. فقد أبدى له المرتل بعض الازدراء الصريح ، ووجه له كلمات قاسية لم يستطع أن يتحملها . ومن ثم فقد عقد العزم لفوره على أن يفر فى الليلة التالية . ولم يستطع شىء أن يثنيه ، برغم أن مدام دى فاران ـ التى ذهب إليها ليودعها ـ بذلت قصارى جهدها لتحوله عن عزمه . فما كان بوسعه أن ينزل عن لذة الثأر لنفسه من طغاته ، بأن يوقعهم فى مأزق فى عيد الفصح ، وهو الوقت الذى كانت تمس فيه الحاجة إليه . على أن الحاته كانت أشد بواعث حيرته ، فقد أراد أن يحملها معه ، ولم تكن هذه بالمهمة السهلة ، لأن الألحان كانت تملأ صندوقا كبيرا وعظيم الثقل ، بحيث لا يمكن حمله تحت الذراع .

ولقد فعلت « ماما » ما كان ينبغى أن تفعله ـ وما كنت أنا الآخر أفعله لو أننى كنت فى مكانها ـ فبعد كثير من الجهود غير المجدية لحمله على البقاء ، رأت أنه قد صمم على الرحيل

مهما يحدث ، فتحولت إلى التطوع لمساعدته فى كل ما يمكن ان يعتمد عليها فيه. وإنى لأجرؤ على القول بأن هذا كان واجبا عليها نحوه ، إذ كان « لوميتر » قد وقف نفسه ـ كما ينبغى أن يقال ـ لخدمتها . وكان رهن إشارتها تماما ، سواء فيما يتعلق بفنه ، أو فيما يحتاج إلى عنايته . وكان التحمس القلبى الذى اعتاد أن يبديه فى أداء رغباتها ، يضاعف من قيمة حرصه على إرضائها . ومن ثم فانها ـ بما أبدته من رغبة فى مساعدته ـ إنما كانت تؤدى لصديق ، فى مناسبة حرجة ، ما يقابل كل ما فعله من أجلها فى مناسبات كثيرة متفرقة ـ خلال ثلاث او اربع سنوات ـ وإن كانت قد أوتيت نفسا لا تحتاج ، لكى تؤدى مثل هذه الواجبات ، إلى من يذكرها بأنها التزامات عليها . لذلك استدعتنى ، وأمرتنى بأن أرافق السيد «لوميتر» حتى ( ليون ) على الأقل ، وان اظل ملازما له أطول وقت يكون فيه بحاجة إلى . ولقد اعترفت لى فيما بعد بأن الرغبة فى إقصائى عن « فينتور » كانت ذات شأن كبير فى هذا الإجراء . وتشاورت مع « كلود آنيه » ـ خادمها الأمين ـ بصدد نقل الصندوق ، فكان من رأيه أننا بدلا من أن نستأجر دابة لحمله من ( أنيسى ) ـ مما قد يعرضنا للافتضاح ـ يجب أن نتولى نحن حمل الصندوق إذا ما جن الليل ، إلى مسافة معينة ، ثم نستأجر حمارا من إحدى القرى لنقله إلى ( سيسل ) ، حيث نصبح على أرض فرنسية فلا نكون معرضين لأى خطر . وقد أخذنا بهذه النصيحة ، فرحلنا فى الساعة السابعة من مساء اليوم ذاته ، واتخمت « ماما » كيس نقود « القط الصغير » المسكين ، بمبلغ لم يكن عديم النفع له ، بحجة دفع نفقاتى .

وحمل كلود آنيه والبستانى وإياى الصندوق ـ بقدر ما استطعنا ـ حتى أول قرية ، حيث أعفانا منه حمار .. وبلغنا ( سيسل ) فى الليلة ذاتها .

وأعتقد أننى أشرت من قبل إلى أن ثمة أوقاتا لا أشبه فيها نفسى فى شىء ، حتى لأبدو شخصا آخر ، ذا شخصية مخالفة لشخصيتى . وها كم مثالا لذلك : فان السيد « ريديليه » ـ راعى كنيسة سيسل ـ كان من قساوسة كنيسة القديس بطرس ، ومن ثم كان يعرف « لوميتر » ، كما كان من الذين ينبغى على هذا أن يتوارى عنهم . ولكنى رأيت نقيض ذلك ، فنصحت بأن نذهب فنقدم نفسينا إليه بحجة ما ، ونسأله مأوى لليلتنا ، وكأننا فى ( سيسل ) بموافقة من « المجمع » ! واستساغ « لوميتر » هذه الفكرة التى تجعل ثأره ساخرا ، لاذعا ، ومن ثم سعينا متجلدين إلى دار السيد « ريديليه » الذى أحسن استقبالنا . وذكر له « لوميتر » أنه كان فى طريقه إلى ( بيلاى ) بناء على طلب من الأسقف ، ليدير موسيقاها فى عيد الفصح ، وأنه يتوقع أن يعود بعد أيام قلائل . أما أنا فقد كان على ـ لكى أدعم هذه الأكاذيب ـ أن أسكب مائة أكذوبة أخرى ، بشكل طبيعى ، حتى أن السيد « ريديليه » ـ إذ رآنى فتى جميلا ـ أبدى لى الود وعانقنى ألف مرة . وحظينا بحفاوة طيبة ، وبمضجعين مريحين . ولم يدر السيد «ريديليه» إلى أى حد رفع قدرنا ، وافترقنا كأحس أصدقاء فى العالم ، بعد أن وعدناه بأن نمكث وقتا أطول فى عودتنا . ولم نكد نقوى على الانتظار حتى نخلو إلى نفسينا لنطلق العنان لقهقهتنا . وأصارحكم أنى ما أزال أفعل الشىء ذاته كلما فكرت فى تلك

الحيلة ، فلست أتصور البتة حيلة ماكرة أكثر إحكاما ولا أسعد مصيرا منها. وقد كانت جديرة بأن تنعش نفسينا طيلة الرحلة، لولا أن « لوميتر » ـــ الذى لم يكف عن الشراب وعن التنقل بين حانات الريف ـــ أصيب مرتين أو ثلاثا بنوبات كادت تقضى عليه ، وكانت شديدة الشـــبه بالصرع . وقد زج بى هذا فى مآزق أفزعتنى ، وحملتنى على التفكير فى الخروج من الأمـــر كله بقدر استطاعتى !

وذهبنا إلى ( بيلاى ) لنقضى عيد الفصح ، كما قلنا للسيد ريديليه ، ومع أن أحدا لم يكن يتوقع حضورنا ، إلا أننا لقينا من رئيس موسيقيى الكنيسة ترحيبا ، كما احتفى بنا الجميع بسرور بالغ . فقد كان للسيد لوميتر صيت ذائع فى فنه ، وكان يستحقه عن جدارة . ولقد تاد رئيس موسيقيى ( بيـــلاى ) فخرا بعرض أبدع ألحانه عليه ، وسعى للحصول على تقريظ ناقد مثلـــه ، فقـــد كان لوميتر خبيرا ، وكان إلى جانب ذلك منصفا دائما ، متحررا من الغيرة ، بعيدا عن الرياء . كان أرفع مكانة من كل رؤساء فرق المرتلين الإقليمية ، وقد كانوا يدركون ذلك كل الإدراك ، حتى أنهم كانوا ينظرون إليه كرئيس لهم ، أكثر منه كزميل !

وبعد أن قضينا أربعة أو خمسة أيام ـــ على خير حال ـــ فى ( بيـــلاى ) ، استأنفنا الرحيل ، ومضـــينا فى طريقنا دون ما حوادث سوى تلك التى ذكرتها من قبل . وإذ بلغنا ( ليون ) ، نزلنا فى فندق « نوتردام دى بيتييه » . وفيما كنا ننتظر وصول الصندوق ـــ الذى استطعنا بفضل أكذوبة أخرى ، أن نرسله

ومضينا فى طريقنا دون ما حوادث سوى تلك التى ذكرتها من قبل ..

على مركب فى نهر ( الرون ) بمعونة راعينا الطيب : السيد ريديليه ـ ذهب السيد لوميتر لزيارة معارفه ، ومنهم الأب كاتون ، ( أحد الرهبان السمر ، وسوف يرد ذكره فيما بعد ) ، والراهب دورتان ، كونت دى ليون . وقد تلقاه الاثنان فى إكرام ، ولكنهما غدرا به فيما بعد ، كما سيتبين القارىء فى الحال . فلقد نفد حسن حظه فى دار السيد ريديليه !

بعد يومين من وصولنا إلى ( ليون ) ، كنا نجتاز شارعا صغيرا ، بالقرب من فندقنا ، وإذا لوميتر يصاب باحدى نوباته ، وكانت من العنف بدرجة أنزعتنى ، فرحت أصيح وأصرخ مستنجدا ، وذكرت اسم الفندق ، راجيا نقله إلى هناك . وبينما التف الناس حوله ، متحمسين لمعونة رجل سقط فى الطريق فاقد الوعى وقد أخذ الزبد يفور على فمه ، إذا به يمنى بهجر الصديق الوحيد الذى كان من حقه أن يعتمد عليه . إذ أننى انتهزت اللحظة التى لم يكن فيها أحد يفكر فى أمرى ، وتسللت حول ركن الشارع ، ثم اختفيت . وإنى لأحمد السماء إذ أدليت بهذا الاعتراف الأليم الثالث . ولو كان لدى كثير من هذا النوع ، لهجرت هذا المؤلف الذى بدأته .

لقد بقيت آثار من كل الذى ذكرته حتى الآن ، فى الأماكن التى عشت فيها ، ولكن الذى سأورده فى الكراسة التالية ، يكون مجهولا تماما .. إنها أعظم حماقات حياتى ، وقد كان من حسن الحظ أنها لم تفض إلى نهايات أسوأ مما انتهت إليه . ولكن رأسى كان قد فقد اتزانه ، ثم استرده من تلقاء ذاته ، وإذ ذاك كففت عن الحماقات ، أو أننى لم أعد أرتكب منها

سوى ما هو أكثر ملاءمة لطبيعتى ! وهذه الفترة من شبابى هى إحدى الفترات التى تضطرب ذكراها فى رأسى ، إذ أنه لم يمر بى خلالها من الأحداث شىء مشـــوق لقلبى بدرجة تكفى لأن أحتفظ له بذكرى واضـــحة . ومن ثم فمن العســـير الا ارتكب بعض أخطاء أخلط فيها بين الأزمنة أو الأماكن ، أثناء مثل هذه الروحات والغدوات ، وفى خلال التطورات العديدة المتتابعة .. إننى اكتب معتمـــدا على ذاكرتى تمـــاما ، دون ما مذكرات ، ودون ما مواد تعيننى على التذكر .. وفى حيـــاتى أحداث لا تزال حاضرة وكأنها وقعت لتوها ، ولكن هناك كذلك ثغرات وفراغات لا أملك أن أملأها إلا بروايات مهوشة كتلك الذكريات المتبقية لها . ومن ثم فاننى معرض للخطأ أحيـــانا ، كما أننى قد أرتكب الخطأ ثانية ـــ فى مسائل غير مهمة ـــ إلى أن يحين الوقت الذى أملك فيه عن نفسى معلومات أوثق . أما فى كل ما له أهمية حقيقية من الموضوعات ، فاننى مطمئن إلى دقتى وأمانتى ، اللتين سأحرص عليهما دائما فى كل شىء .. وللقارىء أن يثق من ذلك .

* * *

ما أن غادرت السيد لوميتر ، حتى استقر عزمى ، فكررت عائدا إلى « انيسى » . وكنت قد شغلت بسبب غموض رحيلنا إلى درجة كبيرة ، من أجل سلامة إقامتنا . وقد صرفنى هـــذا الانشغال ـــ الذى استغرق كل اهتمامى ـــ أياما عن التفكير فى العودة . على أن الشعور بالسلامة لم يكد يعفينى من القلق ، حتى عاد وجـــدى إلى سيطرته وسلطانه ، فلم يهف بقلبى أو

يغرينى شيء سوى أن أعود إلى « ماما » . كان صدق تعلقى بها ورقته قد اجتثا من فؤادى كل حماقات الطموح ، ولم أعد أرى سعادة إلا فى العيش معهـــا ، ولا سرت خطوة دون أن أشعر بأننى كنت أبتعد عن هنائى . ومن ثم عدت إليها بأسرع ما كان ممكنا . وكان سفرى متعجلا ، وذهنى شـــاردا ، إلى درجة أننى وإن كنت أذكر بكثير من السرور رحلاتى الأخرى ، فلست أملك أتفه ذكرى لهذه الرحلة ، اللهم إلا مغادرتى ليون ووصولى إلى ( أنيسى ) .. ومنذا الذى يتصور أن تخبو هذه الأخيرة من ذهنى !.. فعند وصولى ، لم أجد مدام دى فاران .. كانت قد رحلت إلى باريس !

ولم يقدر لى قط أن أعرف سر هذه الرحلة .. ولقد كانت هذه السيدة خليقة بأن تذكره لى ، لو أننى ألححت ، فهذا ما أثق منه كل الثقة . ولكن أحدا لم يكن قط أقل منى فضـــولا إزاء أسرار الأصدقاء ، إذ أن قلبى لا يفعم بغير الحاضر ، وهو يمتلىء به تماما ، فلا يبقى فيه ركن خال لأى شيء من الماضى ، فيما عدا المتع السالفة ، التى تؤلف بعد ذلك لذتى الوحيدة !.. على أن الذى أتخيله ـــ من القليل الذى أنبأتنى به « ماما » ـــ هو أن الثورة التى قامت فى ( تورين ) بسبب نزول ملك سردينيا عن عرشه ، جعلتها فى خوف من أن تغدو منسية ، فشاءت ـــ بفضل حيل السيد دوبون ـــ أن تسعى للحصول على نفس ما كان لها من امتيازات ، من بلاط فرنســـا الذى كانت كثيرا ما تقول لى انها تفضله على بلاط ملك سردينيا ، لأن المرء ـــ فى غمرة الشئون الهامة الكثيرة التى يشغل بها ذلك البـــلاط

الفرنسي ـ لا يظل تحت رقابة صارمة.. وإذا كان الأمر كذلك، فمن الغريب حقا أنها لم تقابل ـ عند عودتها ـ بوجوه عابسة، وأنها ظلت تستمتع بمعاشها باستمرار ، ودون انقطاع . ولقد اعتقد كثير من الناس أنها كانت مكلفة بمهمة سرية : إما من قبل الأسقف ـ الذى كانت له بعض شئون فى البلاط الفرنسى ـ وإما من قبل شخصية أعظم سلطانا ، كانت تعرف كيف تضمن لها عودة سعيدة !. والمؤكد ـ إذا كان الأمر كذلك ـ أن اختيار مدام دى فاران كرسول ، لم يكن بعيدا عن الصواب ، فقد كانت تملك كل المؤهلات اللازمة لإنجاح أية مفاوضات ، سيما وأنها كانت لا تزال شابة .. وجميلة !

# الكراسة الرابعة

## ٦ ـ من سنة ١٧٣١ إلى سنة ١٧٣٢

وصلت فلم أجدها ، فتصور مدى دهشتى وأسماى !.. إذ ذاك ، بدأ ندمى على التخلص من السيد « لوميتر » يتخذ شكلا محسوسا ، لم يلبث أن ازداد حدة عندما سمعت بما أصابه من نحس ، فان الصندوق الموسيقى الذى كان يحتوى على كل ثروته .. هذا الصندوق الثمين الذى أنقذ بكثير من العناء ، انتزع منه عند وصوله إلى ( ليون ) ، بناء على أمر الكونت « دورتان » الذى كتب إليه مجمع القساوسة يطلعه على التهريب .. وعبثا طالب « لوميتر » بثروته ، بوسيلة معاشه ، بنتاج عمله طيلة العمر ! وكانت ملكية الصندوق تستحق أن تكون موضوع نزاع قضائى على الأقل ، بيد أن شيئا من هذا لم يحدث ، فقد حسم الأمر فى الحال ـ بحكم قانون الأقوى ! ـ وبهذا فقد « لوميتر » المسكين ثمرة مواهبه .. جهد شبابه ومعين شيخوخته !

ولم يكن ينقص الضربة التى تلقيتها شىء كى تصبح مضنية، ولكنى كنت فى سن ليس للأحزان فيها قبضة تذكر ، فسرعان ما ابتدعت لنفسى أسباب العزاء .. فرحت أتوقع أن ألتقى عما قريب أنباء من مدام «فاران» ، برغم أننى لم أكن أعرف عنوانها، كما كانت هى تجهل أننى رجعت .. أما بصدد التخلى عن السيد « لوميتر » ، فانى بعد التأمل فى هذا الأمر لم أجد فيه ذنبا بالغا ، فلقد كنت نافعا له فى فراره ، وهذه هى الخدمة

الوحيدة التى كانت تتوقف على . ولو أننى بقيت معه فى فرنسا لما شفيته من علته ، ولما أنقذت صندوقه ، ولما فعلت سوى أن أضاعف نفقاته دون أن أملك له نفعا . . هكذا رايت الأمر ، إذ ذاك ، وإن كنت أراه اليوم على النقيض . فان التصرف الخسيس لا يكربنا عند ارتكابه ، وإنما يصبح مصدر هم لنا عندما نذكره بعد وقت طويل ، لأن ذكراه لا تخمد قط !

وكان الدور الوحيد الذى استطعت أن أقوم به للحصول على أنباء « ماما » ، هو أن انتظر ، وإلا فأين كنت أبحث عنها فى باريس ، وبأى نفقات كنت أقوم بالرحلة ؟ لم يكن ثمة مكان أكثر ضمانا من ( أنيسى ) لمعرفة مقرها ، إن عاجلا أو آجلا . ومن ثم فقد مكثت بها ، ولكنى أسأت التصرف إلى حد كبير ، إذ أننى لم أذهب إطلاقا لزيارة الأسقف الذى كفلنى من قبل — والذى كان بوسعه أن يكفلنى من جديد — فان راعيتى لم تعد على مقربة منه ، وقد خشيت اللوم منه على ذلك الهرب . وكذلك لم أعد أذهب إلى المعهد الدينى ، إذ أن السيد «جرو» لم يعد هناك . . ولم أر أحدا من معارفى ، وإن كنت قد تمنيت أن أذهب لزيارة زوجة وكيل الإدارة ، لولا أننى لم أجرؤ قط ! . . بل إننى ارتكبت ما هو أسوأ من كل هذا ، فقد سعيت إلى السيد « فينتور » ، الذى لم أفكر فيه البتة منذ رحيلى ، برغم شغفى به ، فوجدته متألقا مكرما فى « أنيسى » بأسرها ، والنساء يتزاحمن عليه ! وقد أفقدنى هذا التوفيق حجاى تماما ، فلم أعد أبصر سوى السيد « فينتور » ، بحيث أوشك أن ينسينى « مدام دى فاران » . ولكى أفيد من دروسه بمزيد

من اليسر ، عرضت عليه أن يشركنى معه فى مسكنه ، فوافق . وكان يسكن لدى إســكافى لطيف مهذار ، لم يكن يطلق على زوجته ـ بلهجته الريفية ـ سوى « العــاهرة » ، وهــو اسم كانت أهلا له ! وكانت له معها مشاجرات اعتاد «فينتور» أن يسعى لإطالتها وهو يتظاهر بالرغبة فى أن يفعل العكس . إذ كان يوجه إليهما ـ بلهجــة هادئة ، وبلكنته الإقليمية ـ كلمات تحدث أعظم أثر .. وكانت تلك مناظر تجعل المرء يقع مغشيا عليه لفرط الضحك !.. وهكذا كانت فترات الصباح تنقضى دون أن يفطن إليها المرء . فاذا كانت الساعة الثانية أو الثالثة ، تناولنا لقمة ، ثم يذهب « فينتور » إلى الأوساط التى كان يغشاها ، حيث يتناول عشــاءه .. أما انا فكنت اتمشى وحيدا ، مفكرا فى براعته البالغة ، وانا اعجب بمواهبه الفذة واغبطه عليها ، لاعنا طالعى المنحــوس الذى لم يكن يفضى بى إلى مثل هذه الحياة الهانئة !.. آه ! ما أقل ما كنت أعرفه عن الحياة الهانئة ! إن حياتى بالذات كانت خليقة بأن تكون أكثر بهجة مما كانت مائة مرة ، لو أننى كنت أقل غباء ، ولو عرفت كيف أستمتع بهذه الحياة على نحو افضل !

ولم تكن مدام دى «فاران» قد صحبت معها سوى «انيه» ، بينما تركت « ميرسيريه » وصيفتها التى تحدثت عنها من قبل، والتى وجدتها تشــغل مخدع سيدتهــا . وكانت الآنســة «ميرسيريه» فتاة تكبرنى قليلا، ليست بالجميلة ، ولكنها مقبولة الشكل .. فتاة طيبة من بنات ( فريبورجوا ) بريئة من الخبث ، ما عرفت لها من عيب سوى أنها كانت فى بعض الأحيــان ـ

تعصى سيدتها . فأخذت أكثر من زيارتها ، إذ أنهـا كانت من المعارف القدامى ، وكان مرآها يذكرنى بمن كانت أعز منهـا لدى ، وبمن أحببتها من أجلها . وكانت لها صديقات عديدات بينهن آنسة تدعى « جيرو » ، من بنات « جنيف » ، شاءت أن تهوانى ، برغم نقائصى . فكانت تلح دائما على « ميرسيريه » أن تصطحبنى إلى دارها . وقد تركتها تفعل لأننى كنت أحبها ـ اعنى ميرسيريه ـ ولأننى كنت أجد هناك فتيات أخريات أرتاح إلى رؤيتهن . أما عن الآنسة جيرو ـ التى كانت تبدى لى كل ألوان المضايقات ـ فلم يكن لدى إنسان ما يفوق النفور الذى كنت أحسه نحوها !.. كنت أجد عناء ـ إذا ما قربت من وجهى أنفها الأعجف الأسود الملوث بالسعوط ـ فى أن أكبح نفسى عن البصق عليه ! بيد أننى تشبثت بالصبر ، إذ كنت إلى جوارها أنعم كثيرا بالوجود وسط هؤلاء الفتيات اللائى كن يتبارين فى الاحتفاء بى ، إما بدافع التملق للآنسة جيرو ، أو التقرب إلى شخصيا . ولم اكن أرى فى كل هـذا صداقة . ولقد تراءى لى فيما بعد أنه كان فى وسعى أن أرى ما يزيد على الصداقة ، ولكن هـذا لم يخطر ببالى ، ، ولا أنا أوليته أى تفكير !

وإلى جانب ذلك ، فان الحائكات والوصيفات وعاملات المتاجر لم يكن يستهوينني البتة ، وإنما كنت أصبو إلى الآنسـات الراقيات !.. إن لكل امرىء أحلامه الخيالية ، وقد كانت تلك أحلامى دواما . ولسـت أرى فى ذلك ما رآه « هوراس » . على أنه من المؤكد أن ابهة المكانة والمنصب لم تكن هى التى

تجتذبنى ، وإنما كانت تفتننى بشرة مصونة بعناية ، ويدان جميلتان ، وزينة بديعة ، وجو من الرقة والطهر يشمل الشخص بأكمله ، وذوق ضاف فى الحركة والقول ، وثوب غال بديع الصنع ، وحذاءان صغيران ، وأشرطة و «دانتيلا» ؛ وشعر أنيق التصفيف .. وقد اعتدت دائما أن أفضل من أوتيت كل هذا ، ولو كانت أقل الفتيات جمالا .. والواقع أننى أنا نفسى أرى فى هذا التفضيل أمرا يدعو إلى الضحك ، ولكن قلبى يهفو إليه على الرغم منى !

***

حسنا !.. لقد سنحت نى هذه الميزات مرة أخرى ، ولم يكن على سوى أن أستغلها . لكم أحب أن أقع ـ من آن إلى آخر ـ على اللحظات البهيجة فى شبابى !.. ما كان أحلاها لى ، وما كان أقصرها وأندرها !.. ولقد استمتعت بها بأبخس الأثمان !.. آه ! إن مجرد تذكرها يثير من جديد فى قلبى نشوة طاهرة أنا فى مسيس الحاجة إليها لتجديد جراتى ، ولدرء الهجوم عن بقية سنى حياتى !

ففى ذات صباح ، بدا لى الفجر من الجمال بحيث أننى ارتديت ثيابى فى عجلة ، وأسرعت إلى الخلاء لأشهد شروق الشمس . واستمرات هذه المتعة بكل فتنتها ، وكان ذلك فى الأسبوع التالى لعيد القديس يوحنا ، والأرض فى أبهى زينتها ، وقد كساها العشب والزهور .. وكانت البلابل قد أوشكت على نهاية تغريدها ، فبدا أنها كانت تستعذب الإمعان فى

إطلاق أصواتها .. بل إن الطيور جميعا راحت تشدو مودعة الربيع ، متغنية بمولد يوم بديع من أيام الصيف .. يوم من تلك الأيام الجميلة التى لم يعد المرء يراها فى سنى هذه ، والتى لا يراها المرء إطلاقا فى هذه البلاد الكئيبة التى أقيم فيها اليوم (١) .

وابتعدت عن المدينة دون أن أشعر . واشتدت حرارة الشمس ، فرحت أسير تحت ظلال أشجار واد صغير على ضفة غدير . ثم سمعت خلفى وقع حوافر جياد ، وصوت فتاتين بدا أنهما كانتا فى محنة ، وإن راحتا تقهقهان من أعماقهما . والتفت ، فإذا نداء باسمى ينبعث ، فاقتربت .. ووجدت فتاتين من معارفى ، هما الآنسة دى « جرافينرييه » والآنسة دى « جالى »، اللتان لم تعرفا كيف تحملان جواديهما على عبور الغدير ، لأنهما لم تكونا فارستين ماهرتين . وكانت الآنسة « دى جرافينرييه » شابة من ( بيرن ) ذات ملاحة طاغية ، وقد طردت من موطنها من جراء بعض الطيش الذى تتسم به سنها ، فحنت حنو مدام دى « فاران » ـ التى كانت تتردد على دارها لماما ـ على أنها لم تكن ذات مورد للعيش ، فلم تملك سوى أن تغتبط بأن تربط نفسها بالآنسة دى «جالى» التى شعرت بمودة نحوها ، فأغرت أمها على السماح لهذه الرفيقة بأن تقيم معها ريثما تجد عملا . وكانت الآنسة دى جالى تصغر زميلتها بعام ، كما كانت تفوقها حسنا . كانت

---

(١) كان « روسو » وهو يكتب هذا الجزء من اعترافاته يعيش فى ( ووتون ) بمقاطعة ( سترافورد شاير ) بانجلترا .

على قدر من الرقة والترفه لا قبل لى بوصفه ، وكانت فى الوقت ذاته دقيقة القسمات ، بديعة القوام ، أوتيت من الفتنة أكبر قسط يمكن أن تحظى به فتاة !.. وكانت كل منهما مشغوفة بالأخرى حبا ، ولم تكن طيبة نفسيهما إلا عاملا على تمكين هذا الود من أن يبقى طويلا ، دون أن يقوى أى عاشق على تعكيره !

وقالت لى انهما كانتا تقصدان ( تون ) ، القصر العتيق الذى كانت تمتلكه السيدة جالى ـ والدة الفتاة ـ ثم طلبتا مساعدتى فى حمل الجوادين على عبور الجدول ، الأمر الذى لم تقويا عليه . وهممت بأن أسوط الجوادين ، ولكن الفتاتين أشفقتا على من الركلات ، وعلى نفسيهما من الوقوع .. لذلك عمدت إلى حيلة أخرى ، فأخذت بمقود جواد الآنسة دى جالى ، ثم جررته خلفى ، وخضت الجدول الذى وصل ماؤه إلى ركبتى .. وإذ ذاك تبعنا الجواد الآخر دون عناء . وإذ تم ذلك ، هممت بأن أحيى الآنستين ثم أمضى فى طريقى كأى أحمق ، ولكنهما تبادلتا بضع كلمات بصوت خفيض ، ثم خاطبتنى الآنسة دى جرانينريه قائلة : « لا ، لا .. ما هكذا يفلت المرء منا ! لقد أصابك البلل وانت تؤدى لنا خدمة ، فأصبح من واجبنا ـ نحو ضميرنا ـ أن نعنى بك حتى تجف .. فخليق بك ـ إذا تكرمت ـ أن تأتى معنا ؛ إذ أنك أسيرنا ! » .

وخفق قلبى ، وتطلعت إلى الآنسة جالى ، فأضاءت وهى تضحك لما بدا على من ارتباك : « أجل ، أجل .. أسير حرب! اركب خلفها ، فنحن مسئولتان عنك ! » .. فقلت محتجا : « ولكن ، يا آنسة .. إننى لم أحظ بشرف التعرف إلى أمك ،

فماذا ترينها قائلة إذا ما رأتنى ؟ » .. وأجابت الآنسة دى جرافينرييه : « إن أمها ليست فى ( تون ) ، فقد جئنا وحدنا ، وسنعود فى المساء ، وبوسعك أن تعود معنا ! » .

وما كان للكهرباء أن تحدث فى كيانى تأثيرا أسرع مما أحدثته هذه الكلمات .. فقفزت إلى صهوة جواد الآنسة دى جرافينرييه وأنا ارتجف غبطة . وكنت كلما اضطررت إلى أن أحيط خصرها بذراعى لأحفظ توازنى ، خفق قلبى بعنف لم تلبث أن لاحظته ، فقالت إن قلبها ـ هو الآخر ـ كان يخفق ، لأنها كانت فى خوف من الوقوع !.. وكان قولها ـ فى مثل هذا الموقف ـ بمثابة دعوة لى كى أتحرى بنفسى صدقه ، ولكنى لم أجرؤ قط !.. ولقد ظلت ذراعاى ـ طيلة الرحلة ـ تحيطان بها إحاطة الحزام المشدود ، ولكنه حزام لم يتزحزح من موضعه لحظة !.. وكم من امرأة ممن يقرأن هذا ، تحس من نفسها رغبة فى أن تعرك أذنى .. ولن تكون مخطئة فى ذلك !

وأطلق بهاء الرحلة وثرثرة الشابتين لسانى ، فلم نسكت حتى المساء . بل إننا لم نصمت لحظة طيلة وجودنا معا ! ولقد استطاعتا أن تسريا عنى الحرج ، فماذا لسانى لا يقل نشاطا عن عينى ، وإن اتخذ أسلوبا غير أسلوبهما . ولم يكن الحديث يتوتر قليلا إلا فى بضع لحظات كنت أجد نفسى فيها على انفراد مع إحدى الشابتين ، ولكن الغائبة كانت سرعان ما تعود ، دون أن تسمح لنا بوقت نتجرى فيه سبب ارتباكنا !

وما أن بلغنا ( تون ) ، وجفت ثيابى ، حتى تناولنا الفطور . وكان لابد بعد ذلك من الانصراف إلى المسألة الهامة : مسألة

إعداد الغداء . فكانت الشابتان تتوقفان من حين إلى آخر ـ وهما عاكفتان على الطهو ـ لتقبلا أبناء حارسة المزرعة .. بينما كان غاسل الأطباق المسكين ـ أنا ! ـ يحملق فيهما ويكبح جماح نفسه ! وأرسلتا إلى المدينة فى طلب المؤن وكل ما يكفى لغداء شهى ، لا سيما الحنوى . ولكنهما نسيتا النبيذ لسوء الحظ ! ولم يكن هذا النسيان بمستغرب من فتاتين لا تشربان الخمر قط ، بيد أننى استأت إذ كنت أعول على معونته فى استمداد الجرأة . ولقد استاءتا هما الأخريان كذلك ، ولعل استياءهما كان لنفس السبب ، وإن كنت لا أظن ذلك . وكان مرحهما العارم الفاتن هو البراءة ذاتها ! وإلا فماذا كانتا تملكان أن تفعلاه بى فيما بينهما ؟!.. ولقد أرسلتا فى البحث عن نبيذ فى كافة البقاع المجاورة ، فلم يعثر على شىء منه البتة ، إذ كان أهل تلك المقاطعة فقراء لا يقربون الخمر . وإذ راحتا تعربان لى عن أسفهما ، قلت لهما أن لا داعى لأن تتجشما هذا العناء ، وإنهما لم تكونا بحاجة إلى نبيذ لكى تسكرانى !.. وكانت هذه هى المجاملة الوحيدة التى جرؤت على قولها طيلة النهار . على أننى اعتقد أن الماكرتين قد شهدتا بجلاء كاف أن هذه المجاملة كانت صادقة !

* * *

وتناولنا غداءنا فى مطبخ المزرعة ، وقد جلست الصديقتان على مقعدين طويلين ( دكتين ) إلى جانبى المائدة ، وضيفهما بينهما ، على مقعد مخفض ذى ثلاث قوائم . ويا له من غداء !.. أية ذكرى طافحة بالمفاتن ! ولماذا يسعى المرء وراء ملاه أخرى ، إذا كان بوسعه أن يحظى بمسرات فى طهر

هذه وصدقها ، بأبخس الأثمان !؟.. أبدا ما قدر للوجبات فى منازل باريس الصغيرة أن تدانى هذه الوجبة . ولست أقول هذا عن بهجتها فحسب ، ولا عن طربها فحسب ، بل أقوله عن نشوتها الحسية كذلك !

وعمدنا بعد الغداء إلى شىء من الاقتصـــاد ، فبدلا من أن نحتسى القهوة التى تبقت من الافطار ، احتفظنا بهـــا لنتناولها مع القشدة والفطائر التى احضرتهـــا الفتاتان معهما . ولكى نرضى شهيتنا ، ذهبنا إلى البستان لنتخذ من « الكريز » حلوى نختتم بها وجبتنا . فتسلقت الشجرة ورحت ألقى للفتـــاتين بعناقيد من الثمار ، بينما كانتا تردان إلى البذور ( النويات ) خلال الأغصان . وحدث فى إحدى المرات أن بسطت الآنســـة جالى مرولتها ، وطوحت برأسها إلى الخلف ، وثبتت فى مكانها ، فما كان منى إلا أن أحكمت الرماية وأنـــا ألقى بعنقـــود من الكريز ، فهوى فى صدرها !.. وانطلقت الضـــحكات !.. وقلت لنفسى : « ليت شفتى كانتا من الكريز !.. لكم أنا على استعداد لأن أرمى بهما إلى نفس المكان عن طيب خاطر ! ».

وهكذا انقضى النهار فى مرح استرسلنا فيه بأقصى تحرر ، مع التزام أقصى حدود الاحتشام على الدوام !.. فما من كلمة مبهمة تحتمل تأويلا ، ولا ملحة (نكتة) شاردة .. ولم يكن هذا الاحتشام يثقل علينا البتة ، بل إنه كان ينساب من تلقاء نفسه ، وكنا نصدر فى أفعالنا وأقوالنا عن إيحاء قلوبنا !.. وقصارى القول أنه بلغ من حيائى ـــ الذى قد يسميه الغير غباء ! ـــ أن أقصى مغازلة أفلتت منى هى أن قبلت يد الآنســـة جالى مرة

واحدة ! والحق أن الظروف أسبغت على هذه النعمة قيمة خاصة ، إذ كنا وحيدين ، وكانت أنفاسى تنبعث فى تهدج ، كما كانت عيناها منكستين .. وبدلا من أن يجد فمى قولا ، إذا به يلتصق بيدها التى لم تلبث الفتاة ان سحبتها فى رفق ـ بعد أن انطبعت عليها القبلة ـ وهى ترمقنى بنظرة لم تنم عن أى انفعال .. ولست أدرى ما كنت خليقا بأن أقوله للفتاة ، لولا ان أقبلت صديقتها على الغرفة ، فلاحت لى ـ فى تلك اللحظة ـ بالغة الدمامة !

وأخيرا ، فطنت الفتاتان إلى أنه لا ينبغى التريث فى العودة إلى المدينة حتى يهبط الليل . ولم يكن قد تبقى من النهار سوى الوقت الذى يمكننا من العودة ، فأسرعنا بالرحيل ، بنفس النظام الذى كنا عليه فى المجىء . ولو أننى وجدت جراة ، لكنت قد غيرت هذا النظام ، إذ ان نظرة الآنسة جالى كانت قد أثارت فؤادى .. بيد أننى لم أجسر على أن أقول شيئا ، ولم يكن مما يليق بها أن تقترح هى هذا التغيير ! ورحنا نقول ـ خلال انطلاقنا ـ إن اليوم قد انقضى سراعا ، ولكنا بدلا من أن نشكو من قصره ، أجمعنا على أننا أوتينا معجزة إطالته بفضل أسباب اللهو التى عرفنا بها كيف نملؤه !

وفارقتهما عند البقعة التى التقطتانى عندها ، تقريبا .. ولكن ، بأية حسرة افترقنا ! وبأى سرور رسمنا الخطة للقاء آخر !.. إن الاثنتى عشرة ساعة التى قضيناها معا بدت لنا قرونا لفرط الألفة ! وإن الذكرى العذبة التى اقترنت بذلك اليوم لم تكبد الشابتين اللطيفتين شيئا ، ولكن الوحدة الحنون

التى ربطت بين ثلاثتنا كانت تعادل فى قيمتها متعا أكثر بهجة واحتداما .. متعا لم يكن لها بقاء فى ظـــلال تلك الرابطة . فلقد تحابينا فى غير ما استخفاء ولا استحياء ، وكنا راغبين فى أن نتحاب دائما بهذا الشكل . وان لسذاجة الخلق لنشوتها التى تعادل تماما أية نشوة أخرى ، لأنهـــا لا تعرف راحة ، ولا تفتأ تحتدم باستمرار !

أما بالنسبة لى ، فانى أدرك أن ذكرى مثل هذا اليوم أكثر تأثيرا فى نفسى ، وفتنة لى ، وترددا على فؤادى من ذكرى أية متعة تذوقتها فى حيـــاتى ! وما كنت أدرى تماما ما الذى كنت أبتغيه من الفتاتين الساحرتين ، ولكنهما أطربتانى معـــا كل الطرب . ولست أقول إن قلبى كان خليقـــا بأن ينقسم بينهما قسمة عادلة ، لو قدر لى أن أســـيطر على أمورى ، فقـــد احسست بشىء من الإيثار والتفضيل : كان يسعدنى أن أحظى بالأنسة جرافينريبيه عشيقة ، ولكننى لو خيرت لآثرت ـــ فيما أعتقد ـــ أن أتخذها صديقة حميمة ! وسواء كان هذا أو ذاك ، فقد بدا لى إذ فارقتهما أننى لم أعد أقوى على الحياة بدونهما معا . فمن كان منبئى بأنه لم يكن مكتوبا لى أن أراها فى حياتى مرة أخرى ، وأن هـــذه كانت نهاية حبنا الذى لم يعمر سوى يوم واحد !

إن الذين يقرأون هـــذه السطور لن يتمالكوا أنفسهم من الضحك من مغامراتى الغرامية ، وملاحظة أن أكثرها تطورا كانت تنتهى ـــ بعد كثير من التمهيدات ـــ بقبلة على اليد !.. ولكن ، لا تغتروا يا قرائى ! فلعلنى نعمت من تلك الغراميات

ـ التى كانت تنتهى بهذه القبلة على اليد ـ بمتعة تفوق كل ما سيتاح لكم فى غرامياتكم التى قد تبدأ بمثل هذه القبلة !

***

وعاد « فينتور » إلى البيت بعد عودتى بقليل ؛ إذ كان قد تأخر كثيرا فى الذهاب إلى مضجعه فى الليلة السابقة . وفى هذه المرة ، لم أشعر بسرور لرؤيته كمألوف عادتى ، كما أننى كتمت عنه النهج الذى قضيت عليه يومى . فان الآنستين كانتا قد تحدثتا إلى عنه شىء من الازدراء ، وبدا لى أنهما استاءتا إذ علمتا أننى كنت فى مثل هذه الرعاية السيئة . فنال هذا من مكانته لدى ، سيما وأن كل ما كان يشغلنى عن التفكير فيهما بدا لى غير مستحب . على أن فينتور ما لبث أن ردنى إلى نفسى وإليه ، بأن أخذ يتكلم عن موقفى ، إذ غدا أحرج من أن يستمر . فمع أننى لم أكن أنفق غير القليل جدا ، إلا أن كيسى بدأ يفرغ ، ولم يكن لى مورد .. ولم يكن ثمة نبأ عن « ماما » ، فلم أدر ماذا أفعل ، وشعرت بانقباض شديد إذ رأيت صديق الآنسة جالى يهبط إلى مستوى المتسولين !

وانبأنى فينتور بأنه قد تحدث عنى إلى الضابط القضائى(١) ، وأنه اعتزم أن يصطحبنى لتناول العشاء عنده فى اليوم التالى ، وأن هذا الرجل كان فى مركز يمكنه من أن يخدمنى عن طريق أصدقائه .. فضلا عن أنه كان من خيرة من يحسن التعرف إليهم ، كان ذكيا وأديبا ، ذا طباع جد ملائمة . وكان

---

(١) (OUGEMAGE) كان موظفا ذا مركز هام ، يطبق العدالة باسم الملك .

موهوبا ، بقدر المواهب لدى الغير . ثم أطلعنى — وهو يمزح القوائه بالخطير من الأمور ، جريا على عادته — على مقطع بديع من الشعر ، وصل من باريس ، وكان يردد فى لحن بإحدى « اوبرات » وريه ، ذاع فى ذلك العهد . ولقد أعجب السيد سيمون — وهو اسم الضابط القضائى — به ، فأراد أن ينظم مقطعا آخر ، على نفس النغمة ، ردا عليه .. وطلب إلى فينتور أن ينظم مقطعا هو الآخر ، فتملكته نزوة أوحت إليه بأن يحملنى على أن أنظم بدورى واحدا ، حتى تترى هذه المقاطع تباعا — حسب قوله — فى اليوم التالى ، كما كانت المحفات تتتابع فى « القصة المضحكة »(١) .

وإذ عز على النوم — فى تلك الليلة — نظمت المقطع بقدر ما استطعت . وكان لا بأس به ، إذا قدرنا أنه كان أول ما نظمت من الشعر ! بل انه كان أفضل — أو على الأقل ، أرق — مما كنت خليقا بأن أنظم فى اليوم السابق ، إذ أن موضوعه دار حول موقف عاطفى كان قلبى قد تفتح له . واطلعت فينتور — فى الصباح — على مقطعى الشعرى ، فرآه بديعا ، ودسه فى جيبه دون أن ينبئنى بما إذا كان هو قد نظم مقطعه .. وذهبنا نتناول العشاء فى دار السيد « سيمون » ، الذى أحسن استقبالنا . وكان الحديث طليا ، وما كان من الممكن أن يكون غير ذلك ، وقد دار بين رجلين

---

(١) منظر فى الفصل السابع من (ROMAN COMIQUE) ، أروع مؤلفات « سكارون » .

ذكيين واسعى الاطلاع .. أما أنا ، فقد قمت بدورى المعتاد ، إذ رحت أصغى وأنا ممسك لسانى . ولم يقل أحد منهما شيئا عن أى مقطع شعرى ، وكذلك لم أقل أنا شيئا .. ولم يرد ذكر ـ على قدر ما عرفت ـ للمقطع الذى نظمته !

وبدا على السيد سيمون أنه ارتاح إلى مسلكى . وكان هذا قصارى ما عرفه ـ تقريبا ـ عنى فى هذا اللقاء . وكان قد رآنى من قبل عدة مرات بدار السيدة « دى غاران » ، دون أن يولينى اهتماما يذكر . ومن ثم فاننى أحسب معرفتى به منذ ذلك العشاء .. المعرفة التى لم تكن ذات نفع للموضوع الذى كان يشغل بالى ، ولكنى أفدت منها ـ فيما بعد ـ منافع أخرى ، تجعلنى أذكر السيد سيمون بسرور . وما ينبغى أن أرجىء الحديث طويلا عن شكله الذى يستحيل على اى امرىء أن يكون فكرة عن الرجل ما لم اتحدث عنه ، سيما إذا راعينا ما كان للسيد سيمون من سلطة إدارية وروح طيبة كان يفخر بها ..

لم يؤت السيد الضابط القضائى ـ بالتأكيد ـ من الطول قدمين(١) . وكانت ساقاه مستقيمتين ، نحيلتين ، وطويلتين فى نفس الوقت ، وكانتا خليقتين بأن تبدياه طويلا ، لو أنهما كانتا رأسيتين ، ولكنهما كانتا منفرجتين كساقى فرجار

---

(١) كتب «روسو» فى مخطوطات الطبعة الأولى أن طول سيمون كان قدمين، ثم ضرب عليها بالقلم وكتب « ثلاثة أقدام » ؟.. ولكنه لم يثبت هذا التعديل فى النسخة الثانية من المخطوطات ، وهى التى استخدمت فى طبعة جنيف .

( برجل ) مفتوح على سعته ، ! أما جسمه ، فلم يكن قصيرا فحسب ، وإنما كان نحيلا وضئيلا بدرجة لا سبيل إلى وصفها. ولابد أنه كان يبدو ـ إذا ما تجـرد من ثيابه ـ كالجرادة ! أما رأسه ـ الذى كان عادى الحجم ، وله وجه مليح التكوين، وقسمات نبيلة ، وعينان بديعتان ـ فقد كان يبدو كرأس زائف أقيم على أرومة تبقت من جـذع شـجرة !.. ولابد أنه كان يقتصد كثيرا من نفقات الكسـاء ، إذ كانت تلنسـوة الشعر المستعار وحدها تكسوه تماما من رأسه إلى قدمه !

وكان له صوتان مختلفان تمام الاختلاف ، يختلطان معـا باستمرار كلما تكلم ، ويتباينان بشكل يبدو ـ فى أول الأمر ـ طريفا ، ولكنه لا يلبث أن يغدو كريها ! وكان أحدهما جهوريا عميقا ، وهو صوت رأسه ، إن جاز لى أن أقول هذا . أمـا الآخر فكان واضحا ، حادا نفاذا ، وكان صوت جسده ! وكان ـ إذا ما التزم الحذر ـ تكلم بتحفظ بالغ ، ونظم تنفسـه ، فيستطيع أن يتكلم باستمرار بصوته العميق .. ولكنه لا يكاد يتحمس قليلا ، ويتكلم بلهجة أكثر حدة ، حتى يشبه صـوته صفيرا منبعثا من نغم عال .. وكان يجد عناء بالغا فى العودة إلى الطبقة الخفيفة من الصوت !

ومع هذا المظهر الذى وصفته ، والذى لا مغالاة فيه إطلاقا ، كان السيد سيمون مؤدبا . راوية للطرائف ، شديد العنـاية بلباسه إلى درجة الحذلقة . ولما كان راغبا فى أن يبدو فى أعظم

مظاهره ، فقد كان يحلو له أن يعقد مقابلاته فى الصباح وهو فى السرير ، لأن الذى كان يرى رأسا بديعا على الوسادة ، لم يكن يتصور أن هذا كل ما لديه من حسن ! وكان هذا يؤدى ـ فى بعض الأوقات ـ إلى مناظر مضحكة ، أعتقد أن ( أنيسى ) لا تزال تذكرها !

ترى كيف ابعد (( روسو )) عن الفتاتين الفاتنتين : جرافينريه وجالى ؟.. وما الحيلة الماكرة التى دبرتها الآنسة جيرو ـ العجوز الشوهاء ـ لإقصائه عنهما ؟ وما المتاعب والمغامرات التى خاضها حتى استطاع ان يلتقى بمدام دى فاران مرة اخرى ؟ وكيف قبلت (( امه ! )) هذه ان تصبح عشيقته ؟

إن (( روسو )) يحدثنا عن كل هـــذا ، فى الكراسات المقبلة من اعترافاته ، التى تقدمها (( مطبوعات كتابى )) فى الجزء الثانى من (( الاعترافات )) ـ كما يحدثنـــا عن نزواتـــه واهوائه وتجاربه ، ثم عن ذهابه إلى باريس ، حيث بدا نجمه فى التالق .

٤٣٧٩

رقم الإيداع : ٦ - ٠٨٠ - ١٦٣ - ٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة

٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية

تليفون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة

مطبوعات كتابى
إصـــدار جـــديد

## عزيزى القارئ ..

إذا أردت أن تعرف قيمة هذا الكنز الأدبى الخالد الذى توافيك به (مطبوعات كتابى) اليوم ، فإليك ما كتبه عنه المفكر المطلع الأستاذ «سلامة موسى» فى عدد ١٩ نوفمبر عام ١٩٥٥ من جريدة (أخبار اليوم) ، إذ قال :

« واعترافات جان جاك روسو من الكتب التى يجب أن تترجم إلى لغتنا قبل ١٠٠ أو ١٥٠ سنة .. » .

.. كما كتب الأديب والشاعر الكبير الأستاذ « عبد الرحمن صدقى » فى مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ ١٤ فبراير ١٩٣٩ يقول : « انقضى نيف ومائة وستون سنة على وفاة « روسو » ، وانصرف الأدباء وجمهرة القراء عن مطالعة كتب « روسو » الأخرى ، ولكنهم لم ولن ينصرفوا عن مطالعة ( اعترافاته ) ، ذلك أن الاراء فى السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل ، أما نجوى النفس البشرية فهى لا تتغير ولا تتبدل » .

.. والواقع أن هذه ( الاعترافات ) التى تقدم ( مطبوعات كتابى ) إليك اليوم أول ترجمة أمينة « كاملة » لها باللغة العربية ، هى أدق وأصدق مصدر لسيرة المفكر العبقرى «جان جاك روسو» ولقد كان من أهم الميزات التى كتبت الخلود لهذه الاعترافات ، إنها كانت أول عمل أدبى يكشف صاحبه فيه عن نفسه ، فقد سجل «روسو» فى هذا الكتاب أدق أحداث حياته ـ خيرها وشرها ، طيبها وخبيثها ـ دون أن يجفل من مواجهة الحقيقة !

حلمى مراد

Bibliotheca Alexandrina
0705962